دراسات في البلاغة

عند ضياء الدين بن الأثير

دكتور
عبد الواحد حسن الشيخ
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
تليفون : ٤٩٣٩٤٧٢ إسكندرية

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

إلى الزميل العزيز الأستاذ الجليل أستاذي الدكتور مصطفى الجويني تحية وحبا
المؤلف

دراسات في البلاغة
عند ضياء الدين بن الأثير

دكتور
عبد الواحد حسن الشيخ
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

١٩٨٦

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٤٩٣٩٤٧٢ الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــــــــة

(١)

الحمد لله رب العالمين ، خالق الانسان ، ومعلمه صنعة البيان ، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضـــاد ، وأبان عن مرامى الكلام ، القائل : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، صـــلاة ، وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الفصل بين الأولين والآخرين : وبعـــــد

فقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم قوم خصمون ، وأنهم ذووا ألسنة حداد ، بل كثيرا ما وصفهم باللسن والفصاحة ، ومن ثم كان تحديه لهم • وكانت آلتهم التى يتيهون بها على غيرهم ، بل على بعضهم بعضا بلاغة الكلام وفصاحته ، وقد خلفوا لنا تراثا قيما ، طبع بالسليقة ، والاقتدار ، ولم يأت من فراغ ، فمن شب على شىء شاب عليه فتلك كانت عادة شبابهم وشيبهم •

وكانت البلاغة عند عامتهم تعنى الابانة والوضوح ، ومراعاة المقال للمقام ، غير أنهم لم يطلقوا الأسماء على المسميات ، بل كانوا يأتون بالصورة البليغة التى تعبر بصدق عما يجيش بداخل المتكلم، بلغة رصينة وأسلوب جميل ، ومن ثم جاء صدق الصورة الفنية مهما كانت المبالغة فيها •

ومن الله على العرب بانزال القرآن الكريم بلغتهم فأيد ما كان جميلا يوافق الشريعة الغراء ، ونفى الزيف والبهتان ، بالاضـــافة الى أنه أثراها بالعديد من الصور البلاغية التى هى وفق لغة العرب،

وان فاقت ما جاء به العرب ولاغرو فان المسك بعض دم الغزال ، كذا يقال • ثم دخل الناس فى دين الله أفواجا ، لا فرق بين عربى ، ولا عجمى الا بالتقوى والوقوف على ما جاء بكتاب الله وسنة نبيه — ﷺ — فتحتم عليهم أن يتقنوا لغة القرآن الكريم ، لأنهم رأوا صورا وقفوا حيالها مبهورين ، وتحتاج الى تأمل وتدبر ، تكون أحيانا تشبيها ،وأخرى كناية ، وثالثة استعارة أو مجازا ، وقد تزخرف بلون من ألوان فن البديع ، أو تكون وفق أساليب علم المعانى ، وهذه أمور تحتاج الى دراسة وتعمق ، فشمروا عن ساعد الجد ، واستعدوا للدرس والبحث ، غير أنهم كانوا مزودين ، بل تسيطر عليهم ، آراء المذاهب الكلامية المتباينة بما فيها من تقسيمات وتفريعات ، نقلوها للبلاغة ، فكان علم أو فن المعانى ، ثم البيان فالبديع ثالث الثلاثة ، ممالم يكن شائعا عند العرب الاقدمين ، قبل عصور التدوين •

وبدأت هذه التقسيمات هينة يسيرة ، لكنها وفق نظرية النشوء والارتقاء ، تعددت وتفرعت على أيدى كل من اهتم بالبلاغة، من الأصوليين ، وعلماء الكلام ، الذين تأثروا بالمنطق الأرسطى وتفريعاته وحدوده وجدله وأيضا على أيدى علماء اللغة والنحو فكان لكل منهم وجهة هو موليها ، وركية ينهل منها •

وتبعا لذلك سيطر على الدراسات البلاغية مدرستان ، مدرسة كانت تعنى بالذوق ، وتعجب بالصورة الفنية ، ومدى ملاءمتها لما يحيط بها ، وأخرى سيطر عليها المنطق وجفافة ، وتقسيماته وتفريعاته ، فالأولى هى مدرسة الأدباء ، والأخيرة مدرسة المتكلمين والمناطقة •

وللأسف فان المدرسة الأولى توارت واختفت ، وراء المدرسة الثانية التى ما تزال تبسط سلطانها على الدرس البلاغى للآن —

الا قليلا من بعض اللمحات الذوقية — ، فنجد من يتناول أى فن من فنون البلاغة ، يعنى بالحدود الظاهرة فقط ، ولم يكلف نفسه سبر أغوار الصورة البلاغية التى أمامه ، ولو فعل لكان خيرا له وللبلاغة وفنونها ، لكنه معذور وغير معذور فى ذلك ، معذور لأنه وجد آباءه كذلك يفعلون ، فكان لافرق بين درس البلاغة ودرس النحو ، أو اللغة ، فالجفاف هو القاسم المشترك الأعظم بين كل • وغير معذور لأنه لم يكلف نفسه تذوق الصـــورة الفنية ، فيسبر أغورها ، ويفض أختامها ، ويستنطق عجماواتها ، ويتلذذ بجمالها ، ان كانت حقا صورة فنية بارعة رائعة الجمال ، أو يظهر سخفها ويوضح زيفها ان كانت سخيفة زائفة فيكون استحسانه أو استهجانه نابعين من ذاته التى تدربت وتمرست بالعديد من الصور البلاغية ، فلا يستحسن اذا استحسن الآخرون ، ولا يستقبح باستقباحهم •

بالاضافة الى أن الاستحسان أو الاستهجان يجب أن يحكمهما الاطار الفنى وليس الاطار العصرى،فطالما أن الصورة الفنية أوضحت صـــدق القائل ، وأنــابت عما يجيش بنفســـه ، فى غـــير تكلف أو تعسف كانت جميلة أيا كان عصرها وزمنها ، وقائلها أيضا ، اذ المعول على صدق الصورة الادبية فنيا ، لا صدق نقلها للواقع ، فكلما كانت الصورة الفنية مضمخة بحرارة الانفعال الفريد الأصيل للقائل، كان ذلك معيار التفرقة والاستحسان •

ومهما يكن من أمر فان التـــأليف البــــلاغى من لدن الجاحظ حتى السكاكى وانتهاء بالعصور التالية ، عنى بالتفرقة بين قسم وآخر ونوع وعدد وفرع حتى وصل بفن كالبديع الى هذا الحد مـــن الألوان وكان التأليف البـــلاغى متأثرا فى ذلك بالتيارات العربيـــة الأصيلة مضافا اليها التيـــارات الوافدة من يونانيـــة ، وهندية ، وفارسية وغيرها •

كل ذلك انصهر فى البوتقة العربية ، فخرج هذا المزاج البلاغى المتوحد ومن هنا فلا نستطيع أن نقول عن جزء منه بأنه هندى ، أو يونانى ، أو فارسى ، بعد اصطباغه بالصبغة العربية ، الا أن التيار اليـونانى كان ذا حظ — الى حد ما — فى تلوين البلاغـة العربية شكلا لا مضمونا حيث ظل المضمون عربيا خالصا .

واحقاقا للحق نقرر أن العربى الجاهلى لم يكن محتاجا لمعرفة المسميات المنطقية ، لأن المولود يولد أولا ، ثم يأخذ اسمه بعد ذلك ، وليس العكس ، وهذا ما حدث للبلاغة العربية ، فهى حقيقة مقرورة فى نفس العربى الجـاهلى والاسـلامى ، ولكنه كان غير عابىء بالمسميات لان الدلالة واضحة فى ذهنه بل يحتاج الى ذلك من كان من غير العرب ، حيث وضع الدلالات لكى يعرف المدلول .

وتبعا لذلك — وكما سلف القول — فقد نشأ البحث البلاغى فى بيئات اختلفت باختلاف نظرة كل بيئة والعلم الذى يسيطرعليهم، لذا لونوا البلاغة بألوانهم المتعددة الأدبية ، أو العلمية ، أو اللغوية، أو الفلسفية المنطقية الكلامية ، وغير ذلك من مشارب متفاوته فى البيئة الاسلامية الفتية الجديدة .

(٢)

ونصل الى ابن الأثير الأديب ، الكاتب ، الفنان فنجد البلاغة عنده يلونها طابع الذوق الأدبى ، حيث نراه قد استفاد كثيرا من آراء من سبقوه فى الدرس والبحث البلاغى ، ولعل من يقرأ كتبه خاصة الجامع الكبير ، والمثل السائر سوف يجد بونا شاسعا بينه ، وبين غيره ممن فلسفوا البلاغة ومنطقوها ، فلم يقسم البلاغة الى علومها الثلاثة المعروفة المقررة ، بل نظر الى الكلام فوجده عملة

ذات وجهين لفظ ، ومعنى ، فأقام صناعة البلاغة على هذين القسمين وبالتالى قسمها الى قسمين : قسم يعرف بالصناعة اللفظية ، وآخر بالصناعة المعنوية .

وهذا التقسيم حرى بالاحترام والتقدير ، وعلى حد تعبيره فهو لم يقتف فيه أثرا لاحد ، بل جاء هذا التقسيم جديدا كل الجدة ، وابن الأثير محق فى ذلك ، لان واقع البلاغة ، والنظر الصائب اليها يقران ذلك ، فمن يتحقق من البديع سوف يراه محسنات لفظية وأخرى معنوية ، وبذا لم يفرد له بابا ، كما لم يرتض نهج سابقيه فلم يلف لفهم ، أو ينحى منحاهم ، بالاضافة الى أنه ابتعد عن المنطق والمناطقة فى كلامه عن البلاغة ، ولذا عاب على النحاة الذين منطقوا نحوهم ، وأرادوا أن يمنطقوا البلاغة ، فقال قولته المشهورة فى كتابه المثل السائر « النحاة لافتيالهم فى البلاغة » لأنه يفهم البلاغة حق فهمها ، ويعجب بالصورة الأدبية الفنية فينسج على منوالها ، ويصوغ العديد من أمثالها ويضمنها كتبه ، حتى صار عاشقا للبلاغة ، فأنزلها مكانا عليا ، وقال عنها أيضا : « ان للبلاغة سجودا كسجود الكتاب » . وقد عرضنا فى الصفحات التالية لآراء ابن الاثير البلاغية ، ولكن وفق التقسيمات التى وضعها غيره من البلاغين ، فضممنا أقسام كل فن الى بعضه بعضا ، من باب مراعاة النظير ، لأننا اعتقدنا انها لو درست كما جاءت عند ابن الأثير لظلت متناثرة .

وقد جمع فى دراسة الصناعة اللفظية أنواعا سبعة فى كتابه « الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور » منها

السجع ، والأزدواج ، والتجنيس والترصيع ، والموازنة ، وما الى ذلك • بينما نراه جعلها فى « المثل‌السائر » ثمانية أنواع ، والنوع الثامن هو « المنافرة بين الألفاظ فى السبك » هذا بالاضافة الى أنه فى كتابه المثل السائر أوضح دراسة اللفظة المفردة ، واللفظة المركبة التى قصدها بالصناعة اللفظية ، أو صناعة تأليف الألفاظ •

وبينما عد الصناعة المعنوية تسعة وعشرين نوعا فى الجامع الكبير ، جعلها ثلاثين نوعا فى كتابه الآخر وهو المثل السائر ، ولكن ليس ثمة فرق كبير لان الأبواب هى نفسها باستثناء بعض أوجه الخلاف فى التسمية • ومن ذلك تسمية الالتفات فى المثل السائر ، بشجاعة العربية فى كتابه الآخر الجامع الكبير ، وزاد فيه ما أسماه بالتعقيب المصدرى ، وكالتجريد الذى لم نره بين الأنواع التسعة والعشرين التى جاءت بالجامع الكبير •

وكما سلف أن أشرنا ، فانه لم يفرد فى أى من كتبه ، فن البديع بدراسة مستقلة ، فانفرط عقد هذا الفن بين الصناعة اللفظية والصـــناعة المعنـــوية ، فمثـــلا نراه ضـــم التجـــريد والتورية ، وأطلق عليهما الأحاجى كما ضم ، التضمين ، والارصاد ، والتوشيح والسرقات وبعض ألوان البديع الأخرى الى الصناعة المعنوية ، وجعل فى اطار الصناعة اللفظية السجع والجنـــاس ، والترصيع والموازنة ••• الخ ، ونكرر ما قلناه سلفا ان الرجل محق فى ذلك والصواب معه لأن فن البديع ثالث الثلاثة يجب أن ينقسم بين فنى المعانى والبيـــــان •

وقد كان الرجل على هدى وبصيرة من أمره حيث حدد هدفه من تأليفه كتبه فقال فى الجامع الكبير : (فحيث أحرزت هذه الفضيلة، وحصلت عندى هذه العقيلة ، أحببت أن أفرد لها كتابا ، وأفصلها أقســاما وأبوابا ، ليكون مقصورا على شوارد هذا العلم وغرائبه ، ورموزه الخفية وعجائبه ، وليجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته ، ويعلم به مواقع الصواب فى صناعته) •

بل ان عناوين كتبه لتدل بنفسها على ما أورده المؤلف منها ، فنجد الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، أو : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، وأيضا : المفتاح المنشا لحديقة الانشا ، والوشى المرقــوم فى حل المنظوم والمنثور ، وكلهــا قواعد وقوانين يجب أن يسير عليها الكاتب فى ديوان الانشاء حتى يصير صانعا محترفا فى مهنته ، ولاعجب فى ذلك فهو استاذ الكتاب، وتلميذ القاضى الفاضل مما جعله حريصا على هذه الصناعة لدرجة انه قد اقترح وجود محتسب ليحاسب فاسدى الكتاب وجاهلهم •

وما نقدمه بين يدى القارىء الكريم ، ما هو الا جهد متواضع أردنا به اماطة اللثام عن آراء وأفكار آخر رواد المدرسة الأدبية الذوقية البلاغية ، حيث جفت البلاغة ، ونضبت ركيتها فيها بعد حتى غدت قواعد وقوالب ومتون تحفظ ويقاس عليها ولا عبرة بمعنى المعنى المخبوء خلف ظاهر الألفاظ •

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) •

ومن الله التوفيق والهداية ، انه نعم المولى ونعم النصير •

د / عبد الواحد الشيخ

البـــــــــلاغة
عنـــد ابـــن الأثـــــير

« ان للبلاغـــة سجـــودا
كســـجود الـــكتاب »

ضياء الدين بن الأثير

تكلم ابن الأثير كثيرا حول صناعة الكتابة ، فأوصى الكتاب والشعراء بما يجب عليهم أن يعرفوه ، بل ما يتقنوه فى نظمهم ، ونثرهم ، غير أن الناظم يجب عليه أن يعرف العروض ، والوزن حتى يستقيم كلامه ، وهذا ليس شرطا للناثر ، ومن ثم وجدنا كتبه للناثر والشاعر أى فى صناعة الشعر والكتابه ، وان كان فن الكتابة قد شغل باله واستحوذ على لبه ، فسيطر على معظم كتبه ، كما سبق أن بينا ، لذا وجدناه دائما يوجه كلامه وكتاباته الى جماعة الكتاب ، وكما رسم لهم طريق اصول وأركان الصناعة فانه فى هذه الصفحات سوف نراه يرسم لهم طريق زخرفة وصحة العبـارة لفظيا ومعنويا ، فهو الوجه الآخر لصورة واحدة لا تستقيم ، ولاتكمل الا اذا اجتمع هذن الوجهان ، أو الروح والجسـد ، فبهما معا دون أحدهما تحيا صناعة الكتابة ، ومن هنا فان ابن الأثير فهم الصلة ، بل وثقها بين الكتابة وعلم البلاغة والفصاحة بأصوله وفروعه .

وفى عجاله سريعة نقول : ان العرب كانوا يتكلمون لغتهم نحوا وبلاغة وتصريفا بالفطرة والسليقة ، يتقنها القائل ويفهمها السامع ويدرك ما فيها من جمال نابع من التناسق اللفظى والمعنوى ، وكان الابناء خير خلف لخير سلف ، ولذا وجدنا القرآن الكريم يصف العرب فى جاهليتهم ، بأنهم قوم خصمون ، وأنهم ذووا ألسنة حداد ، فالله سبحانه وتعالى وصفهم بهذا الوصف ليخبرنا من ناحيـة عن فصاحتهم ومعرفتهم بالالفاظ والمعانى ، وكيف ، ومتى تستخدم . ولكى يدلل على قوة عارضتهم وبراعة معرفتهم بالبيان من ناحية أخرى ، ولذا وجدنا القرآن الكريم يتحداهم بأن يأتوا ولو بآية من

القرآن الكريم ، وما كان الله سبحانه وتعالى ليتحداهم هذا التحد
الا وهو سبحانه عالم عارف بلسنهم وفصاحتهم وقوتهم على ا
البـليغ .

ولذا فاننا نبيح لأنفسنا القول بأن البـــلاغة والف
سمتان اساسيتان متــلازمتان لناطقى الضاد من لدن جاه
الجاهلة ، حتى عصور الاحتجاج قبل أن تختلط الألسن ، و
اللهجة العربية ، بين خضم اللهجات أو اللغات الأخرى لأولئك
الذين دخلوا فى دين الله أفواجا فامتزجت الألسن ، واختلط ا
بالنابل ، والعربى بالأعجمى ، ففســدت اللغــة بفساد مت
وطبائعهم ، بما فى ذلك العرب أنفسهم .

وكانت الركية العذبة ، والمورد الصافى المشرب ، الخالي
الكدر ، والرنق وردا موردوا لكل ناهل فهم فيه سواء ، لا
بين عربى ، وأعجمى الا بقدر ما يحسن ويحفظ ويتمثــل من
الركية ، أعنى القرآن الكريم فكلهم ناهل منه ، وكلهم شاخص
يتلوه ، ويحفظه ، ويتذوقه ويقف على براعة تصويره وقوة ترك
وسحر بيانه ، وجميل نظمه ، ونظيم لفظه وحلاوة معناه ، و
أيضا يتسامى للوصول الى كنه اعجازه وبيان ســحر بلاغته ف
الوطيس بين الادباء ، وعلماء الكلام فى بيان اعجاز القرآن و
فى ذلك طرائق قددا ، فتكاثف العجاج ، وشجر الخــلاف
المتكلمين ، وبين الادباء ، بل بين علماء الكلام أنفسهم ، والا
أيضا فى بيان وجوه تحسين الكلام حتى يرتقى فى مدارج البلا
فبعض القوم مال الى رصين الكلام الجامع بين العذوبة والجز

وقوة العبارة ونصاعتها • وبعضهم أولع بالمنمق الموشى بألوان البديع •

ولذا آضت الحالة ملحة الى وضع قوانين للبلاغة والفصاحة ، وقواعد تقعد أصولها وفصولها ، وتكون دستورا يهرع اليه عند الاختلاف فتكون ميزانا يقيم المعوج ويصلح الفاسد ، كما تكون ناموسا للناظرين فى الأدب العربى منثوره ومنظومه •

وقد ساعد بعض من اتقن غير العربية ، من يونانية وفارسية وسريانية وغير ذلك فى اثراء البحث البلاغى ، وتقنينه وتبويبه ، وبين هذا التلاقح الفكرى نشأ البحث البلاغى المنظم ، لان من يتقن العربية وغيرها من اللغات قارن وبحث عن أوجه البلاغة والفصاحة أصولا ، وفروعا فيما يتقنه من لغات ثم ينقله الى العربية بعد أن يهذبه ويترجمه ويجعله مسايرا لما فى لغة العرب ، ولن نذهب بعيداً فعندنا الأمثلة ماثلة فى كتب ابن الاثير — التى بين أيدنا فكان يتقن الى جانب العربية بعض اللغات الأخرى ، ففى أثناء كلامه عن الكناية مثلا يقول : (وما وجدته من الكناية فى لغة الفرس •••) (١) • ونقرأ له أيضا قوله (واعلم أن هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا فى غير اللغة العربية ، ووجد تهما فى اللغة السريانية فان الانجيل الذى بأيدى النصارى ، قد أتى منهما بالكثير ••) (٢) • لكن ليس معنى هذا ان

(١) المثل السائر ص ٣٩١ •
(٢) المثل السائر ص ٣٩١ •

البحث البلاغى العربى ، أو البلاغة العربية كانت فقيرة ، أو كانت محتاجة الى من يساندها لكى تقوم علما ، كلا ، فان البلاغة العربية استحصدت مرتها ، مثلها فى ذلك مثل باقى علوم العربية كالنحو واللغة ، فكان العرب يستعملون الألوان البلاغية كلها بالسليقة عدا القليل من أبواب البديع كلزوم مالا يلزم مثلا — وكانوا أيضا غير محتاجين لمن يعلمهم اياها ، أو يوقفهم على اسمائها ، والدليل على ذلك أدب فترة ما قبل الاسـلام — فانه يعج بهذه الألوان البلاغية لدرجة ان امرأ القيس قد شهد له كل من تكلم عنه بأنه برع فى التشبيه بدرجة لم يسبقه اليها غيره من شعراء العربية .

غير ان الذى نعنيه من معرفة لغات غير العربية ، هو التلاقح الفكرى بين المعانى العربية وغير العربية خاصة اليونانية ، التى اعتبرت عند بعض علماء العربية ، بل شاع عند الجميـع ان هـذه اللغة هى التى أمدت اللغة العربية بكل ما كان ينقصها نحوا ، ولغة ونقدا وبلاغة فهذا قول جائر حائف ، يغمط حق اللغة العربيـة وينتقصها قدرها فاذا كانت الثقافة اليونانية ، وخاصة الفلسفة قد أثرت فى الفلاسفة وعلماء الـكلام المسلمين ، فان العلوم العربية الأصيلة لم تكن قاصـرة حتى تتوكأ على اليونانية ، وليس كتاب الخطابة والشعر قرآنا ، انتظره علماء العربية حتى يتقنوا ما جاء بلغتهم ، بل كان كل شىء ثابتا مقرورا فى لغة العرب وتكلموا به : وورد فى أشعارهم وأقوالهم ، ومن أراد أن يجادل فى العقائد يمم شطر كتب فلاسفة اليونان ، ويومها شاع عند علماء العرب أن من تمنطق تزندق ، لكنهم احتـاجوا الى كل مافى اللغـة من الوان

وأساليب لكى تعينهم على دحـر خصـومهم والانتصـار عليهم وخاصة فى أبحاث العقائد والجدل الذى دار حولها ، أما من ناحية اعتماد البلاغة العربية على علوم اليونان فهذا أمر مريب عنـدى مشكوك فى صحته يحتاج الى الكثير من القرائن والادلة حتى تقوم دليلا ، ولن توجد هذه الأدلة الا اذا افترضنا أن العربية كانت قاصرة عن الوفاء بحاجة ابنائها ، وهذا أمر مدفوع بشعر العرب ونثرهم ، بل بقرآن الاسلام والمسلمين •

والذى نقوله بعد هذا كله هو أن بعض من اتقنوا العربية ، وجادلوا فى مسائل العقيدة ، استعانوا بالفكر الفلسفى اليونانى ، وخلصوا لهم منه فكرا فلسفيا عربيا ، أسس على الأصـول العربية ، وهؤلاء هم طائفة المتكلمين أو الفلاسفة ، وظـل قوم آخرون على عربيتهم وأدبها ، فكانوا يسيرون فى بحوثهم وتعليمهم وتعلمهم على طريقة العرب البلغاء ، لاعلى طريقة العجم وأهل الفلسفة •

يقول د/ عبد اللطيف حمـزة عن طريقة العجم ، وطريقـة العرب فى البلاغة (ان الطريقة الأولى — وهى طريقة العجم — على حد قولهم — كانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى العلم ، وكانت تعنى بالمصطلحات البلاغية ، وتشرح الغرض منها وتفلسف هذا الشرح •

وأما الطريقة الثانية وهى طريقة العرب فكانت تفهم البلاغـة فهما أدنى الى الأدب المحض ، وكانت تعنى بالشواهد والنماذج بقصد تربية الذوق ، ومن ثم كانت تجنح هذه الطريقة الى الاقلال

من الأصول ومن القواعد . ومن ذكر المصطلحات البلاغيه بدلا من ذكر الشواهد والأمثلة) (٣) .

وكان لزاما على الكاتب فى ديوان الانشاء أن يقف على الطريقتين ويحذق المذهبين . فالدولة الاسلامية ليست وقفا على العرب وثقافتهم بل دخلت ثقافات جديدة على ثقافة العرب . لها ثقلها ، ونفعها . ولذا وجدنا ابن الأثير يتقن الطريقتين . ولعل من يقرأ كتبه سوف يجده قد عنى بالمصطلحات البلاغية وتقسيمها وشرحها وفلسف هذه التسمية كما سوف ترى أثناء كلامه عن الكناية والتعريض ، أو المطابقة مثلا . بالاضافة الى أنه عنى بالشواهد وأورد كثيرا من النماذج وحللها وبين ما غيها من جمال وروعة أو قبح وسخف وطبق ذلك على الأدب بهدف تعليم ناشىء الكتاب وتربية ذوقهم على ملكة البلاغة والفصاحة . خاصة أنه طوف بين مشرق الدولة الاسلامية ومغربها واتصل بكل الفئات الأدبية والثقافية فى المدن الاسلامية .

ففى كتاب المثل السائر نجد ابن الأثير قد جعل الصناعة الأدبية الانشائية أساس البحث . كما أن الأحكام النقدية التى أوردها مدعومة بتجاربه وملاحظاته . حيث تناول أكثر الفنون البلاغية على أساس جديد نوعا ما فى التقسيم ، فأفرد الصناعة اللفظية فى جانب ، والمعنوية فى جانب آخر وقد بنى هذا الكتاب على مقدمة

---

(٣) القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى ص ٦١ ، ٦٢ .

ومقالتين ، فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتين تشتملان على فروع هذا العلم ، الأولى منهما فى الصناعة اللفظية ، والثانية فى الصناعة المعنوية .

أما كتابة الثانى وهو الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور فهو على منوال المثل السائر ، بل ان فيه أبحاثا موجودة بنصها فيه مما يستحق الملاحظة وان كان قد زاد فيه فصولا كثيرة مثل عنايته باللفظة المفردة بالاضافة الى ابحاث اخرى سوف نتعرض لها عند الدراسة .

وكتابه المفتاح المنشأ لحديقة الانشا (٤) عبارة عن صورة مصغرة للمثل السائر أو للجامع الكبير فبعد ما أورد ما يجب على الكاتب أن يفعله أو يحتريه أتى ببعض أبواب علم البيان وشواهد ذلك ، مما يساعد الكتاب فى صناعتهم ، ويعينهم على أداء رسالتهم .

ومن ثم فان الرجل كان حفيا بالفصاحة والبلاغة ، بل بالبيان بصفة عامة (لأن علم البيان لتأليف النظم ، والنثر بمنزلة اصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام) (٥) بل فى نظره علم البيان بالنسبة لصناعة الكتابة بمنزلة الميزان الذى يقيم أودها ويصلح معوجها لأن (تأليف الكلام مما لا يوقف على غوره ، ولا يعرف كنه أمره

---

(٤) نقوم الان بتحقيقه .
(٥) المثل السائر ص ٤ .

الا بالاطلاع على علم البيــان الذى هو لهذه الصـــناعة بمنز
الميزان) (١) • فيجعله الكاتب ، ومؤلف الكلام رأس بضاعته ،ويعا
به مواقع الصواب فى صناعته •

ومن مظاهر احتفائه بالبلاغة والفصاحة ختامه كتابه المثـ
السائر بفضل البلاغة والفصاحة ، فيرى هذا الفن أشرف الفضائ
وأعلاها منزلة ، ومن ثم افتخر به رسول الله ﷺ — ولم يفتخ
بشىء سوى ذلك عندما قال : « أنا أفصح من نطق بالضاد » (٧)
كما أن مرد الاعجاز الى الفصاحة والبلاغة ، فكان المعجزة الكبر
التى أعجزت العرب وهم من هم فى الفصاحة والبلاغة ، واللسـ
وبها أيضا يفضل كاتب كاتبا ، وشاعر شاعرا ، ومن ثم آلى عل
نفسه فى كتبه التى ألفها أن يضرب بسهم وافر،ويحقق القول فى ع
البيان ومرد ذلك كله هو أن (يجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته
ويعلم به مواقع الصواب فى صناعته) (٨) •

ولما كان علم البيان شغله الشاغل فرق بنيه وبين بعض علو
العربية كالنحو مثلا ، فهما وان اشتركا فى الدلالة العامة حي
ينظران فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى
فان صاحب البيان يمتاز عن النحوى بأنه ينظر فى فضـــيلة تا
الدلالة ، وهى دلالة خاصـــة (والمراد بهـــا أن يكون على هي
مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والاعراب) (٩) فليب

(٦) الجامع الكبير ص ١ •
(٧) المثل ص ٤٩٩ وما بعدها •
(٨) الجامع الكبير ص ٣ •
(٩) المثل السائر ص ٤ •

للنحوى فى النحو الا السؤال عن الألفاظ والمعانى من جهة الأوضاع اللغوية فقط ، بينما البيانى يبحث عما وراء ذلك من معان مستترة ليس للنحوى صلة بها ، وهو ما يعرف عند علماء البلاغة بمعنى المعنى فلو سئل نحوى مثلا عن هذه الآية من قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) لتحول ذهنه الى الاعراب من بيان الفعل والفاعل والمفعول ، وليس له دخل فيما وراء ذلك عكس البلاغى فانه يعنى بالنحو والبلاغة ولذا شاع عن البلاغة بأنها النحو العالى ، وعلى هذا فسر ما فى القرآن والشعر العربى الرضين من آيات الفصاحة والبلاغة مما لا دخل للنحو والاعراب فيه ، بل يتوقف عند حدوده الخارجية فقط .

كما نرى ابن الأثير أيضا فرق بين وضع علم النحو ، واستنباط اصول علم البيان ، فيتساءل قائلا (هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب ؟ أم بالنظر وقضية العقل ؟) (١٠) .

أى أن علم البيان كباقى علوم العربية أخذ بالاستقراء والتتبع لأقوال العرب ، واستنباط الأصول النحوية منهم كما هو شائع ومعروف فى وضع علم النحو الذى أخذت أقسامه بالتقليد ، فهؤلاء العلماء الذين تصدوا لجمع وتقعيد النحو سمعوا عن العرب رفع الفاعل ، ونصب المفعول من غير دليل على ذلك لأن العربى كان

---

(١٠) المثل ص ٤٣ .

يتكلم لغته بالسليقة ، كما كان غير محتاج لمن يعلمه أسباب رفع الفاعل أو نصب المفعول ، أو ما أشبه ذلك ، فجاء جماع اللغة ووضعوا هذه الألفاظ كما سمعوها ، وحاولوا استنباط الأدلة والعلل لذلك .

بخلاف علم البيان فانه لم يؤخذ بالاستقراء (لأن العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلوا أمرهم من حالين : اما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم ، فان كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على أسرار اللغة ، ومعرفة جيدها من رديئها وحسنها من قبحها فذلك هو الذى أذهب اليه ، وان كانوا أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم ، فهذا يتسلسل الى أول من ابتدعه ولم يستقره)(١١) .

والدليل على ذلك هو أن علم النحو مقرور معروف باسمائه عند علماء النحو ، فالفاعل هو الفاعل من لدن ابى الأسود الدؤلى الى ابن هشام .

وكذا المفعول ، والفعل بأنواعهما فلا خلاف على ذلك بينهم ، عدا علم البيان فان علماءه قد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا وتزيدوا فيه زيادات كبيرة فهذا مثلا علم البديع أول ما استنبط كان هينا يسيرا ثم جاء شعراء البديع وأكثروا وتزيدوا فيه حتى نيف على المائة نوع وقد جاء فى كتاب جوهر الكنز أن أقسام البديع بلغت

---

(١١) المثل ص ٤٣ .

سبعون نوعا ، ويعلق د / زغلول سلام على ذلك قائلا (بلغت أقسام البديع اكثر من ذلك فهى عند ابن منقذ خمسة وتسعون ، وعند ابن أبى الأصبع فى تحرير التحبير مائة وخمسة وعشرون بابا) • فهذا دليل على أن البيان وعلومه ماخوذة بالابتداع والابتكار ، ولم تؤخذ بالاستقراء والتتبع وهذا ما يذهب اليه أيضا ابن الأثير ، ومصداق ذلك قوله (واعلم أنه قد اختلف أرباب هذه الصناعة فى تسمية أنواع علم البيان ، حتى ان أحدهم يضع لنوع واحد اسمين اعتقادا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الامر كما وقع له بل هما نوع واحد) (١٢) •

ويضرب أمثلة لذلك مما استدركه على علماء البلاغة أمثال الغانمى فقد عرف التبليغ بقوله : هو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكر موضع ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر اليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى فى الجودة ، ويضرب لذلك مثلا قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا ∴ وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

فقد جاء بالبيت كاملا قبل القافية وهو :

كأن عيون الوحش حول خبائنا ∴ وأرحلنـــــا الجزع •••

فانه قد استكمل عناصر التشبيه فى هذا الجزء من البيت فأتى بأداة التشبيه وهى « كأن » ثم بالمشبه وهو عيون الوحش ثم المشبه

---

(١٢) الجامع الكبير ص٢٤٠ : وانظر جوهر الكنز ص٤٨، ص٤٩حيث قال (ان من علماء البيان من ذكر فى مصنفاته أبوابا وعدها من البيان، ومنهم من عد تلك الانواع بعينها فى مصنفاته من البديع فعلى هذا يفسر الفرق بين البديع والبيان فى كل المواضع) •

به وهو الجزع ، وتم المعنى بذلك ، غير انه عندما احتاج الى القافية جاء بها فزادت المعنى حسنا وهو قوله «لم يثقب» . ثم أتى بعد التبليغ هذا بباب آخر سماه الاشباع وعرفه بقوله (هو أن يأتى الشاعر بالبيت معلقا بالقافية على آخر أجزائه ولا يكاد يفعل ذلك الاحذاق الشعراء وذلك أن الشاعر اذا كان بارعـا جلب بقدرته وذكائه وفطنته الى البيت — وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة — قافية متممة لأعاريضة ووزنه فجعلها نعتا للمذكور كقول ذى الرمة :

قف العيس من أطلال مية فاسأل ∴ رسوما كأخلاق الرداء المسلسل(١٣)

فانه هنا أيضا استكمل عناصر التشبيه ، ولما احتاج صنع صنع امرىء القيس فأتى بزيادة حسنة وهى قوله « المسلسل » .

فانه تارة يطلق على هذا اسم التبليغ ، ومرة ثانية يسميه الاشباع . ويأتى أبو هلال العسكرى ويسمى هذين النوعين بالايغال ، ويضرب أمثلة لذلك ببيت ذى الرمة الذى ذكرناه آنفا ، كما يختلف ابن الأثير مع أبى هلال فى تسمية التوشيح فيسميه ابن الاثير بالارصاد للمناسبة بين الاسم والمسمى ، وغير ذلك كثير بين علماء البلاغة (١٤) .

وهذا الاختـــلاف فى التسمية — كما ســوف نعالجه عند ما نتعرض لذكر الكناية ، أو الاستعارة ، أو الطباق ، أو الجناس عند ابن الاثير — دليل على أن هذا العلم ، أعنى علم البيـــان

---

(١٣) الجامع ص ٢٤١ .
(١٤) الجامع ص ٢٤٠ .

لم يؤخذ بالاستقراء والتتبع مثل النحو أو اللغة ، بل أخذ بالابتداع ، ومن ثم كان لكل عالم وجهة هو موليها ومذاق خاص فى تذوق الألوان والأساليب البلاغية ، خاصة فى مرحلة النشوء والارتقاء البلاغى قبل أن تستقر وتستغلظ على سوقها وتصبح علما محدد الاركان والأصول ، عكس النحو الذى أخذ بالاستقراء فاستقرت أصوله منذ ولدت اللغة العربية ، ومنذ أعرب العربى البدوى عما فى نفسه ، ومن ثم يظهر البون شاسعا بين النحوى والبلاغى ، فللنحوى نحوه ، وللبلاغى بلاغته ، وصدق ابن الاثير عندما قال — (النحاة لافتيالهم فى مواقع الفصاحة والبلاغة ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث أنهم نحاة) (١٥) قد أوقفوا ذوقهم وفهمهم على دراسة النحو فقط ، والنحو بطبيعته جاف جامد فيقفون عند الحدود الخارجية للألفاظ والمعانى لانهم غير قادرين على الغوص داخلها وسبر أغوارها ، واستخراج مكنونها ، ومن ثم لم يفقهوا أسرار البلاغة التى لا تعطى سرها ، ولا تكشف عن مفاتنها الا لعالم تمرس بعدد ضخم من الأقوال البلاغية وسبر غورها واستخراج دررها ، وكان خبيرا بصيرا بالتقنية البلاغية ، وفهم أن الكلمة كما تكون حقيقة تكون مجازا ، وعرف كيف يرجح المعنى بين الحقيقة والمجاز ، وهذا لا يتيسر للنحوى ، بل لا يهمه ذلك لأن له وجهة هو موليها ، وليس ذلك قدحا أو ذما للنحو

---

(١٥) المثل السائر ص ٣٥٩ .

وللنحاة فطبيعة النحو هكذا ولا نكلف الأشياء ضد طباعها فنكون كمن يرقم على الماء ، فاذا كانت طبيعة النحو تجعل النحو يحفل بعوامل الرفع ، وعوامل النصب وما أشبه — فان البلاغة تجعل البلاغى يحفل بالحقيقة والمجاز ومواطن البلاغة والفصاحة والاصابة ومراعاة المقال للمقام وما الى ذلك ، وهذا الذى نستنتجه من كتب ابن الاثير ، فنراه يبسط القول فيها ويسمو بها فوق السها والفرقدين بل يحفها بالقداسة مما دفعه أن يقول فيها (ان للبلاغة سجودا كسجود الكتاب) (١٦) بل أثر عنه فى نهاية كتابه الذى اختار فيه من شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى أنه قال :

تمتع به علقا نفسيا فانه اخـ ∴ تيار بصير بالامور حكيم

أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى ∴ الى الشعر من نهج اليه قويم (١٧)

فكلفه بالبلاغة جعله يفسر فيها القول بقدم راسخ ونفس طويل وبصر بصير بمواقعها ومواقفها ، فرأيناه تناول باسهاب الفصاحة والبلاغة ، كما تناول بعض أبواب المعانى ، والبيان والبديع ، وهذا ما سوف نصول ونجول معه فى الصفحات القادمة وأول ما نبدأ به هو كلامه عن الفصاحة والبلاغة ان شاء الله فمنه التوفيق وبه الهداية .

---

(١٦) الوشى المرقوم ص ٤٤ .

(١٧) المثل السائر ترجمة المحقق محيى الدين عبد الحميد ص يج .

الفصـــــاحة والبـــــلاغة

عنـــد ابـــن الأثـــــــــير

تناول كثير من علماء البلاغة والفصاحة ، الفصاحة والبلاغة بالشرح والتفصل وكان لكل منهم ذوق خاص فى فهم دلالة هاتين اللفظتين ، أعنى الفصاحة ، والبلاغة ، فمن قائل بأن الفصاحة شىء غير البلاغة ، ومن قائل بأن الفصاحة خاصة بالألفاظ فقط ، وأن البلاغة خاصة بالمعانى •

فهذا مثلا أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين يبين الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، فذهب الى أن البلاغة مأخوذه من قولهم بلغت الغاية ، اذا انتهيت اليها ، ولذا سميت البلاغة بهذا الاسم لأنها تنهى وتبلغ المعنى الى قلب السامع فيفهمه ، فيتمكن فى نفسه ، لتمكنه فى نفس المتكلم قبل أن يلقيه عليه ثم يخرجه فى صورة مقبولة ومعرض حسن (١٨) •

واشترط للبلاغة الصورة المقبولة والعرض الحسن لأن الكلام ربما يكون رث العبارة مهلهل النسج ، فلا يسمى بليغا حتى وان أفهم المعنى وكشف المغزى المقصود منه لأن المعول ليس على المعنى فقط ، بل الصورة التى عرض فيها هذا المعنى • فلابد أن يكون سليم النسج رائق العبارة •

كما يجعلها صفة للكلام فقط ، وليست صفة للمتكلم فيقال كلام

---

(١٨) الصناعتين ص ١٩ •

بليغ ولا يقال متكلم بليغ ، مستدلا على ذلك بأنه لا يجوز أن يوصف الله عز وجل بأنه بليغ لانه لا يجوز أن يوصف سبحانه وتعالى بصفة كان موضوعها الكلام ، وعندما نصف متكلما بأنه بليغ انما نصفه على التوسع فى الكلام لان حقيقته هو ان كلامه البليغ (١٩) •

لكن ثمة فرقا بين الآلة ، وما ينتج عن هذه الآلة ، وأصبح ثمة ترابط بين الآلة ومنتوجها فاذا كانت الآلة جيدة أخرجت ثمارا طيبة ، والعكس صحيح أيضا ، فاذا كان المتكلم لدية القدرة على التعبير السليم استطاع أن ينتقى ويختار ، وهذا ما يعرف بملكة أو موهبة البلاغة ، وهوفى هذه الحالة يشبه الصائغ ، فان الدر هو هو لم يتغير ولم يتبدل فاذا أخذنا بعض هذا الدر وأعطيناه لصائغين أحدهما بارع فى صناعته والآخر أقل منه خبرة أخرجا لنا عقدين متفاوتين ، فالصائغ الماهر الخبير أخرج لنا عقدا يخلب اللب جمالا وحسنا ، والآخر يخرج لنا عقدا ربما ينفر الرائى من رؤيته والدر كما سلف آنفا واحد لم يتغير •

فكذلك الكلام والمتكلم ، فألفاظ اللغة واحدة لم تتغير منذ أن أفصح بها العربى الى وقتنا الحاضر ، وانما العبرة ، بالمتكلم ، فاذا كان خبيرا بصيرا بالالفاظ ودلالاتها وكيفية صياغتها أخرج لنا آيات بينات من البلاغة الرائعة الجميلة ، واذا كان عييا ، فمهما كانت الألفاظ ، ومهما كانت الدلالات ، فانه سوف يخرج نسجا مهلهلا ، غثا لاطائل من ورائه حتى لو أفهم ما يرمى اليه ويقصده

---

(١٩) الصناعتين ص ١٥ ، ١٦ •

ومن ثم فاننى ارى الأصوب أن نصف بالبلاغة الكلام والمتكلم لا ماذهب اليه أبو هلال العسكرى •

أما الفصاحة عنده ففيها خلاف ، فرأى قوما يقولون أنها مأخوذة من قول القائل أفصح عما فى نفسه اذا أظهره ، وهذا موافق لكلام العرب خاصة قولهم أفصح الصبح اذا أضاء ، وأفصح اللبن اذا انجلت رغوته فظهر ، فصح وأفصح الأعجمى اذا أبان وعبر عما فى نفسه وأظهره •

وتبعا لهذا فان أبا هلال يرى انه اذا كانت الفصاحة بهذا المعنى ، فانها والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ، وان اختلف أصلاهما فى اللغة ، فكل منهما يعنى الابانة عن المعنى والاظهار له (٢٠) •

ويورد رأيا آخر فى الفصاحة فقال : (وقال بعض علمائنا الفصاحة تمام آلة البيان) ،وبعد مناقشات تتصل بالله سبحانه وتعالى وهل يوصف بالفصاحة أو لا يوصف يخلص الى أن الفصاحة التى هى تمام آلة البيان تكون مقصورة على اللفظ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى والبلاغة انما هى ! نهاء المعنى الى القلب فتكون مقصورة على المعنى (٢١) •

أما عبد القاهر الجرجانى ، فالفصاحة والبلاغة عنده مترادفتان لأنه رأى أن البلاغة والفصاحة يجب أن تكونا سمة للمعنى لا للفظ

---

(٢٠) الصناعتين ص ١٦ •
(٢١) الصناعتين ص ١٧ •

واللفظ دال على المعنى ، بل الألفاظ عنده عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام ، وعن زيادات تحدث فى أصول المعانى (٢٢) ويذهب الى أن المعنى مقدم على اللفظ (فأنت تتوخى الترتيب فى المعانى فاذا تم ذلك أتبعتها الألفاظ) (٢٣) فالمزية والفضيلة عنده انما هى للمعانى دون الألفاظ (فغرضنا من قولنا الفصاحة فى المعنى أن المزية التى من أجلها يستحق اللفظ الوصف بأنه فصيح عائدة فى الحقيقة الى معناه) (٢٤) . ومن ثم يبطل وصف اللفظ بالفصاحة ، من حيث هو لفظ ونطق لسان (٢٥) . فالكلام كله ينصب على المعنى دون اللفظ الذى هو فى نظره ليس الا وسيلة يتوصل بها للمعنى ، ومن هنا فالفصاحة والبلاغة للمعنى دون اللفظ (والفصاحة والبلاغة أوصاف راجعة الى المعانى ، والى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها) (٢٦) ، وبالتالى فانه ينفى الفصاحة عن اللفظة المفردة ، واذا وصفت فمن جهة المعنى ، وانما التفاضل بين لفظة وأخرى أن هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ، أو أن حروف هذه أخف من تلك .

وان كان يحمد لعبد القاهر تحطيم الثنائية بين اللفظ والمعنى فى وقت شاع فيه وانتشر سؤال مؤداه هل اللفظ أفضل أم المعنى ،

---

(٢٢) دلائل الاعجاز ص ٢٠٠ .
(٢٣) دلائل الاعجاز ص ٤٤ .
(٢٤) دلائل الاعجاز ص ٢٠٧ .
(٢٥) دلائل الاعجاز ص ٣٤٨ .
(٢٦) دلائل الاعجاز ص ٢٠٠ .

وكانت التفرقة شائعة بين اللفظ والمعنى ، الا أننا يجب أن نقول بأن الفصاحة لفظ توصف به الكلمة أى اللفظة المفردة والكلام والمتكلم من حيث هو كلام وليس تابعا للمعنى أو دالا على المعنى ، فقد يكون المعنى جميلا ، واللفظ الذى استعمل فيه قبيحا أو منفرا كلفظة البعاق مثلا فلو استعمل المتكلم لفظ المطر بدلا منها لكان آلف للسمع وأحسن ، فالمعول ليس على المعنى فقط ، بل نأخذ فى الحسبان الصورة التى عرض بها هذا المعنى كيلا نكون كمن علق قلائد من العقيان فى جيد خنزير •

ثم يأتى الخطيب القزوينى ويفرق بين الفصاحة والبلاغة ، ويرى أن الفصاحة والبلاغة وردت فيهما أقوال مختلفة لم يرض القزوينى بأيها تصلح تعريفا للفصاحة والبلاغة ، غير أنه فرق بيهما فالفصاحة تقع صفة للكلمة المفردة ، والكلام ، والمتكلم ، أما البلاغة فتكون صفة للكلام ، والمتكلم فقط (٢٧) ، ولا يقال عنده كلمة بليغة اذا قصدنا الكلمة المفردة ، على سبيل الحقيقة ، لكن يجوز أن نقول هذه كلمة بليغة وذلك على سبيل المجاز ، اذا أردنا بها مجموعة الكلام المركب من باب اطلاق الجزء على الكل فنقول لمخاطب، أنت ألقيت كلمة بليغة فى حفل الأمس ، والمقصود الخطبة ألقيت كما يمكننا أن نقول عن كل كلام فصيح هو بليغ ، وليس العكس لأن البلاغة أعم وأشمل من الفصاحة ، ونعنى بالكلام ما يقابل

---

(٢٧) الايضاح ص ٣ وما بعدها •

الكلمة المفردة فيشمل المركب الاسنادى ، والمركب الناقص اذا صح أن يطلق عليه أنه كلام فصيح باعتبار فصاحة مفرداته .

وقد تناول أيضا ابن الأثير فى كتبه الفصاحة والبلاغة وأسهب القول فيهما اسهابا ، وما ذاك الا لان الفصاحة والبلاغة من أدوات الكاتب الذى لا يمكنه الاستغناء عن ذلك حتى يستقيم كلامة ، وتنسبك صنعته ، وقد فهم ابن الاثير أن ثمة فرقا بين الفصاحة والبلاغة ، وأن لكل منهما موصوفات خاصة بها كما فهم أن البلاغة أعم وأشمل من الفصاحة ، كما أن الفصاحة عنده نسبية كالحسن والقبح ، وقد أورد اثناء كلامه عن الفصاحة والبلاغة شروط كل كما سوف نوضح .

ولكن يريد أن يؤكد أن البحث فى الفصاحة والبلاغة ليس شيئا هينا أو متيسرا لكل طارق فيراه بابا غامضا متعذر الولوج ، ومسلكا صعبا وعرا ، والناس أمامه حيارى يحاولون الولوج فتتقدهم قوتهم وتخذ لهم همتهم (٢٨) . ويستشهد على ذلك بقول عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز عن الفصاحة والبلاغة عندما قال : (لم أزل منذ خدمت العلم انظر فيما قالوه فى معنى الفصاحة والبلاغة وأستكشف عن المعنى فى ذلك ، فلا أجد الا كالرمز ، والاشارة ، ولا أقف فيه على قول شاف ، ولا كلام كاف ، فلما رأيت الأمر كذلك علمت أنه لا يكفى فى معرفة هذا العلم العظيم ، الذى كان به اعجاز القرآن الكريم ، قول مهمل ، ولا كلام مجمل ، بل لا تتم معرفته حتى يفصل فيه القول ، ويدل على الخصائص التى تأتى فى تأليف

---

(٢٨) الجامع الكبير ص ٧٦ .

الكلام ، ويوضح ايضا جليا من غير مغادرة لشيء من ذلك ، حتى تكون المعرفة بهذا العلم كمعرفة الصانع الحاذق الذى يعلم هدبة منسوجة من الابريسم فى الثوب والديباج ••• فانك اذا نظرت الى هذا العلم الشريف احتجت عند ذلك الى طول مكث وتدبر ، وكثرة تأمل وتفكر ، والى همة تأبى أن تقنع الا بأعلى المنازل واسمى المراتب •••) (٢٩) •

وكذلك تدبر ابن الأثير وتأمل وتفكر فى الفصاحة فوجد أصلها فى وضع اللغة هو الظهور والبيان ، يقال أفصح الصبح اذا بدأ ضوؤه ، وأفصح الرجل عما فى نفسه اذا أظهره ، وانما سمى اللفظ فصيحا لأنه يبين المقصود منه ، ويوضح المعنى المندرج تحته (٣٠) • غير أن ابن الاثير يرفض هذا التعريف البلاغى ، ويعترض عليه بجملة من الاعتراضات كلها تبنىء عن فهم وذوق ابن الاثير ورسوخ قدمه فى هذا المضمار •

فنرا ه يحتج على من قال بأن الفصاحة تعنى الظهور والبيان ، ويقف عند ذلك الحد ، ويلقيه على عوانه دون أن يكشف عن السرفيه، فيرى أن هذا الحد أو التعريف للفصاحة قاصر لا يبين حقيقتها ثم يورد الاعتراضات التالية :

أولا : اذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا ، ثم اذا ظهر وتبين صار فصيحا •

ثانيا : اللفظ الفصيح البين هو الذى يستخدمه الفصحاء ،

---

(٢٩) الجامع الكبير ص ٧٦ وانظر دلائل الاعجاز ص ٤٠ وما بعدها •
(٣٠) الجامع ص ٧٧ •

وبالتالى فان اللفظ غير الفصـــيح من نصيب المعنّى غير الفصيح ، فاللفظ اذن لفظان حسب استخدام المتكلم له فتارة هو فصيح لأن زيدا فصيح ، وأخرى غير فصيح لأن عمروا غير فصيح ، وهذه قسمة ضيزى فى رأى ابن الأثير ، بل فى رأينا أيضا ، لان الفصيح فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الأحوال ٠

ثالثا : اذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بين ، ينبغى والحال هكذا أن يكون فصيحا ، وهذا غير صحيح، لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ ، لا وصف قبحه (٣١) ٠

وبهذه الاعتراضات الثلاثة ، يرفض هذا التعريف اللغوى للفصاحة ويشرح تعريفا آخر لها استقاه من كثرة ملابسته ومعاركته لفن الفصاحة حتى انكشف له السرفيه ٠

غير أن الكلام الفصيح هو البين ، المفهوم الألفاظ من غير حاجة لاستخراج من كتب اللغة ، وهذه الشروط لا تتوفر الا فى الألفاظ مألوفة الاستعمال عند الشعراء والكتاب ، لمكان حسنها بعد الفحص والتدقيق ، ومن ثم يخلص الى أن الفصيح من الألفاظ هو الحسن شكلا ولا دخل للمعنى فى الحسن أو القبح والدليل على ذلك — كما يورده — الفاظ المزنة ، والديمة ، والبعاق ، فان المزنة والديمة أفضل وأحسن ويستلذهما السمع ، خلا لفظة البعاق فانها قبيحة يكرهها السمع ، والألفاظ الثلاثة بمعنى واحد وهو المطر(٣٢) ٠

---

(٣١) المثل السائر ص ٤٠ ٠

(٣٢) يراها مترادفة ولكن الواقع أنها غير مترادفة بل توجد فروق بين هذه الصفات ٠

ومع هذا فان اللفظين الأولين يحسن استعمالهما ، والثالثة يقبح ، والذى حسن أو قبح هو الالف والاستعمال (وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه وحسنه مدرك بالسمع والذى يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يتألف من مخارج الحروف ، فما استلذه السمع فيه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة) (٣٣) •

أى أن مرد الفصاحة عنده الادراك بالسمع ، والذى يسمع هو اللفظ ، والذى يعقل هو المعنى ، فالفصاحة خاصة بالالفاظ دون المعانى لأن الفاظا مثل المزنة والديمة والبعاق كلها تعنى فى الدلالة المطر أو ما نزل من السماء من ماء ، سواء أكان وابلا أم سيلا أم غير ذلك من أشكال المطر لكن لفظة ديمة ، ومزنة ، مقبولتان سمعا ، وخفيفتان نطقا ، عدا لفظة بعاق ، فان السمع يأباها ، لما لها من ظلال ثقيلة على الأذن ، والنفس أيضا ، ومن ثم كانت غير فصيحة فلو كانت الفصاحة مردها للمعنى لتساوت هذه الألفاظ الثلاثة فى الدلالة على المعنى ، وكانت كلها فصيحة ، غير أن واقع الحال غير ذلك ، ولما كان الأمر كذلك أصبحت الفصاحة تخص اللفظ دون المعنى •

ولكن لا يفهم من ذلك أن ابن الأثير من دعاة التفرقة بين اللفظ والمعنى ، بل أراد أن يتناول ما تكون عليه الألفاظ ، وما تكون عليه المعانى ، لان المعنى يجىء ضمنا وتبعا للفظ ، ومن ثم لا ينفصلان ، وينتبه هو لذلك فيقول (وليس لقائل ههنا أن يقول : لا لفظ الا بمعنى

---

(٣٣) المثل السائر ص ٤١ •

فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فانى لم أفصل بينهما ، وانما خصصت اللفظ بصفة هى له ، والمعنى يجىء فيه ضمنا وتبعا) (٣٣) .

ويزيد من تأكيد وجهة نظره — وهو محقق فى هذا — بأن الفصاحة خاصة باللفظ دون المعنى ، فيشفع رأيه بالناحية الاشتقاقية اللغوية فيرى أن فعيل بمعنى فاعل ، أى فصح ،فهو فصيح واللفظ هو الفاعل للابانة عن المعنى ، فكانت الفصاحة مختصة به ، كما يرد على من ادعى بأن بعض آيات القرآن فيها غموض وتحتاج الى تفسير وهذا يتعارض مع قوله عن اللفظ وفصاحته ، فيرد بأن الغموض آت من جهة التركيب لا من جهة الألفاظ المفردة ، التى يتداخل معناها بالتركيب وتصير له هيئة تخصه ، فهى من ناحية الألفاظ المفردة فصيحة لانها ظاهرة واضحة ، وهذه سمة التراكيب اللفظية لا فرق بين قرآن كريم أو حديث نبوى شريف أو قصيدة شعرية أو خطبة أو مكاتبة (٣٤) .

هذا عن الفصاحة ، أما البلاغة فانه يتناولها بالشرح والتمثيل مثلما فعل مع الفصاحة ، فيقول عن البلاغة (وأما البلاغة فان أصلها فى وضع اللغة من الوصول والانتهاء يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ومبلغ الشىء منتهاه ، وسمى الكلام بليغا من ذلك ، أى أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية) (٣٥) .

---

(٣٣) المثل السائر ص ٤١ .

(٣٤) المثل ص ٤٢ . وهذا مخالف لما ذهب اليه عبد القاهر الجرجانى الذى يرى أن الفصاحة راجعة للمعنى دون اللفظ . انظر الدلائل ص ٥٢ وما بعدها .

(٣٥) المثل ص ٤٣ .

فهو فى هذا التعريف قد تناول البلاغة بمعناها اللغوى وهو الوصول والأنتهاء ولكنه هنا وصول من نوع خاص فان كل من أسمعته كلاما لزمك أن تبلغه فيه معنى من المعانى المفهومة المقصودة من سياق الكلام ، وسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى الى قلب السامع فيفهمه .

غير ان ابن الاثير قد أورد فى نهاية هذا التعريف قوله : وسمى الكلام بليغا من ذلك ، أى أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية ، وهذا الكلام قريب جدا من المعنى الاصطلاحى للبلاغة عند علمائها، فانها تعنى عندهم فى الاصطلاح أنها تقع وصفا للكلام والمتكلم ،(٣٦) وبلاغة الكلام تعنى مطابقته لمقتضى حـال الخطاب مع فصـاحة الفاظه مفردة ومركبة ، ومقتضى الحال هذا مناسبة الكلام لحال المخاطبين وواقعهم مما يلزم المتكلم أن يخرج كلامه على وجـه مخصوص ، فعلية القوم كلام وللسوقة كلام ، والعلماء كلام وللجهلة كلام ، فيخاطبهم المتكلم على قدر عقولهم ، كما أن موقف الفخر غير موقف الرثاء ، غير موقف المديح ، وبهذا فان البلاغة تنصب على اللفظ والمعنى ، أى الكلام والمتكلم ، وليس لها دخل بالمفرد من الألفاظ فلا يجوز أن يقال كلمة بليغة ، فان جاز ذلك فى الفصاحة فانه لا يجوز هنا فى البلاغة لأن الكلمة المفردة لا تعد بليغة الا اذا دخلت فى تركيب فيظهر حسنها أو قبحها كأن تكون قلقة فى موضعها ، أو غير متوائمة مع ما قبلها وما بعدها (لأن اللفظة المفردة

---

(٣٦) الايضاح ص ٧ وما بعدها .

برأسها اذا وردت فى الكلام لايراد بها الا معنى واحد من غـير زيادة ، وفى الكلام ما يزيد معناه على لفظه وذلك انما يكون مركبا لامفردا) (٣٧) والمفرد لا يفيد معنى •

وما ليس بمفيد فلا يسمى بليغا ، فهو بهذا الكلام يكون قـد تناول معنى البلاغة لغة واصطلاحا •

وكما رأينا فى كلامه عن البلاغة فانها عنده تشمل الألفـاظ والمعانى بخلاف الفصاحة فانها مقصورة على الألفاظ سـواء أكانت مفردة أم مركبة من حيث هى ألفاظ ، بالاضافة الى قائل هذه الألفاظ فالبلاغة تشمل الفصاحة ، فكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا ، ويشترط فى هذا الكلام أن يكون مركبا ، فان اللفظة الواحـدة لا يطلق عليها اسـم بلاغة — الا مجازا كما سلف أن أوضحنا — ولكن نطلق على هذه اللفظة المفردة سمة الفصاحة لوجود صفة الحسن فيها (٣٨) غير أنها وهى بهذه الصورة — أى الافراد — لا تعطى معنى مفيدا •

بهذا القيد استطاع ابن الاثير أن يفرق بين الفصاحة والبلاغة فأرجع الأولى الى الألفاظ ، وخص الثانية بالألفاظ والمعانى ، وجعل البلاغة أخص من الفصاحة لعموميتها ، ونراه قد أوضح هذا فى كاتبه المثل السائر فى المقالة الاولى عندما تناول الصناعة اللفظية فقسمها الى قسمين : الأول فى اللفظة المفردة ، والثانى فى الألفاظ المركبة (٣٩) •

---

(٣٧) الجامع ص ٧٩ •
(٣٨) انظر مثلا ص ٢١٤ المثل السائر •
(٣٩) انظر المثل السائر ص ١١٤ •

فبالنسبة للفظة المفردة فان على الكاتب أن يراعى ثلاثة أشياء:
الاول : اختيار الألفاظ المفردة ، فعلية أن يختار وينتقى قبل الكتابة •

الثانى : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ، كيلا يكون الكلام قلقا أو نافرا عن موضعه •

الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه•

(فهذه ثلاثة أشياء لابد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهى الأصل المعتمد عليه فى تاليف الكلام من النظم والنثر ، فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة) (٤٠) • وهذا معنى كلامه أن الفصاحة خاصة بالألفاظ والبلاغة تنصب على المعانى ومدار التفاوت والتفاضل ، انما يقع فى التراكيب اكثر مما يقع فى المفرادت ، وما ذاك الا لأن التركيب أعسر وأشق ، والدليل على ذلك أن القارىء قد يقع على لفظة فى كلام سواء كان نظما أو شعرا فيعجب بها ، ثم يراها فى كلام آخر فينفر منها •

اذن التركيب الذى دخلت فيه هو الذى حسنها أو قبحها ، وهذا رد على من قال ان الألفاظ كلها حسنة لأن الواضع لم يضع الا ألفاظا حسنة (٤١) فيد حض ذلك ويرى أن الاستعمال هو الذى حسن أو نفى الحسن ويضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم ، والشعر العربى قائلا : (وههنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت

---

(٤٠) المثل ص ٨٦ ، ٨٧ •
(٤١) المثل ص ٨٩ •

فى آية من القرآن الكريم ، وفى بيت من شعر الفرذدق ، فجاءت فى القرآن حسنة وفى بيت الشعر غير حسنة ، وتلك اللفظة هى لفظة القمل ، أما الآية فقوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع ، والدم آيات مفصلات » وأما البيت الشعرى فقول الفرزدق :

من عزه احتجرت كليب عنده ∴ زربا كانهم لديه القمل

وانما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت فى الآية ضمن كلام ، ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت فى الشعر قافية : أى آخرا انقطع عندها الكلام) [٤٢] .

ونكاد هنا نسمع صوت عبد القاهر الجرجانى الصادر من كتابه دلائل الاعجاز عندما تكلم أيضا عن الفصاحة والبلاغة فقال نفس الكلام (ان الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفرد ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى يليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك ، وتوحشك فى موضع آخر ، كلفظ الأخدع فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ∴ وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

وانى وان بلغتنى شرف الغنى ∴ وأعتقت من رق المطامع أخدعى

---

(٤٢) المثل السائر ص ٨٩ ، ٩٠ .

فان لها فى هذين البيتين مالا يخفى من الحسن ، ثم انك تتأملها فى بيت أبى تمـــام :

يادهر قوم من أخدعيك فقــــد ∴ أضـــججت هذا الانام من خـــرقك

فتجد لها من الثقـــل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة (٤٣) .

اذن المعول على الاستخدام هو الوضـــع فى تركيب وهذا متروك للشاعر أو الكاتب ، ومن ثم اشـــترط ابن الاثير الشروط الثلاثة سالفة الذكر من حيث الاختيار للفظة ونظمها فى سياق تكون فيه خالية من التنافر والقلق ، كما أنها بعد ذلك وقبله لابد أن تكون ظاهرة بينه راعت المقام وأدت المقصود بها . ورأى أن الأول والثانى المراد بهما الفصاحة ، والثلاثة تراد بها البلاغة أى أن الكلام لايكون بليغا الا بمجموع هذه الاشياء ، فلو عرى من واحد منها فليس ببليغ (لأن الكلام لا يطلق عليه اسم البلاغة حتى يكون فصيحا ، فالفصاحة اذا شرط فى البلاغة لا تتم الا به ، فلما كانت الحال كذلك وجب أن تعم البلاغة اللفظ والمعنى معا . أما الفصاحة فليست كذلك لأنها محض ابانة ووضوح فقط ، وذلك يتعلق باللفظ ..)(٤٤)

ومن ثم فانه لا فضل ولا مزية للكلمة المفردة من حيث هى مفردة حتى تدخل فى سياق يبرزها ويظهرها وتظهر براعة الكاتب فى استخدامها فى مكانها الصحيح ، فلا تكون قلقة ، ولا نافرة ، اذ

---

(٤٣) دلائل الاعجاز ص ٤٦ ، ص ٤٧ وما بعدها وانظر ايضا المثـــل ص ٨٦ وما بعدها ، والجامع الكبير ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٤٤) الجامع ص ٨١ .

أنها قبلَ أن تدخل فى سياق تكون كلمة معجمية باردة لا تؤدى معنى محددا ، ولذا لا يتصور أن يكون بين لفظة وأخرى تفاضل من حيث هما الفاظ ، فكل منهما تؤدى معنى ، والتفاضل لا يقع فى المعانى المختلفة ، وانما التفاضل يقع فى التركيب وهل أدت اللفظة دورها فيه بحيث يكون مستخدمها قد أجاد فى استخدامها أم لا• أما من حيث هى مفردة فالفضل والمزية التى تثبت لها هوكونها مألوفة الاستعمال أو غريبة وحشية ، أو أن تكون حروفها أخف وأحسن كما أن اللفظة لا تكون أفضل من اللفظة التى فى معناها الا بالشروط السابقة مثل كلمة البعاق والديمة كما قدمنا يقول ابن الاثير : (اعلم أن اللفظة قبل دخولها فى سبيل التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التى تسمى كلاما دالا على معنى من المعانى لا يكون لها مزية على اختها التى فى معناها ، الا بأن تكون هذه أشرف من هذه بعلامات توجد فيها ، اما أن تكون احداهما مستعملة مألوفة ، والأخرى وحشية متوعرة ، واما أن تكون حروف هذه أخف حركة أو احسن امتزاجا مع صواحبها •••) (٤٥) •

فهو بهذا قد حدد شروط فصاحة الكلمة أو اللفظة المفردة قبل أن تدخل فى بسياق ، فذكر العيوب التى ترد بها كأن تكون وحشية متوعرة ، أو أن تكون حروفها سهلة النطق ، وهذا ما ذهب اليه علماء البلاغة من شروط الفصاحة كما سنوضحهما بالترتيب : الكلمة: فالكلام ، فالمتكلم •

---

(٤٥) الجامع الكبير ص ٦٤ •

أولا فصاحة الكلمة :

فصاحة الكلمة هو أن تخلو من العيوب المخلة بها مثل :

(أ) خلوصها من تنافر الحروف : كى تصير عذبة رقيقة تخف على اللسان ولا تثقل على السمع ، فلفظ ديمة أو مزنة أخف من لفظ بعاق ، كذا لفظ أسد أخف من لفظ فدوكس أو العمثل •

(ب) خلوصها من الغرابة وتكون مألوفة الاستعمال •

(ج) خلوصها من مخالفة الوضع حتى لا تكون شاذة •

(د) خلوصها من الكراهة فىالسمع (٤٦) •

ففصاحة الكلمة تأتى من تكونها من حروف متآلفة يسهل على اللسان نطقها من غير عناء مع وضوح معناها ، وكثرة تداولها بين المتكلمين ، وموافقتها للقواعد الصرفية ومرد ذلك الذوق السليم ، والالمام بمتن اللغة وقواعد الصرف وبذلك تسلم مادتها وصيغتها ومعناها من الخلل •

وتنافر الحروف :

ناتج عن ثقل الكلمة على اللسان فيعسر النطق بها وهو نوعان تنافر شديد كلفظة الظش للموضـــع الخشن ، والهعخـــع لبنات تراعاه الابل ، فهاتان الكلمتان غير فصيحتين لما فيهما من تنافر الحروف تنافرا شديدا يشعر به كل ناطق وهو خلل واقع فى مادتهما •

---

(٤٦) الايضاح ص ٤ •

— والتنافر الخفيف ، وهو أقل من السابق ، لكن يشعر به القارىء ، مثل قول امرىء القيس :

غدائره مستشزرات الى العـــلا ∴ تضل العقاص فى مثنى ومرسل

فكلمة مستشزرات تتقارب مخارج حروفها مما أدى الى تنافرها ، ولكن بصورة أقل مما قبلها •

وضابط تنافر الحروف هو قرب مخارجها ، أو بعدها فلفظة الهعخع ثقيلة التنافر لتقارب حروفها فى المخرج وذلك لأن الهاء ، والعين ، والخاء ، خارجة كلها من مخرج واحد وهو الحلق ، غير أن بعضها خارج من أقصاه وبعضها قريب منه •

ولفظة مستشزرات متنافرة لتقارب حروفها فى المخرج كذلك اذا أن حروفها ما عدا الميم خارجة من المخرج الواحد وهو اللسان ولكن بعضها خارج من طرفه ، وبعضها من وسطه •

لكن هذا الضابط المذكور غير مطرد ، لأننا لا نجد تنافرا فى لفظى الجيش والشجى برغم تقارب الجيم والشين فى المخرج ، كما لا نجد تنافرا فى كلمتى علم ، وملح مع تباعد العين والميم ، أو الميم والحاء ، فى المخرج •

غير أننا لو اعتبرنا التقارب فى المخرج ، أو التباعد فيه سببا للتنافر المخل بالفصاحة ، لاقتضى ذلك وقوع غير الفصـــيح فى القرآن ، فقد ورد قوله تعالى « ألم أعهد اليكم يابنى آدم » مع تقارب الهمزة والعين ، والهاء فى المخرج كما ذكرت فى مادة علم فى — غير موضع — مع تباعد العين والميم فى المخرج وورود غير الفصيح فى القرآن المعدود فى أعلى طبقات الفصاحة مما لا يذهب اليه

عاقل • اذا فقرب المخرج أو بعده لا يصلح ضابطا يعول عليه فى ضبط التنافر لعدم اطراده ، بل مرد ذلك كله الى الحكم السليم والذوق الفصيح ، فما اعتبره الذوق ثقيلا متعسر النطق به فهو متنافر والعكس صحيح •

وهذه الأحكام ليست خاصة بزمان دون آخر ، أو مقصورة على قوم دون آخرين ، فلا يقول قائل بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنه حسن ، بل ينبغى أن تعلم أن ما يستحسن فى وقت من الاوقات هو عينه كان عند العرب حسنا كما أن ما يستقبح أيضا كان عندهم قبيحا ، كما ان الاستعمال ليس دليلا على الحسن وايضا فان الاستحسان غير مؤخوذ بالتقليد للعرب لانه شىء ليس للتقليد فيه مجال ، بل ثمة دلائل اذا وجدت كان اللفظ فصيحا واذا انعدمت قبح اللفظ ، فنحن الآن نستسيغ لفظة المزن ، ونستقبح لفظة البعاق ، وكانا كذلك عند العرب أيضا ، فاذا استعملها بعض العرب لا يكون هذا سببا فى حسنها ، بل يعاب من استعملها (٤٧) •

وان كنت ارجح أن مصدر عيب هذه الكلمات ليس بسبب غرابتها أو وحشيتها كأن يستعملها قوم دون آخرين طالما فهم السامع ما يقصده المتكلم والدليل على ذلك ما جاء عن النبى ﷺ وحديثه مع طهفة بن أبى زهير النهرى عند ما قال له (أتيناك يارسول الله من غورى تهامة على أكوار الميس ترتمى بنا العيس نستجلب العبير ونستحلب الخبير ونستعضد البرير ، ونستخيل الرهام

---

(٤٧) المثل السائر ص ٩٢ •

ونستخيل الجهام فى أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء قد نشف المدهى ، وييبس الجعثن وسقط الاملوج ، ومات العسلوج ، وهلك الهدى وفادى الوذى برئنا اليك يارسول الله من الوثن والفتن ، وما يحدث الزمن ، لنا دعوة السلام وشريعة الاسلام ماطمى البحر وقام تعار ، ولنا نعم همل أغفال ما تبعن ببلال ووقير كثير الرسل قليل الرسل ، أصابتنا سنية حمراء مؤزلة ليس لها علل ولانهل» •فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ، ومذقها وفرقها ، وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر ، وافجر له الثمد ، وبارك له فى المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلما ،ومن آتى الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا اله الا الله كان مخلصا ، لكم يابنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط فى الزكاة ، ولا تلحد فى الحياة ، ولا تثاقل عن الصلاة » •

وكتب معه كتابا الى بنى نهد « من محمد رسول الله الى بنى نهد ، السلام على من آمن بالله ورسوله : لكم يابنى نهد فى الوظيفة الفريضة ، ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب ، والفلو الضبيس لايمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ولايؤكل أكلكم مالم تضمروا الاماق وتأكلوا الرباق من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة)

ومن ثم لا نستطيع أن نصف هذه الألفاظ بالوحشية أو الغرابة حتى لو ثقل النطق بها على اللسان لعدم الف اللسان على نطـق

---

(٤٨) المثل السائر ص ٩٧ وما بعدها •

مثلها وما ثقل على اللسان فهو ثقيل على السمع أيضا ومن ناحية أخرى فان الألفاظ التى نعتت بخلوها من الفصاحة انما نقلت من دلالتها الأصلية واستخدمت على سبيل المجاز فى المعنى الجديد وعندما نقلت الى المعنى الجديد فانها لم تفقد كل المعنى القديم أو حتى الظلال الباهتة لهذا المعنى فصارت علاقة المشابهة قائمة فى ذهن المتكلم الذى استعارها لتؤدى هـذا المعنى الجديد ، فهو عندما يستخدمها وفى ذهنه هذا الجزء أو هذه الظلال الباقية للمعنى القديم، فانه اما أن ينفر منها أو أن يستحسنها اذا كان المعنى المنقولة منه حسنا، والعكس صحيح ويؤيدنا فى هذا ان اللغة قائمة على المجاز ، والا لصارت ضيقة مكرورة الألفاظ والمعانى ، فجاء المجاز ووسع نطاقها وأرحب دائرتها •

فاستبشع الناطق الفاظا مثل جحيش ، اطلخم ، بعاق ، وجفخ وما أشبه ، ونحن لو تدبرنا صورة هذه الألفاظ لوجدناها تتركب من حروف الأبجدية العـربية العادية ، ولن نستطيع أن نقـول ان واضع الأبجدية العربية عندما وضعها قسمها أو نص على أن هناك حروفا فصيحة وأخرى غير فصيحة ، بل كان فى وضعها على السواء ، والدليل على ذلك أن لفظـة كمـلع مثلا لا تدخل دائرة الفصاحة ، وهى مركبة من الميم واللام والعين واذا عكسنا نطق هذه اللفظة وجعلنا الآخر أول لصارت الكلمة علم ، ومن ثم تدخل هذه اللفظة من أوسع أبواب الفصاحة على الرغم من أنه لم يتغير من حروفها شىء فان قيل بأن موسيقا الكلمة قد تغيرت من توالى حركات الفتح الى فتح فكسر ففتح ، نقول ان هناك الفاظا كثيرة تتولى

فيها حركات الفتح ولا ترد فصـــاحتها وذلك مثل كلمة ضَرَبَ ، وما شابه ذلك فانها فصيحة لا غبار عليها ، ومن ثم فان حروف الكلمة وموسيقاها ليسا برادين فصاحة الكلمة أو مثبتانها ، وانما المعول فى ذلك على ما كان لها من معنى قديم حقيقى نقلت عنه الى المعنى المجازى الجديد لعلاقة المشابهة ، ومعلوم أن كل مجاز له حقيقة لأنه لا يصح لنا أن نطـــلق عليه اسم المجاز الا لنقله عن حقيقة موضوعة له فالمجاز اسم للموضع الذى ينتقل فيه من مكان الى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من الحقيقة الى غيرها ، ولكن ليس معنى هذا أن كل حقيقة لابد لها من مجاز ، فأسماء الاعلام مثـــلا بعضها لا مجاز له لانها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات .

ومن ثم كان المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة والبلاغة .

ولما كان الأمر كذلك فان معظم الاسماء التى وسمت بعريها عن الفصاحة ما هى الا ألفاظ أخذت من الحقيقة ونقلت الى المجاز وما ذلك الا لتشبيه حالة المنقولة اليه بحالة المنقولة عنه وذلك مثل لفظة بعاق فان هذه اللفظة قد يؤدى غير ما تدل عليه كلفظة الديمة والمزنة والبعاق كلها تـــدل على المطر ، غـــير أن العـــرب استحسنوا الديمة والمزنة لأنهما المطر الذى يأتى بما يتمناه الانسان من غير ضرر ولا أذى فيسقى الحرث والنسل ، وينبت العشب والكلأ وتزد هر الحياة غضة ندية ، بخلاف البعاق ، فانه وابل يهلك الحرث

والنسل ويجرف ما أمامه ويلحق الأذى وتتشـــقق منه الأرض ، بالاضافة الى أن المعنى الحقيقى للبعاق هو الشق أو تعنى الذبح واسالة الدماء الغزيرة عندما تنحر الابل ، كما أنها تعنى فى الأصل الكشف والابانة عن شىء مستور ، فالمعنى الحقيقى لها سواء أكان الشق فى الأرض أو النحر واسالة الدماء أو اظهار شىء مستور كلها مكروهة ، فلما استعيرت للمطر ظلت العلاقة قائمة فى ذهن المتكلم فأطلقوها تبعا لذلك على المطر المهلك وليس الذى يستفيد منه الحرث والنسل ، فلذا ــ للعلاقة بين المجاز والحقيقة ــ كره استخدامها ورميت بعدم الفصاحة •

يقول الزبيدى فى تاج العروس (البعاق كغراب شدة الصوت قاله الليث وقد بعق الرجل وغيره وبعقت الابل بعاقا ، والبعاق من المطر الذى يفاجىء بوابل وهو « مجاز » والبعاق السيل الدفاع قال أبو حنيفة هذا الذى يجرف كل شىء ••• وقد بعق الوابل الأرض بعاقا بالضم اذا شقها وأسالها، وبعق الجمل بعقا اذا نحره، وأسال دمه ، وفى حديث حذيفة أنه قال ما بقى من المنافقين الاأربعة فقال رجل فأين الذين يبعقون لقاحنا ، وينقبون بيوتنا فقـــال حذيفة أولئك هم الفاسقون ••• وبعقه عن كذا بعقا اذا كشفه عن ابن عباد ، وبعق البئر بعقا حفرها نقله الزمخشرى ، ويقال عقاب مثل عقبناة نقله الجوهرى ، وكذلك عنبقاة ومقبناة ، وذلك اذا كانت حديدة المخالب ، وقيل هى السريعة الخطف المنكرة ••• والتبعيق التشقيق وقد بعق زق الخمر تبعيقا أى شققها ، والانبعاق أن ينبعق

عليك الشىء فجأة من حيث لا تحسبه وأنت لا تشعر به ، ، نة الجوهرى وأنشد :

بينما المرء امنـــا راعـــــه را .·. ئـع حتف لم يخش منه ابيقعا

واتبعق المزن انبعج بالمطر نقله الجوهــرى وهو مجاز ق ألزمخشرى وذلك اذا انفتح بشدة قال رؤية :

يرون تحت الاثل سياح الدســـق .·. أخضر كالبرد غزير المنبعـــ

وانبعق فى الكلام اذا اندفع فيه ، ومنه الحديث أنه تك لديه رجل فقال كم دون لسانك من حجاب قال شفتاى وأسنا فقال ان الله يكره الانبعاق فى الكلام فرحم الله امــرأ أو جزة كلامه ، وروى عن عمر رضى الله عنه الانبعاق فيما لا ينبغى د شقائق الشيطان ...) (٤٨) اذا حقيقة الكلمة شىء غير محببه لد النفس الصافية فعندما نقلت الكلمة من الحقيقة للمجـــاز عا طريق المشابهة ظل فى ذهن السامع شىء من هذه الحقيقة فرميت يعد الفصاحة لذلك .

كما أنا لو عكسنا حروف هذه الكلمة « بعق » فانها تكون قعد ومنها القعب فى حديث لرسول الله ﷺ مع أحد فقراء المسلم الذى جاء يستعين به على الحيـــاة فقال له ﷺ ما عندك ، قال

---

(٤٨) تاج العروسى من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدى لم تذ سنة الطبع المجلد السادس ص ٣٩٦ منشورات دار الحياة لبذ بيروت .

وقعب نشرب فيه الماء ، وهو الاناء المعد لذلك وهى كلمة فصيحة لاشية فيها •

أما خلو الكلمة من الغرابة فكونها مألوفه الاستعمال ظاهـرة الدلالة من غير كبير عناء أو مشقة ، لكن أحيانا تكون الكلمة غـير ظاهرة الدلالة على المعنى الذى سيقت من أجله ، أو تكون غير شائعة الاستعمال ، وذلك لسببين :

الأول : عدم شيوع استعمال هذه الكلمة أستعمالا يجعلها مألوفة عند السامع والمتكلم ، فيحتاج الى البحث عن معناها فى معاجم اللغة وأحيانا يجده وأحيانا لا يعثر عليه ، وفى هذه الحالة يحاول استنباط معناها من السياق الموجودة به لانها استخدمت فى غير ما وضعت له فتخرج تخريجا بعيدا فالأولى مثل قول عيسى بن عمر « فالكم تكأكأتم على كتكأ كؤكم على ذى جنة افرنقعوا » أو كقول بعضهم نحن فى رخاخ من العيش ، أى فى رغد وسعة الى غير ذلك من ألفاظ لا يفهـم معنـاها بسهولة بل تحتاج الى تنقيب •

والثانية كما فى قول رؤبة بن العجاج :

ايام ابدت واضـحا مفلجـا ∴ اغـر براقـا وطـرفا ادعجـا

ومقلة وحاجبا مزججـا ∴ وفاحمـا ومرسنا مسـرجا

فكلمة مسرج تطلق أساسا على أنف البعير اذ هو موضع الرسن منه ، ثم اطلق بعد ذلك على الأنف مجازا ومن ثم اختلف فى تخريج المعنى (فقيل هو من قولهم للسيوف سريجية منسوبة الى قين يقال له سريج ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف

السريجى ، وقيل السراج يريد أنه فى البريق كالسراج وهذا يقرب من قولهم سرج وجهه أى حسن وسرج الله وجهه أى بهجه وحسنه) (٤٩) •

ومهما يكن من أمر فانها غير ظاهرة الدلالة لأن فعل — المضعف العين — يدل على نسبة الشىء الى أصله ، فيقال كفر فلان فلانا أى نسبه الى الكفر أو فسقه ، نسبة الى الفسق ، وأيضا النسبة التشبيهية (٥٠) • لا تدل عليها المادة المذكورة ، فأخذ ذلك منها بعيد ، لذا كان اللفظ بعيدا غريبا خفى الدلالة ، لعدم استعماله عند العرب بهذا المعنى ولعدم وجود قرينة تحدد المقصود من هذه الكلمة • وأحيانا قد لا يستدل القارىء على تفسير لها مثل قول أبى الهميسع

من طمحة صبيرها جحلنجع ∴ لم يحضها الجدول بالتنوع

فلفظة جحلنجع هذه لم يعثر لها على تفسير (٥١) •

أما مخالفة الوضع : لما ثبت عن الواضع دليل على عدم فصاحة

لما ثبت عن الواضع دليل على عدم فصاحة الكلمة وقد عبر الكلمة وقد عبر الخطيب القزوينى بقوله مخالفة القياس (٥٢) غير أن

---

(٤٩) الايضاح ص ٤ •
(٥٠) وهى أن يكون المنسوب شبيها بالمنسوب اليه •
(٥١) انظر أيضا جواهر البلاغة ص ١١ •
(٥٢) الايضاح ص ٤ وكلهم اخذ عنه •

الأولى أن نقول مخالفة الوضع لأنه أنسب للمعنى المراد منه ، وهو مخالفة الكلمة لما ثبت عن الوضع ، سواء خالفت القياس الصرفى أولا (٥٣) فالمعول على ما ثبت عن الواضع بغض النظر عن القياس المذكور مثل قول المتنبى :

فان يك بعض ســـــيفا لدولة ∴ ففى الناس بوقات لها وطبـول

فلفظة **بوقات** غير فصيحة لمخالفتها لما ثبت عن الواضع ، وأيضا مخالفة القياس الصرفى والأحرى أن تجمع على أبواق كما ثبت عن الواضع وما يقتضيه القياس الصرفى •

وأيضا عندما يفك الادغام فى الكلام فانه يرد فصاحته بذلك مثل قول أبى النجم :

الحمـــد لله العلى الاجـــلل ∴ الواحـــد الفـــرد القديم الاول

فالقياس يقتضى الأجل بالادغام ولا مسوغ لفكه وغير هذا كثير غير أن هناك ألفاظا وردت مخالفة للواضع ، لكنها موافقة للقياس الصرفى ومع ذلك تعد فصيحة ، مثل الفعل أبى ، فاننا نقول يأبى بالفتح لا بالكسر وأيضا استحوذ ، وعور ، فالقياس أن يقـال استحاذ ، عارت بقلب الواو ألفا لتحـركها وانفتاح ما قبلهـا فتحقيق الواو مخالف للقياس الصرفى لكنه فصيح ، لأنه ورد هكذا عن الواضع اســتحوذ وعور ومنه قوله تعالى « استحوذ عليهم الشيطان » •

---

(٥٣) المدخل فى علوم البلاغة ص ٨١ وما بعدها •

فالمعول فى المخالفة هو أن تخالف الكلمة ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القياس الصرفى أو وافقته ، فهذا مخرج للكلمة عن دائرة الفصاحة ، وبهذا أيضا يكون التعبير بمخالفة الوضع أولى من مخالفة القياس لما قدمنا • •

أما بالنسبة للكلام المركب فان له أيضا شروطا لفصاحته يقول القزوينى (وأما فصاحه الكلام فهى خلوصه من ضعف التاليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد مع فصاحتها) (٥٤) •

وقد اشترط فصاحة اللفظة المفردة قبل أن تدخل فى سياق ومثل الكلام فى هذا مثل البناء فانه لن يكون قويا متماسكا الا اذا كانت أحجاره قوية متماسكة صلبة والعكس بالعكس ، ولذا اشترطت فصاحة الكلمة حتى تدخل فى سياق ومن هنا تظهر براعة المتكلم ، كما يظهر الفرق بين متكلم وآخر فالمادة واحدة متصفة بالفصاحة فعند الصياغة والسبك نجد أن هذه المادة الواحدة قد تنوعت واختلفت لأن المستعمل للألفـاظ يحوطها بحرارة الانفعال الفريد الأصـيل كما قال برجسـون ، ولذا فان قصيدة لامـرىء القيس تختلف عن قصيدة للنابغة تختلف عن قصائد أخر لطرفه أو لحسان ابن ثابت أو للمتنبى ، أو المعـرى أو البحـترى أو أحمد شوقى أو البارودى وغيرهم ، ومن ثم يأتى معيار التفرقة فبقدر الاستطاعة والهيمنة على اللفظة وقدرة الانتقاء يحصل التمييز والفرق كالجواهر مثلا اذا صيغت فى عقود لدى الصائغ ، فحبات الدر واحدة شكلا

---

(٥٤) الايضاح ص ٤ •

ومضمونا ، ولكن براعة التقنية عند صائغ تجعله يجـذب أنظار المشاهد بخلاف الصائغ الاخر ، فالاول قد صاغ عقدا فائق الجمال وناسب بين حبات اللؤلؤ وبعضها بعضا فخرجت آية فى الفن ، والآخر كان حاطب ليل وضعها كيفما اتفق فزادها قبحا ونفر الناس منها رغم أن الدر واحد فى الحالتين ، فالعيب فى الصائغ لا فى مادة الـكلام •

وهذا نفسه ينطبق على اللفظة المفردة والعلاقة بينها وبين الكلام المركب ، فهذا الكلام يتكون من مجموعة الألفاظ ، فلكى يكون الكل سليما فصيحا ، لابد أن يسلم الجزء ، فما سلم جزؤه سلم كله وما سلم كله كان جزؤه سليما فمثلا محمدا أصدق مودة من أخيه أو شـعر هند مستشزر ، غـير فصـيح مع أنه كـلام سليم من العيوب الثلاثة المخلة بفصاحته باعتباره كلاما مركبا ، لكنه لما لم يسلم من العيوب المخلة بفصاحة بعض أجزائه لم يكن فصيحا ، اذ الشرط فى فصاحة الكلام سلامته من عيوبه وعيوب أجزائه أى مفرداته •

ولذا اشترطوا فصاحة الكلمة حتى يكون الكلام فصيحا ، فاذا اعتبرنا الكلمة فصيحة وأخذها المستعمل لها يجب أن يراعى شروط فصاحة الكلام المركب ، وفصاحته أن يبرأ من عيوب ثلاثة •

(أ) تنافر الكلمات مجتمعة •

(ب) ضعف التأليف •

(جـ) التعقيد اللفظى والمعنوى •

(أ) تنافر الكلمات مجتمعة :

هو كون الكلمات المفردة متصلا بعضها ببعض اتصالا يسبب صعوبة فى نطقها ، وتعسر أدائها واستغلاق معناها على الفهم بسبب التركيب الذى جاءت فيه ، لكن اذا كانت الكلمات فصيحة يسهل على اللسان النطق بها لتآلفها وتسنى للعقل أن يفهمها بسبب ترتيب الألفاظ وفق المعانى كانت فصيحة صحيحة ، والمعول فى ذلك على الذوق العربى السليم والوقوف على قواعد اللغة والنحو والاسلوب فاذا فقد ذلك كان الكلام غير فصيح وعيب بالتنافر ، والتنافر اما أن يكون شديدا ، أو خفيفا •

التنافر الشديد :

وهو ألذى يتعثر اللسان فى نطقه ، فاذا نطقه فانه لا يستطيع أن يردده أكثر من مرة ومثلوا له بيت الشاعر :

وقبر حــــرب بمكان قفــــر ∴ وليس قــرب قبر حرب قبر

فتوالى حروف القاف والباء والراء على هذا المنوال مما يصعب نطقه ، مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها ما كانت مستكرهة ولا ثقيلة ، ويقال ان البيت لا يعــرف قائله ونســبوه للجن ، وقد علق عليه الجاحظ بقوله (ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وان كانت مجموعة فى بيت شــعر لم يستطع المنشد انشــادها الا ببعض استكراه) (٥٥) •

---

(٥٥) انظر دلائل الاعجاز ص ٥٢ وانظر البيان والتبيين ج١ ص ٣٧ •

ومثله فى شـــدة التنافر قول الآخر يصف فرسا بالخفــة والسرعــة :

ازج زلوج هــرز فى زفــازف ∴ هزف يبذ الناجيـات الصوافنا

أما التنافر الخفيف :

وهو أخف نطقا من سابقه كقول أبى تمام •

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ∴ معى واذا مالته لمته وحدى (٥٦)

فان فى تواتر هاتين اللفظتين نوع ثقل يشعر به القـــارىء لهذا البيت من وجود الحاء مع الهاء ثم اتباع ذلك بنفس الكلمه ثم الهاء التى تليها هذه الهمزة فالاولى من اقصى الحلق والاخرى من داخل البلعوم ، فيؤدى ذلك الى ارباك الناطق بها •

ـ ضعف التأليف :

وله ألوانه العديدة كأن يخرج الكلام على قوانين النحـــاة والصرفيين ، أو تكرار الاضافة أو اتصال الضمير بعد الا • ولها شواهد عديدة نجتزىء منها عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة مثـــل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كـبر ∴ وحسن فعل كما يجزى سنمار

فعاد الضمير فى « بنوه » على « أبا الغيلان » وهو متأخر

---

(٥٦) الايضاح ص ٥ وانظر دلائل الاعجاز ص ٥٣ •

لفظا ورتبته أو قول الشاعر :

وما علينا اذا ما كنت جارتنـــا ∴ ألا يجـــاورنا الا ك ديـــار

أو قول الآخر :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى ∴ فأنت بمرأى من سعاد وسمع

فاضاف حمامة الى جرعا ــ مؤنث أجرع وقصرت للضرورة ــ المضافة الى حومة المضافة الى الجندل •

٣ ــ التعقيد :

وينشأ من كون الكلام خفى الدلالة على ما يراد به من معنى وينشأ هذا من أمور عدة كأن تأتى الألفاظ غير مرتبة وفق المعانى ، أو الفصل بأجنبى فى مواضع لا يجب الفصل فيها ، مثل الفصل بين الصفة والموصوف ، أو البدل والمبدل منه ، أو بين المستثنى والمستثنى منه(وله سببان أحدهما ما يرجع الى اللفظ ، وهو أن يختل نظم الكلام ، ولا يدرى السامع كيف يتوصل منه الى معناه •• •• •• والثانى ما يرجع الى المعنى ، وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول الى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به ظاهر) (٥٧) • فالتعقيد اذن ينقسم الى قسمين ، فمنه ما يرجع الى اللفظ ، ومنه ما يرجع للمعنى :

(أ) التعقيد اللفظى : وينقسم هو الآخر الى قسمين شديد وخفيف •

---

(٥٧) الايضاح ص ٥ ، ٦ .

١ ـ فالتعقيد اللفظى الشديد مثل قول الشاعر :

فأصبحت بعد خط بهجتهـــا ∴ كأن قفرا رســـومها قلمـــا

وتقدير الكلام : فصبحت بعد بهجتهـا قفرا ، كأن قلما خط رسومها فقد فصل بين المتضايفين بالفعل خط ، كما فصل بين كأن واسمها باللفظ قفرا الذى هو خبر أصبح ، وبلفظ رسومها الذى هو مفعول خط ، كما فصل بين الفعل الذى هو خط ، وبين رسومها الواقعة مفعولا ، وبهذه الأمور استغلق المعنى على الفهم ، اذ لا يستطيع الانسان أن يفهمه الا اذا أرجع الامور الى أصلها ونفى هذا التشابك العجيب .

ومثله فى التعقيد ذلك البيت المشهور من قول الفرزدق عندمامدح ابراهيم بن هشام المخزومى ، خال هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى :

وما مثله فى الناس الا مملـــكا ∴ أبو امه حى أبوه يقاربـه

فنجد فاصلا كبيرا بين البدل وهو « حى » والمبدل منه هو « مثله » ، وفيه تقديم المستثنى ، وهو مملكا على المستثنى منه وهو « حى » برغم موافقته قوانين النحاة الا أنه زاد التعقيد ، كما فصل الشاعر بين المبتدأ والخبر (أبو أمه ، أبوه) بكلمة حى وفصل بين النعت والمنعوت بكلمة « أبوه » حتى صار التعقيد فى أبشع صورة (٥٨) .

---

(٥٨) الايضاح ص ٥ .

٢ ــ أما التعقيد اللفظى الخفيف كقول المتنبى :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهــم ∴ شيم على الحسب الاغر دلائل

اذ تقدير الكلام : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر ، وهم لا يجفخون بها • والفصل بين المتلازمين واضح ، غير انه أقل من سابقه تعقيدا للمعنى •

(ب) التعقيد المعنوى :

وينشأ من استعمال الألفاظ فى غير المعنى الذى وضعت له ، واستخدمها العرب كقول العباس بن الأحنف :

ساطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ∴ وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

فالشاعر لم يوفق فى استخدامه لفظة « لتجمدا » لأداء المعنى الذى يريده منه على وجه استخدامه الصحيح ، اذ أن جمود العين أصلا هو جفافها من الدمع عند الدافع اليه أو المسبب له كالحزن وفراق الأحبة ، فاستخدمها بدلا من انسياب الدمع فأغلق المعنى على الفهم اذ أن شعراء العرب تواردوا على أن جمود العين بخل بالدمع ، مثل قول الخنساء :

أعينـــى جـــودا ولا تجمـــدا ∴ الاتبـكيان لصــخر النـــدا

أو قول أبى العطاء بن هبيرة :

الا ان عينا لم تجد يوما بواســـط ∴ عليـك بجارى دمعهـا لجمود

فكلام ابن الأحنف ومثله مما خفيت دلالته على المعنى المراد فلا يكون فصيحا •

ومما تقدم يتضح لنا أن الكلام غير الفصيح يكون فيه أحد العيوب المذكورة سواء أكانت فى اجزائه أم فى تأليفه أم دلالته على المعنى المراد منه فاذا سلم من هذه العيوب عد فى عرف البلغاء فصيحا ، والعكس صحيح ٠

أما فصـــاحة المتكلم : فهى ملكة راسخة متمكنة فيه فبهـا يستطيع التعبير عن مقصوده بلفظ فصيح ، حتى تصير تلك الأمور عزيزة فيه يستطيع متى شاء أن يستخدمها فى أى ضرب أو فن من فنون الكلام وضروبه مع تنوعها ، ولن يتسنى له ذلك الا اذا تمرس بعدد ضخم من أساليب العرب فى عصور البطولة القولية ، ووقف على اسرار اللغة وحفظ كثيرا منها شعرا ونثرا حتى يتكون لديه الاطار ويكون أمامه المثل فيحذو حذوه ٠

البـــــــــــلاغة

وبعد أن انتهينا من الفصاحة بما لها وما عليها ندلف الآن للكلام عن البلاغة وقد عرفت البلاغة لغة واصطلاحا ٠

فالبلاغة فى عرف اللغويين هى الوصول والانتهاء ، وسميت بذلك لأنها تنهى المعنى الى قلب السامع فيفهمه ، فيقال بلغ الرجل بلاغة اذا أصاب من نفس مخاطبه حاجته ، وبلغ منه ما أراد ٠

أما البلاغة اصطلاحا ، فهى وصف للكلام وللمتكلم فقط ، فتقول هذا كلام بليغ ، وهذا متكلم بليغ ، ولا يصح أن توصف بها الكلمة فلا يقال هذه الكلمة بليغة (الا على سبيل المجاز) ونحن نقصد الكلمة المفردة لعدم ورود السماع بذلك ٠

وبلاغة الكلام هى مطابقته لمقتضى الحال مع ســلامته من

العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة مفرداته ، وهذا معنى قولهم لكل مقام مقال ، فيستدعى هذا أن يضع المتكلم فى كلامه ما يناسب حاله المخاطب زيادة على المعنى الأصلى •

وقد اشترط فى البلاغة سلامة الكلام من العيوب المخـلة بفصاحته وفصاحة أجزائه ، وبهذا تصير البلاغة أخص من الفصاحة وأن كل كلام بليغ لابد أن يكون فصيحا ، وليس كل كلام فصيح بليغـا •

اما بلاغة المتكلم ، فمثلها مثل الفصاحة باعتبار كونها ملكة قائمة بنفس المتكلم يمكنه بواسطتها أن يعبر عن المعانى التى يريد افادتها لغيره بعبارات بليغة ، فاذا لم يكن ذا ملكة يقتدر بها على التصرف فى أغراض الكلام وفنونه بقول رائع ، وبيان بديع بالغا من مخاطبه كل ما يريد لم يكن بليغا (٥٩) (وتلك غاية لن يصل اليها الا من أحاط بأساليب العـرب خبرا ، وعـرف سنن تخاطبهم فى منافراتهم ومفاخراتهم ومديحهم ، وهجائهم وشكرهم واعتذارهم فيلبس لكل حالة لبوسها ولكل مقام مقال) (٦٠) •

وبعد هذا العرض للفصاحة والبلاغةنتساءل عنموقف ابن الاثيرمن الفصاحة ، بعد أن عرضنا أيضا للبلاغة عنده ، أى كيف كان موقفه من فصاحة الكلمة ، وفصاحة الكلام المركب ؟

قبل أن نخوض فى الاجابة على هذا السؤال نود أن نعرض لشىء هام جدا عند ابن الاثير فبعد أن فرق بين الفصاحة والبلاغة على عادة اهل البلاغة ورأى أن الثانية أخص من الاولى فالبلاغـة

---

(٥٩) الايضاح ص ٧ •
(٦٠) جواهر البلاغة ص ٣٥ •

شاملة للالفاظ والمعانى وهى أخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان• فكل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا ، كذلك يقال كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا ، ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام هو أنها لا تكون الا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم بلاغة ، ويطلق عليها اسم الفصاحة ، اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة ، وهو الحسن ، أما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما (٦١) •

بعد هذا نرى ابن الأثير قد أرجع الفصاحة الى الذوق فما عده الذوق من الألفاظ — سواء أكانت مفردة أم مجموعة — حسنا فهو حسن مقبول ، وما اعتبره الذوق سيئا فهو كذلك ، ولكن ليس أى ذوق بل يشترط أن يكون الذوق صحيحا غير سقيم ، ونضيف نحن أنه ذوق تدرب وتمرس بعدد ضخم من النصوص البليغة الفصيحة ووقف على الحسن والردىء منها ، ولذا قال عنه ابن الأثير كما سوف نرى الذوق الصحيح •

فعندما تناول اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها قرر فى غير موضع أن للذوق دورا كبيرا فى ذلك المضمار ، فنراه عندما تناول الافراد والجمع فى اللفظ ، تبين الفروق الرقيقة المتموجة بين لفظ وآخر وتبعا لهذه الفروق يختلف جمع الألفاظ ، فمثلا كلمة عين أحيانا يقصد بها العين الناظرة وأحيانا يقصد بها الانسان النبيه من الناس ، فان قصدنا العين وهى حاسة الابصار جمعناها على عيون ،

---

(٦١) المثل السائر ص ٤٣ •

أما اذا قصدنا بها النبيه المتقدم من الناس جمعناها على أعيان ، ويرى أن هذا يرجع فيه الى الاستحسان لا الى الوضع اللغوى ومن ثم عاب قول المتنى :

والقوم فى أعيانهم خزر ∴ والخيل فى أعيانها قبل

لأنه جمع العين وهى حاسة الابصار على أعيان والاحرى جمعها على عيون فيعلق على ذلك بقوله (فجمع العين الناظرة على أعيان وكان الذوق يأبى ذلك ، ولا نجد له على اللسان حلاوة ، وان كان جائزا) (٦٢) .

فعندما مجه الذوق ، ولم يستسغه اللسان كان معيبا برغم جواز جمعه عند اللغويين على هذا الجمع ، ومن ثم يظهر الفرق بين اللغة والبلاغة.وهاك نصا آخر ينص فيه على ضرورة الذوق للفصاحة ولكن ليس أى ذوق بل اشترط أن يكون ذوقا سليما ، وعند كلامه على اسماء الفاعلين والثلاثى منها تناول أثناء ذلك الكلام على فعل وافتعل ، فان لكل منها موضعا يحسن استعمالها فيه ، فنقول قعدت الى فلان أحدثه ، ولا نقول اقتعدت اليه ، وكذا نقول اقتعدت غارب الجمل ، ولا نقول قعدت غارب الجمل (وان جاز ذلك لكن الأول أحسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فانه لا يمكن أن يقام عليه دليل) (٦٣) .

وكما أن لكل من فعل وافتعل مكانا لا يحسن الا فيه ، كذلك

---

(٦٢) المثل السائر ص ١٧٦ .
(٦٣) المثل السائر ص ١٧٧ .

لوزن فعلة فان لها استخدامات لا تحسن الا فيها ، بل الغالب عليها فى الاستخدام أن تكون حسنة نحو همزة ولمزة وجثمه ونومه ولكنه ، فانها يغلب عليها الحسن والفصاحة ، وقد استعمل القرآن همزة ولمزة ، وفى النهاية يطلب من القارىء أن يتأمل اختلاف صيغ الالفاظ ليعلم كيف يضع يده فى استعمالها ، فكثيرا ما يقع فحول الشعراء والخطباء فى مثلها اذا لم ينعموا النظر ويعملوا الفكر فى مثل هذه المواقف والاستخدامات فيجب أن ترد هذه على الذوق الصحيح حتى يتأكد الانسان حسنها (ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر اذا مرت به الفاظ عرضها على ذوقه الصحيح ، فما يجد الحسن منها موحدا وحده ، وما يجد الحسن منها مجموعا جمعه وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ) (٦٤) .

وبعد فما رأى ابن الأثير فى فصاحة الكلمة والكلام .

أولا : فصاحة الكلمة المفردة

يقرر ابن الاثير أنه لا مزية ولا فضل للكلمة المفردة ، مثله فى ذلك مثل باقى النقاد ، وهو على صواب فى ذلك لان اللفظة المفردة لفظه معجمية باردة لا تعطى معنى اكثر مما فى حروفها ، كما لا يمكن وصفها بالبلاغة كما أوضحنا سلفا الا اذا دخلت فى سياق وأدت دورا صحيحا كاملا فى هذا السياق غير أن الفضل والمزية التى يمكن أن توصف بهما وهى مفردة هل هى مألوفة الاستعمال أو غير مألوفة وحشية أو أن تكون حروفها أخف حركة وأحسن امتزاجا

---

(٦٤) المثل السائر ص ١٧٧ .

وبذا أيضا تتفوق على اختها التى فى معناها (اعلم ان اللفظـة قبل دخولها فى سبل التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التى تسمى كلاما دالا على معنى من المعانى لا يكون لها مزية على اختها التى فى معناها الا بأن تكون هذه أشرف من هذه بعلامات توجـد فيها اما أن تكون احداهما مستعملة مألوفة ، والاخـرى وحشية متوعرة ، واما أن تكون حروف هذه أخف حركة أو أحسن امتزاجا مع صواحبها ... ولايتصور بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة على المعنى الذى اشتركا فيه حتى تكون احداهما أحسن فى الدلالة على ذلك المعنى من الأخرى) (٦٥) .

ومدلول الدلالة فى هذه العبارة هو العلاقة بين المعنى الحقيقى الذى وضعت له اللفظة أساسا ، وبين المعنى المجازى الذى استعيرت له فاذا كانت علاقة المشابهة قريبة ومفهومة بالاضافة الى حسن مخارج حروفها كانت الكلمة بذلك أحســن فى الدلالة على المعنى الجديد الذى وضعت أو نقلت اليه .

ومما يحسب لابن الاثير ، كلامه عن اللفظة المفردة وانتباهه الى أن هذه اللفظة لا يمكن الحكم لها أو عليها حتى تدخل فى سياق ويظهر التوافق والتواؤم بينها وبين سابقتها ولاحقتها ، وهذا نفسه ماعناه عبد القاهر الجرجانى عندما تكلم عن البلاغة والفصاحة فذهب الى أنه لا يمكن أن تتفاضل الكلمتان المفردتان ، قبل أن تدخلا فى سياق من التأليف والنظم ، أما خلا ذلك فانه لا يمكن الحـكم لها الا بأن تكون مألوفة مستعملة ، أو غريبة وحشية أو أن تـكون

---

(٦٥) الجامع الكبير ص ٦٤ .

حروفها أخف وامتزاجهـا أحســن ، كما لا تكون ثقيـلة تـكد اللسان (٦٦) . وقد تساءل ابن الاثير هل فصاحة الكلمة مقيســة بمخارج حروفها ، سواء أكانت متباعدة أم متقاربة ؟

نراه ينفى ذلك ، ويرى أن ثمة ألفاظا متقاربة الحروف وهى غاية فى الحسـ ن، وأخرى متقاربة وتكون غاية فى القبح ، والحال أيضا كذلك بالنسبة لتباعد مخارج الحروف ، فليس اذن التباعد أو التقارب سبب حسن أوقبح الكلمة بل هناك اعتبارات أخرى كما سلف أن أوضحنا وبالنسبة لتباعد مخارج الحروف فان معظم اللغة العربية دائرة عليه ، لان الواضع قسمها الى ثلاثة أقسام : ثلاثيا : ورباعيا : وخماسيا ، فالثلاثى من الالفاظ هو الاكثر ، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله الا الشاذ النادر وأما الرباعى ، فانه وسط بين الثلاثى والخماسى فى الكثرة عددا واستعمالا وأما الخماسى فانه الاقل ولا يوجد فيه ما يستعمل الا الشاذ النادر ، وعلى هذا فان اكثر اللغة مستعمل غير مكروه ، كما عنى بالماثلة بـين حركات الفعل فى الوجود وحركات المصدر فى النطق ، كالغليان ، والضربان ، والنقدان فان حروفه كلها متحركة وليس فيها حـرف ساكن وهى مماثلة لحركات الفعل فى الوجود ، اذن فان واضع اللغة نظر الى كل هذه الدقائق والاصول المعول عليها فى النطق والمعول على حسن أو قبح هذه الألفاظ هو حاسة السمع ، فهـى

---

(٦٦) دلائل الاعجاز ص ٤٥ .

الحاكمة فى هذا المقام بحسن ما يحسن من الالفاظ وقبح ما يقبح، واستحسانها أو استقباحها انما هو اعتبار المخارج لا بعده سواء أكانت متباعدة أم متقاربة فهناك ألفاظ تقاربت مخارجها وتكون محمودة لا قبح فيها ، فالكلمة التى تتكون من الجيم والشين والياء المتقاربة المخارج (اذ هى من وسط اللسان بينه وبين الحنك) تـكون حسنة رائعة لا قبح فيها مثل جيش ، وشجى فكانتا هما محمودة ، أيضا الحروف الشفهية ، كالباء والميم والفاء اذا نظم منها شىء من الألفاظ كان جميلا مثل فم ، أو ذقت هذا بفمى •

كما أن المتباعد فيه الحسن والقبيح أيضا (ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ، اذ هما ضدان لا يجتمعان) (٦٧) ، مثل كلمة ملع ، فالميم من الشفة واللام من وسط اللسان ، والعين من الحلق وبرغم هذا التباعد فان هذه الكمة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ، غير أننا لو عكسناها لصارت علم ، وهى كلمة حسنة لا قبح فيها برغم عدم تغير مخارجها (ولو كان مخارج الحروف معتبرا فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفذلة فى ملع وعلم) •

اذن مخارج الحروف سواء أكان من الحلق الى الشفة أومن الشفة الى الحلق لا دخل له فى حسن أو قبح الكلمة فاذا كانت كلمة ملع قبيحة وكلمة علم حسنة فان غيرها لو عكس لصار هو وعكسه فصيحا حسنا ، كغلب وبلغ ، وعقر ، ورقع ، وعرف وفرع ، وحلف وفلح وما أشبه ذلك • غير أننا رأيناه فى موضع آخر ينص على أن التباعد سبب فى حسن الكلمة وهذا شىء غريب اذا عد

---

(٦٧) المثل السائر ص ٩٤ •

التباعد بين الأوصاف السبعة التى تستحق بها الكلمة مزية الحسن والجودة وعدها على الوجه التالى :

الاول — تباعد مخارج الحروف .

الثانى — ان لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعرة .

الثالث — أن لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة .

الرابع — أن لا تكون عبر بها عن معنى يكره ذكره ، فاذا أوردت وهى غير مقصودة بها ذلك المعنى قبحت .

الخامس — أن تكون مصغرة يعبر بها عن شىء لطيف ، أو أخف ، أو نحو ذلك .

السادس — أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا .

السابع — أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة (٦٨) .

وبعد أن عدد هذه الأوصاف السبعة ، قام بدراسة ضافية عن الحروف ومخارجها وتعريف الصوت والحروف الحلقية والشجرية، والذليقة والشفهية والخيشومية (٦٩) نراه يعود مرة أخرى فيقرر ما قررناه سلفا بأن (تباعد المخارج ليس بكاف فى حسن اللفظة ، ولا مقنع فى جودتها فانه قد تأتى لفظة مؤلفه من حروف متباعدة المخارج ولكنها تكون مبنية من حركات ثقيلة أو تكون وحشية ، أو غير ذلك من الصفات الذميمة فيعارض ذلك الوصف المحمود

(٦٨) الجامع الكبير ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٦٩) الجامع ص ٣٥ وما بعدها وانظر المثل السائر ص ٩٢ .

هذا الوصف المذموم فيذيله ويذهب به) وان كنت لا أرى أن تباعد مخارج الحروف أو تقاربها سببا للحسن أو الرداءة لان واقع لغتنا العربية يد حض ذلك ، وبالتالى فان هذا الوصف لا أعتبره من صفات حسن أو قبح اللفظة وأنه بعيد عن باب الفصاحة ، وكذا قوله (ان الغالب على المتباعد المخارج من الالفاظ الجودة والحسن والغالب على المتقارب المخارج الرداءة والقبح) (٧٠) .

ثانيا — أن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعرة ، ويعنى ابن الأثير بالوحشى قلة الاستعمال فى الكلام ، وأن أحسن الألفاظ عنده ما كان مألوفا دائرا فى الكلام قد صقلته الألسنة، وأنسته الاسماع والقلوب ، والحال هنا نسبية ، فما كان من الكلام غير مألوف عند قوم فهو مألوف عند آخرين كما أن اللغة ليست وقفا على قوم دون آخرين فللمتكلم الحرية فى أن يأخذ من أى الاقوام شاء ، ماشاء من الكلام مما يتناسب وموضوعه الذى يتكلم فيه فليس ثمة عيب فى هذه الكلام بل العيب فيمن ابتعد عن استخدامه ، فما ذنب السيف ان كان الضارب كليلا ، والدليل على ذلك حديث طهفة بن أبى زهير مع رسول الله ﷺ حتى ان عليا بن أبى طالب سأل الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا (يارسول الله نحن بنو أب واحد ، وربينا فى بلد واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره) فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم (أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وربيت فى بنى سعد) (٧١) .

---

(٧٠) الجامع الكبير ص ٣٥ .
(٧١) الجامع الكبير ص ٤٥ .

فان الله قد الهمه هذا الكلام وتلك المعانى وأنطقه بها ، كما أن تربيته فى البادية فى بنى سعد علمه ذلك الأسلوب ، ومازال التجميع على بداوتهم ، فمثل هذا الكلام مستعمل مألوف ، وما جاء منه فى الكلام جاء عفوا غير متكلف ، ينساب فى سهولة ورقة ويسرلكن المعيب هو أن يلبس المرء غير لباسه ، ويمتطى جودا لا يعـرف كيف يسوسه ، فانما الكلام كالمهر الاران ، لا يسلم عنانه الا لمن كان قادرا على أن يمتطيه ، والا جمح به ومنه . فلا يأتى انسان ويتكلم فى عصرنا الحاضر بما كان يتكلم به صعاليك العرب مع قوم حظهم من الثقافة العربية ضئيل ، اما اذا استعمل مع من يفهمه لم يكن وحشيا ولا غريبا ، حتى وان كان فى زمان غير زمانه لأن اللغة كائن حى متكامل .

وشبيه بهذا ماذكره فى المثل السائر (٧٢) عن استعمال الألفاظ بين ساكن المدينة وساكن البيداء الذى يقول شعرا يقطر عذوبة ورقة كشعر السموءل بن عاديا ، وعروة بن اذنية أو غيرها ، ثم يأتى ساكن المدينة الذى يعيش فى رفاغة من العيش ورقة الحياة يحاول أن يأتى بوحشى الالفاظ ، وشظف العبارات لكى يثبت لنفسه الفصاحةوالبلاغة وهو على غير ذلك ، وما جره الى ذلك الا محاولة التفيقه والتقعر واثبات قدرته القولية ، وكان الأجدر به أن يواكب زمانه وخلانه فان فعل لم يكن معيبا وان اتى بالوحشى الذىيفهمه من يسمعه .

---

(٧٢) المثل السائر ص ١٠٣ وما بعدها وانظر الجامع الكبير ص ٤٦ .

غير أنه يرى أن الالفاظ الوحشية قد خفى فهمها وظنت من المستقبح من الالفاظ وهى ليست كذلك ، ثم يقسم الوحشى الى قسمين :

(أ) غريب حسن .

(ب) غريب قبيح .

ويذهب الى أن هذه اللفظة «الوحشى» مستعارة من وحوش القفار ، وفيها الوحش الحسن ، والوحش القبيح ، وأيضا فان أحسن الوحش ما كان مقبولا من الجميع ، وكذا الالفاظ فأحسنها ما كان مألوفا متداولا ، وأقبحه ما كان مهجورا لنفور الناس منه ، والحسن المألوف المتداول أيضا على درجات تبعا لحسنه ومن ثم فان الألفة تنقسم الى ثلاثة أقسام قسمين حسنين ، وقسم قبيح :

الأول — ما تداول استعماله بين الناس لا فرق فى ذلك بين السلف والخلف .

فكما استعمله الآباء استعمله الأبناء وهذا حسن لا يسمى وحشيا . الثانى ما تداول واستعمل عند الادباء فى الزمان الاول وابتعد عن استعماله بعض الابناء لا لأنه وحشى ، أويعاب من استعمله وهجر الناس له قربة من الوحشية ، أو على الأقل جعلته كالنافر من الوحوش ، لكن اذا استؤنس صار حسنا أليفا ومنه فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف أشياء تعرف باسم غريب القرآن وغريب الحديث (٧٣) كحديث طهفة بن أبى زهير .

---

(٧٣) المثل السائر ص ٩٥ .

الثالث : وهو القبيح من الالفاظ ويعرفه بأنه الوحشى الغليظ لان سمع السامع يستثقله بل يكرهه ، وما ذلك الا لانه أولا غريب الاستعمال وثانيا ثقيل على السمع كريه على الذوق (واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته • وهو الذى يسمى الوحشى الغليظ ، ويسمى أيضا المتوعر ، وليس وراءه فى القبح درجة أخرى ولا يستعمله الا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن أصلا) (٧٤) ويضرب لهذا النوع العديد من الامثلة التى وردت ضمن أبيات للعديد من الشعراء ، كلفظة جحيش فى بيت تأبط شرا واطلخم ودهاريس فى قول أبى تمام :

وقد اطلخم الامر وانبعث ∴ عشوا تلية غبسا دهاريسا

أو لفظة جفخ فى قوله المتنبى :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم ∴ شيم على الحسب الاغر دلائل

وان كنت لا أوافقه على رأيين له فى استعمال الغريب الوحشى من الألفاظ وهما :

١ — العرب لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ بل تلام على استعمال الغريب القبيح منها ، أما الحضرى فيلام على استعمال الغريب الحسن ، والغريب اقبيح •

٢ — الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات •

---

(٧٤) المثل السائر ص ٩٨ •

أما عدم لوم العرب على استعمال الغريب الحسن ، ولومها على الغريب القبيح فانى أتساءل ما معيار الغرابة عنده ؟ كما أرى أن الحال نسبية فما كان عنده غريبا ربما لم يكن عند العرب كذلك ، وأيضا بالنسبة للقبيح فهل كان رأيهم فيه أيضا أنه قبيح ، وهل درى هو بذلك ؟ أما الطامة الكبرى فانه يحرم على ساكن المدينة ما أباحه للعرب سكان البادية ، والسؤال هو هل تتجزأ اللغة العربية فيكون جزء منها لساكن المدينة ، وآخر لساكن الحضر؟ الواقع يرفض ذلك بل اللغة كل لا يتجزأ ، فما كان صالحا لساكن البادية صلح لساكن المدينة وما عيب على ساكن الحضر ، عيب على ساكن المدر أيضا .

أما قوله بأن الغريب الوحشى الحسن يستعمل فى الشعر دون النثر ويصف من لا يوافقه فى هذا بصفات غريبة . فانى أيضا أرفض ذلك منه فاللغة فيهما واحدة وانما الذى يختلف هو الاحساس والشعور والعاطفة من موقف لاخر والموقف نفسه هو الذى يفرض النمط اللغوى الذى يستعمله الانسان وقت صياغته ما يريد ، والدليل على ذلك أنه أتى بأبيات شعرية فيها ألفاظ يمجها الذوق وتنفر منها الاذن ، ومع ذلك سوغ استعمالها كلفظة شرنبثه فى قول الفرزدق أو لفظة مشخمر لبديع الزمان الهزانى الذى أخذها منه بشربن عوانه العيدى (٧٥) . أو لفظة الكنهور للمتنبى وما أشبه ذلك من ألفاظ يراها جميعا حسنة غير مستكرهة ولا أدرى كيف ذهب هذا المذهب .

---

(٧٥) انظر المثل السائر جـ١ ص ١٦٦ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، وانظر الجامع الكبير ص ٤٨ .

ثالثا : ان لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة كان تكون ساقطة سوقية أو أن العامة حولتها من المعنى الموضوعة لهاما الى معنى قبيح ، أو الى معنى آخر وان كان غير قبيح لكنه ليس المعنى الذى وضعت واستعملت من أجله ، واليك بيان كل قسم :

الاول : ما كان من الالفاظ دالا على معنى وضع فى أصل اللغة فغيرته العامة وحولته الى معنى آخر وهو نوعان :

(أ) ما يستقبح ذكره ويكره كقول المتنبى :

أذاق الغوانى حسنه ما أذا قتنى ∴ وعف فجازاهن عنى بالصرم

فالفعل صرم فى أصل اللغة يعنى القطع عكس الوصل ، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره وأبدلت السين صادا (٧٦) لذاكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجرها من ألفاظ .

(ب) استعمل فى غير معناه الاصلى ، فأنكر استعماله وصار مبتذلا (والذى ترجح فى نظرى أن المراد بالمبتذل من هذا القسم انما هوا الالفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة) (٧٧) .

فليس المقصود من استعملها ، اذا المقصود كيف استعملتفتسمية الشىء باسم غيره دون علاقة ، مخل بفصاحة اللفظة كأن تصف انسان

---

(٧٦) الجامع الكبير ص ٤٩ وانظر المثل السائر جا ص ١٨٢ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٧٧) المثل السائر جا ص ١٨٢ .

بالظرف اذا كان دمث الاخلاق حسن الصورة مهندما ،لكن الظرف فى أصل اللغة صفة للنطق كما أن لباقى شمائل الانسان صفات دالة عليه ، وهذه الالفاظ جاءت فى شعر معظم الشعراء قديمهم وحديثهم لكن تتفاوت درجة الاتيان به بين القلة والكثرة ومنه ما ورد عن المتنبى كقوله :

وملمومة سيفية ربيعية ∴ يصيح فيها الحصا صياح اللقالق

فاللقالق جمع لقلق وهو طائر كبير بالعراق ، وهذه اللفظة واسعة الانتشار بين العامة •

رابعا : وهو خاص بالمشترك اللفظى ، فيكون للكلمة معنيان أحدهما يكره ذكره والآخر لا يكره ، فلابد من قرينة فى الكلام حتى يتحدد المعنى المقصود والا انصرف الوهم الى ما يقبح ذكره لا شتهاره به دون غيره (٧٨) وذلك مثل لفظة التعزير ، فان هذه اللفظه عندما تطلق يتبادر الى الذهن العقوبة التى تسبق حد الجلد أو ما شابه ذلك ، ومعناها التعنيف أو الاهانة فاذا استخدمت فى سياق دون قرينة تحدد المعنى المقصود سواء أكانت قرينة ظاهرة أو خفية أستخدمت للمعنى المتداول المعروف وهو الاهانة اما اذا استخدمت ومعها القرنية تحدد ما يرادفها فلو قلت قابلت محمدا فعزرته عندها ينصرف الذهن للاهانة أما لو قلت قابلت محمدا فعزرته وأكرمته لبان المقصود ، وعليه جاء قوله تعالى : « فأما الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك هم المفلحون » فالقرائن المذكورة مع هذه اللفظة فى الآية دلت على أن المقصود هو المعنى الحسن من التعظيم والاكرام •

---

(٧٨) المثل السائر ص ١٨٥ وما بعدها والجامع ص ٥٢ •

وكذلك لفظة مقاعد ، وجحر فقبحت الأولى فى قول الشريف الرضى :

أعزز على بأن أراك وقــد خــلا .·. عن جانبيك مقـاعد العــواد

وقد استعملها القرآن الكريم استعمالا حسنا فقال تعالى : « واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أو كقوله تعالى : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع » وما أشبه ذلك •

خامسا : والأوصاف التى توجد فى اللفظة ، وتستحق بها مزية الحسن والجودة هو كون الكلمة مصغرة فى موضع يعبر بها عن شىء دقيق أو ضـعيف ولكن بشرط أن لا يكثر منه المتكلم حتى لا يهجن كلامه فيكفى الوجه شامة واحدة لابراز حسنة وجماله ، أما اذا زاد تغير الوضع الى ضده كقول الشريف الرضى :

هل ناشد لى بعقيق اللــوى .·. غزيلا مر على الــركب (٧٩)

غير أن له رأيا آخر فى التصغير ؛ وهو أن المعنى يسوق اليه ومن ثم فلا حاجة لذكره (٨٠) •

سادسا : أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تأليفا (٨١) وبذا استحسن الثلاثى وبعض الرباعى ، أما الخماسى فانه رآه قبيحا ويقطع بعدم وجود شىء منه حســن ، وذلك كجحمرش ، وصهصلق ، ويعلل ذلك بأن أصول الثلاثى وبعض أصول الرباعى

---

(٧٩) الجامع الكبير ص ٥٦ •
(٨٠) المثل السائر جـ١ ص ١٥٥ ت محيى الدين عبد الحميد •
(٨١) المثل السائر ط ص ١٨٨ ت محيى الدين والجامع ص ٥٧ •

قد ركبت من حروف قليلة خفت على النطق لقصرها ، ومن ثم سهل التعبير بها على اللسان بسرعة فراغة منها ؛ والعكس صحيح فاذا ركبت الكلمة من حروف كثيرة كان فى النطق بها كلفة على الناطق لتطاولها وامتداد الصوت بها •

فالثلاثى عذب والخماسى المعيب كقول المتنبى :

ان الكرام بلا كـــرام منهـــم .·. مثل القلوب بـلا سويداواتهـا

فكلمة سويداواتها خرجت عن القبول لانها تطاولت وخرجت عن حد الاعتدال كما يقول (٨٢) ، غير أن الغريب العجيب أنه فى كتابه الجامع الكبير قد جعل طول اللفظة عيب فيها وخروج عن الاعتدال ، ثم فى كتابه المثل السائر ينفى ذلك معلقا على قول ابن سنان الخفاجى حول كلمة سويداواتها قائلا (وقال : — اى ابن سنان — ان لفظة سويداواتها طويله ، فلهذا قبحت ، وليس الأمر كما ذكره ، فان قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وانما هى لأنها فى نفسها قبيحة) (٨٣) •

سابعا : أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة ، وحروف قليلة ، حتى تكون سهلة النطق يسيرة التشكيل بالحركات ، أى أن موسيقية الكلمة حروفا وحركات لابد أن تكون متناسقة بـين الخفة والثقل ، فلا تكون كلها « نشازا » فتكون مكونة من حروف كثيرة ونغمات أو حركات ثقيلة ، ومن ثم فان الحركات اما خفيفه

---

(٨٢) الجامع الكبير ص ٥٨ •

(٨٣) المثل السائر جـ١ ص ١٨٨ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •

أو ثقيلة أو بمعنى آخر الموسيقا اما حادة أو هادئة فاذا توالت حركتان هادئتان ، كان لذلك وقعه فى الأذن فتأنس به وتطرب له ، وأيضا اذا كانت حركة ثقيلة تتبعها حركة خفيفة قبلتها الاذن الى حد ما ، بخلاف ما اذا كانت الحركات كلها ثقيلها فتكون عنيفة عند اصطكاكها بالاذن ، ومن ثم تنفر منها وينفر منها الناطق ، أى السامع والمتكلم •

والحركات من حيث الخفة ، والثقل تتوالى كالاتى ، فالفتحة أخف الحركات تليها الكسرة ، وآخرها الضمة لان الحركات تشابه الحروف ،ولما اشبعت هذه الحركات انقلبت الى حروف فعندما تشبع الفتحة تكتب ألفا ، واذا اشبعت الكسرة كتبت ياءً ، واذا اشبعت الضمة انقلبت واوا ولهذا السبب ذهب علماء العربية الى تسمية الضمة بالواو الصغيرة ، والكسرة بالياء الصغيرة ، والفتحة بالالف الصغيرة ، ومن ثم استثقلوا مجىء هذه الحركات على تلك الحروف ، لذا فانها تحذف للثقل أو لتعذر النطق بها لان الحركة الكبيرة تحتوى على الصغيرة فلا تظهر عند النطق بها •

وقليل من هذه الحروف تأتى عليها تلك الحركات وتكون مقبولة ، خاصة اذا كانت الكلمة ثلاثية تتناسب حروفها بهذه الحركات نطقا فى خفة وسهولة ، فتتوالى هذه الحروف اما من الداخل الى خارج الفم ، أو العكس ، فتكون حركة النطق بها ميسورة

فمثلا كلمة ضرب ، اذا وضعنا الفتحة على حروفها الثلاثة

كان النطق بها ميسورا هادئا ، واذا بنيت للمفعول كانت كذلك لكن لا تكون فى خفة الأولى ، بخلاف ما اذا وضعنا الضمة على جميع حروفها فان نطقها سيكون عسيرا والسبب ليس بسبب مخارج حروفها بل بسبب اختلاف تأليف حركاتها .

وان كنا قد وجدنا بعض الكلمات وضعت الضمة على جميعها ووجدنا ذلك مقبولا غير مرفوض وما ذاك الا لشيوع هذه الكلمة وتداولها بين المتكلمين ومجيئها على القاعدة التى وردت عن العرب فى مثل هذه الألفاظ . فصارت مألوفة بهذه الصورة ، والمألوف يصبح سهلا ميسورا لان الناس قد تعودوا عليه ، وألفته السنتهم وآذانهم ، وقد ورد كثير من مثل هذه الألفاظ فى القرآن الكريم ، والشعر العربى . غير أن الذى حسن ذلك انما هو شيوع هذه الكلمة أو تلك بهذه الصورة ، فصارت كوحش استؤنس فصار طيعا مألوفا ، ومن أمثلة ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) وكقوله تعالى : (ان المجرمين فى ضلال وسُعرُ) أو (وكل شىء فعلوه فى الزبر) ومن ثم يعلق عليها ابن الأثير قائلا (فحركة الضم فى هذه الألفاظ متوالية وليس بها من ثقل ولا كراهة) (٨٤) .

---

(٨٤) المثل السائر جا ص ١٩٢ تمحيى الدين وانظر الجامع الكبير ص٥٩ وما بعدها ويعلق محققا الكتاب على قول ابن الاثير عن النـــوع السابع أنه هو الذى ابتكره . بل الواقعان ابن جنىقد اشارالىذلك ولم يخترعه أو يستنبطه ابن الاثير ، بل أخذه من ابن جنى وادعاه انظر الخصائص جا ص ٩ ، ص ٧٣ ـ ص ٧٧ .

وأيضا قول أبى تمام :

نفس يحتثــــها نفس ⁘ ودمـــوع ليس تحتبس

ومغان للـــــكرى دثر ⁘ عطـــل مـن عهده درس

شـــهرت ما كنت اكتمـه ⁘ ناطقـات بالهوى خرس

ومن العيوب التى أوردها أيضا ورآها مخلة بفصاحة الكلمة ما أورده متناثرا فى كتبه غير ما جمعه فى صعيد واحد كما تقدم ، وذلك مثل فك الادغام فى الفعل الثلاثى ونقله الى اسم الفاعل وعلى هذا فلا يحسن أن يقال : بل الثوب فهو بالل ،ولاسل السيف فهو سالل ، ولا أن يقال هم بالأمر فهو هامم ويسمى هذا النوع بالمنافرة وهو (أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو فى معناها أولى بالذكر) (٨٥) ويقسمه قسمين :

(أ) ما يوجد فى اللفظة الواحدة •

(ب) ما يوجد فى الألفاظ المركبة •

وسنتناول أولا بالحديث ، اللفظة الواحـــدة ،ونرجىء الكلام عن الألفاظ المركبة لحينها •

يرى أن مايوجد منه فى الألفاظ المركبة يمكن تبديله أو تغيره سواء كان الكلام نثر أو شعرا ، أما مايوجد فى اللفظة المفردة سواء تعددت أو لم تتعدد فانه لا يمكن تبديله بغيره خاصـــة فى الشعر ، وان تمكنا فى النثر ، وأعتقد أنه ممكن فى الشعر والنثر

---

(٨٥) المثل السائر جـ١ ص ١٨٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •

طالما كان المتكلم حاذقا بصيرا بأسلوب الكلام . ولا يعوقه عائق الوزن أو غيره فان فى اللغة ثراء كبيرا وسعة ، ويضرب مثلا لذلك بقول المتنبى :

فلا يبرم الامر الذى هو حـــالل .·. ولا يحلل الامر الذى هو يبرم

(فلفظة حالل نافرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لأنه لو استعمل عوضا عنها لفظة ناقض فقال :

فلا يبرم الامــــر الذى هو ناقض .·. ولا ينقض الامر الذى هو يبرم

لجاءت اللفظة قارة فى مكانها غير قلقة ولا نافرة) (٨٦) .

ومن هذه العيوب يتضح لنا فهم ابن الأثير لما ينبغى أن تكون عليه اللفظة المفردة حتى تكون فصيحة مقبولة .

ثانيا : فصـــــاحة الـــكلام

وكما تناول ابن الأثير فصاحة الكلمة وحدد معالمها تنـــاول أيضا فصاحة الكلام فيحدد هذه المعالم وضرب الأمثلة وكلها تدل على بصر ثاقب باللفظة المفردة ثم عند دخولها فى سياق ، وهو ما يعرف عند ابن الأثير بصناعة تركيب الألفاظ (٨٧) وكما أوضحنا سلفا فانه انتهى الى أن اللفظة المفـــردة قبل دخـــولها فى سبل التأليف وقبل أن تصير كلاما مفهوما دالا علىمعنى من المعـــانى

---

(٨٦) المثل السائر جـ١ ص ١٨٤ وانظر الجامع الكبير ص ٢٧٣ .
(٨٧) الجامع الكبير ص ٦٤ .

لا يكون لها مزية ولا فضل الا من حيث الألفة والاستعمال ، وما أشبه ذلك مما سبق أن أشرنا اليه •

وأيضا لا يمكن أن يحكم الانسان على أى كلام قبل أن ينظر الى شروط الفصاحة فى كل كلمة على انفرادها ، ثم اذا رأى أنها توفر فيها شروط الفصاحة ينظر اليها من خلال التأليف ، أى فى مكانها الجديد هل هى متمازجة متواكبة غير قلقة مع سياق الألفاظ الذى قبلها ، أو بعدها ، وهل هى مناسبة فى هذا المكان أو مضطربة•

اذا المعول عنده بعد اختيار اللفظة التى توسم بالفصاحة وتحققت شروط الفصاحة فيها هو حسن التأليف وجودة التركيب فلابد أن يتواءم اللفظ والمعنى والتركيب حتى يتحلى الكلام بالرونق والطلاوة ، واذا كان المعنى جيدا والتركيب فاسدا ، فسدت لذلك قيمة العمل الأدبى كله ، وفقد رونقه وحلاوته ومثال ذلك العقد الثمين الذى أفسد نظمه ، فوضعت كل درة مع ما ينافيها ولا ولا يناسبها ، فصار مختل المنظر ، بخلاف عقد غير ثمين ، وضعت فيه كل حبة مع ما يناسبها ، فأحسن تنفيذه ، فخرج رائقا فى منظره (وحسن التأليف : هو أن توضع الألفاظ فى مواضعها ، وتجعل فى أماكنها ، وسوء التأليف بخلاف ذلك) (٨٨) أى بأن تدخل بعض العيوب على الألفاظ فى مواضعها ، فيختل نظمها ويفسد تركيبها كأن يقدم ما حقه التأخير أو العكس ، أو عاظل فى الكلام فتصير

---

(٨٨) الجامع الكبير ص٦٤ وانظر المثل ص ٨٧ وما بعدها •

المعانى تبعا لذلك نافرة قلقلة عن مواضعها مضطربة (ومثال ذلك كالصورة التى تحول بعض أعضائها الى موضع بعض ، فتحول الرأس الى موضع اليد أو الرجل أو غير ذلك فانه اذا فعل هذا قبحت الصورة وفسدت هيئتها الجميلة الحسنة) ٠

وكذلك الألفاظ اذا وضعت فى غير مكانها الصحيح وركبت مع أخواتها (فان لتركيبها حكما آخر وذلك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ، ما يخيل للسامع أن هذه الالفاظ ليست تلك التى كانت مفردة) (٨٩) ٠

فالعيب ليس فى اللفظة ، وانما العيب كل العيب فى استخدام اللفظة فى سياق اذ عند ما تدخل هذا السياق ، أحيانا نصفها بأنها متمكنة مرضية ، أى حسنه الاتفاق بين الألفاظ بعضها مع بعض ، وقد نصفها بأنها قلقلة مستكرهة ، أى غير ملائمة ولم تتوافق مع صواحبها فقد ينظر الانسان الى لفظة واحدة جميلة رائعة قبل أن تدخل فى سياق ، فاذا دخلت فى هذا السياق أو ذاك حكم عليها فى أحدهما أنها جميلة متمكنة ، وفى آخر قلقلة نافرة ، ومن ثم فالعيب ليس فيها ، وانما العيب فى سبكها مع صواحبها ، ومثال ذلك ما أورده الجرجانى فى كتابه دلائل الاعجاز حيث تكلم عن لفظة « الأخدع » ولفظة شىء فان هذه اللفظة كانت رائعة مستحسنة فى كلام ، وكانت قبيحة نافرة فى كلام آخر حيث يقول : (الألفاظ تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، لا من حيث هى كلمة مفردة

---

(٨٩) الجامع الكبير ص ٦٥ وانظر المثل ص ١١٤ ويضرب لذلك مثلا بالعقد ٠

وأن الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظة ، مما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخـر كلفظة الأخدع فى بيت الحماسـة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ∴ وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحترى :

وانى وان بلغتنى شـرف الغنى ∴ وأعتقت من رق المطامع أخدعى

فان لها فى هذين المكانين مالا يخفى من الحسن ثم انك تتأملها فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أخـدعيك فقـد ∴ أضججت هذا الانام من خرقك

فتجـد لها من الثقـل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ، ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة) (٩٠).

وكذا لفظة شيء فى قول عمر بن أبى ربيعة أو أبى حية الذى يقـول :

اذا ما تقاضى المـرء يوم وليلة ∴ تقاضيـاه شيء لايمل التقاضيا

بخلاف قول المتنبى :

لو الفلك الـدوار أبغضـت سـعيه ∴ لعوقـه شيء عـن الـدوران

---

(٩٠) دلائل الاعجاز ص ٤٦ ، ص ٤٧ .

وهذا نفسه ، ماعناه ابن الأثير ، بل انني أراه في كثير من جوانب عرضه للموضوع يتوكأ على الجرجاني ، فيأتي بكلامه هو نفسه ، ويستشهد بأبياته ، فبعد أن رأى مثل الجرجاني أن اللفظة تروق وتحسن في مكان وتستكره وتثقل هي نفسها في مكان آخر ، وضرب لذلك مثلا بلفظة الأخدع في بيت الحماسة والأخرى في بيت ابي تمام سالف الذكر ، نراه يعقب على ذلك بقوله : (ألا ترى أنه قد وجد لهذه اللفظة ببيت أبي تمام من الثقل على النفس والكراهة أضعاف ما وجد لها في بيت الحماسة من الروح والخفة والايناس والبهجة) (٩١) ٠

ومهما يكن من أمر فانه قد عرض للعيوب المخلة بفصاحة الكلام كالمعاظلة والمنافرة ، والتعقيد ، والاعتراض والحشو ، وتكرار الحروف وما أشبه ذلك مما سنعرض له بالتفصيل ٠

المعاظلة : مأخوذة من قولهم تعاظلت الجرادتان ، اذا ركبت احداهما الأخرى ، واستعيرت للكلام المركب ، لعلاقة المشابهة بين تراكب الجرادتين ، وتراكب الكلام ، فسمى الكلام المتراكب بذلك على سبيل الاستعارة سواء كان التراكب في اللفظ ، أو في المعنى ، وقد قسمها الى معاظلة لفظية ، وأخرى معنوية (٩٢) ٠

أولا : المعاظلة اللفظية : ويقسم هذا النوع من المعاظلة الى خمسة أقسام :

---

(٩١) الجامع الكبير ص ٦٧ ٠

(٩٢) المثل السائر جـ١ ص ٢٩٢ ت محيي الدين عبد الحميد ٠

(أ) ما يتصل بحروف الجر ، نحو من ، الى ، عن على ، فاذا سبكت هذه الحروف مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما ثقـل ، بخلاف ما تسبك مع ألفاظ تثقل منهما ، فالأول كقول قطرى بن الفجـاءة :

ولقـد أرانى للرمـاح دريئـة .·. مـن عن يمينى مـرة وأمـامى

فلم يثقل بهما ، بخلاف قول أبى تمام :

الى خالد راحت بنا أرحبيـة .·. مـرافقها من عـن كراكرها نكب

فانهما عندما أضيفتا الى لفظة الكراكر ثقلت منهما .

وهذه الحروف أيضا متفاوتة فى الثقل ، فان منها ما هو أشد ثقلا من هذا وهو قول المتنبى :

وتسـعدنى فى غمـرة بعد غمرة .·. سـبوح لها منها عليها شواهد

ويعلق ابن الأثير على هذا البيت قائلا (قوله لها منها عليها من الثقيل الثقيل الثقيل) (٩٣) .

(ب) تكرير الحروف ، وليس المقصود من ذلك تكرير حروف اللفظة الوحدة فقط ، بل تكرير حرف أو حرفين فى كل لفظة من ألفاظ الكلام المركب سواء أكان منثورا أم منظوما فيثقل حينئذ النطق به ، ويمثل لذلك بالبيت المشهور المعروف فى ذلك وهو :

وقبر حرب بمـكان قفر .·. وليس قرب قبر حرب قبر

---

(٩٣) المثل السائر جـ١ ص ٢٩٥ .

ويعلق عليه بقـوله • (فهـذه القافات والراءات كأنهـا في تتابعها سلسلة ولاخفاء بما على الناطق بها من الكلفـة) (٩٤)•

ويورد أيضا قول الحريرى فى مقاماته :

وازور من كان له زائرا ∴ وعاف عاف العرف عرفانه

فكرر فى الشطر الثانى من البيت •

وكما يقع التكرير فى الشعر يقع أيضا فى النثر ، من ذلك ما حكاه ابن الأثير عن بعض الوعاظ أنه أورد فى كـلامه :جنى جنات وجنات الحبيب ، فصاح رجل كان بالمجلس وتغاشى فسأله الذى كان الى جانبه عما حدث له فقال سمعت جيما فى جيم ، فى جيم فصحت فيعلق عليه ابن الأثير قائلا (وهذا من أقبح عيوب الألفاظ) (٩٥) •

(جـ) أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا ، فتثقل فى الاستعمال ولو عطف المتكلم بينها بحروف العطف لزال هذا الثقـل :

فنجد هذه المعاظلة فى قول القاضى الأرجانى فى وصف شمعة تحترق :

بالنـار فرقت الحـوادث بيننا ∴ وبهـا نذرت أعود أقتل روحى

---

(٩٤) الجامع الكبير ص ٢٧٣ وعبارة المثل السائر : ولاخفاء بما فى ذلك من الثقل المثل السائر جا ص ٢٩٦ ت محيى الدين •
(٩٥) المثل جا ص ٢٩٧ ت محيى الدين •

فأنى بالصيغ نذرت أعود أقتل متتابعة ، ومثله قول المتنبى :

قل أنل اقطع احمل عل سل عــد .·. زد هش بش ادن سر صــل

فكرر أيضا صيغة الفعل كأنه قال افعل ، افعل ••• فلو عطف لكان أفضل درءا للعيب مثل قول عبد السلام بن رغبان :

فسد الناس فاطلب الرزق بالسيـ .·. ـف والانمت شديد الهــزال
احل وامرر وضر وانفــع ولن واخشـ .·. ـن وابرز ثم انتدب للمعالى

فالعطف بالواو زال تعاظلها ، وعليه جاء قوله تعالى (•• فاقتلوا المشتركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد) • وعلى حد تعبير ابن الأثير (لو كان معاظلة لما ورد فى القرآن الكريم مثله) (٩٦) •

(د) تتابع الاضافات الكثيرة : وهو أن يتوالى اكثر من مضاف ومضاف اليه فى الكلام ، وكلما زادت الاضافة كلما زاد الكلام قبحا وثقلا ، فالاول كقولنا : سرج فرس غلام زيد ، والثانى مثل : لبد سرج فرس غلام زيد ، وعلى هذا المنوال ورد قــول الشاعر ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى .·. فانت بمرأى من سعادومسمع(٩٧)

---

(٩٦) المثل السائر جا ص ٣٠١ ت محيى الدين •
(٩٧) المثل السائر جا ص ٣٠١ •

(هـ) تعدد الصفات : كقول أبى تمام فى وصف جمل :

سأخرق الخرق بابن خرقاء كـــالـ ∴ ـهيف اذا ما استحم من نجده
مقـــابل فى الجديل صلب القـــرا ∴ لو حـــك من عجبه الى كتده
تامـــكه نهـــده مداخـــله ∴ ملمومـــة محزئله أجده

ويعلق على هذا البيت ابن الأثير بقوله (فالبيت الثالث من المعاظلة التى قلع الأسنان دون ايرادها) (٩٨) .

ويخلص من هذه الابيات ومثيلاتها ليخرج بنتيجة قطعية وهى أن المعاظلة اللفظية توجد فى شعر أبى الطيب المتنبى كثيرا ، بخلاف المعاظلة المعنوية فانها كثيرا ما تقع فى شعر الفرزدق (٩٩) .

ثانيا المعـــاظلة المعنـــوية

وبعد أن فرغ من الكلام على المعاظلة اللفظية بأقســامها ، تناول المعاظلة المعنوية ، ويراها بأنها تداخل معانى الكلام بتقديم ما كان يجب تأخيره ، وتأخير ما كان يجب تقديمه وما أشبه ذلك(١٠٠)، ويقسمها الى أقسام كما فعل فى المعاظلة اللفظية فيقول : عن المعاظلة المعنوية (وأما المعنوى فهذا بابه وموضعه ، وهو كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول وغير

---

(٩٨) المثل السائر جـ١ ص ٣٠٢ .
(٩٩) المثل السائر جـ١ ص ٣٠٤ .
(١٠٠) الجامع الكبير ص ٢٣١ .

ذلك مما يرد بيانه) (١٠١) • والمعاظلة بهذه الصورة تجعل الكلام غير مفهوم أو غير واضح الدلالة وتبعا للتقديم والتأخير ، أو الفصل بين العامل ومعموله تتفاوت درجات المعاظلة فى القبح لأن الكلام اذا اختلت معانيه صعبت مراميه ومقاصده ، ولن يفهم الا اذا أعيد ترتيبه وفق معانيه حتى يفهم المقصود منه فمثال :

تقديم الصفة وما يتعلق بها على الموصوف كقول الشاعر :

فقد والشك بين لى عنـــــاء .·. بوشك فراقهم صرد يصيح

فقدم بوشك فراقهم وهو معمول يصيح التى هى صفة لصرد وكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها ، فانه لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها •

ومما بلغ درجة الغاية فى القبح قول الشاعر :

فاصبحت بعد خط بهجتهـــا .·. كأن قفرا رسومها قلمـــا

فتقدير البيت : فاصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلمـا خط رسومها • وعلى هذا النحو نراه قد قدم خبر كأن عليها ، وهو خط ، وفصل بين أصبح وخبرها وهو قفرا بكأن مما أخل بالمعنى وجعله مضطربا وعلى قول ابن الأثير (والمعاظلة فى هذا الباب تتفاوت درجاتها فى القبح وهذا البيت المشار اليه من أقبحها لأن معانيه قد تداخلت ، وركب بعضها بعضا) (١٠٢) •

---

(١٠١) المثل السائر جـ٢ ص ٤٤ •

(١٠٢) المثل السائر جـ ٢ ص٤٥ وانظر الجامع الكبير ص ١١٣ وما بعدها

ومنه قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا مملـــــكا .·. أبو أمه حى أبوه يقـــاربه

وهذا من أشد أنواع التعاظل المعنوى الذى يجعل الشــعر مشوها لأنه جاء أولا متكلفا ، وثانيا أن الهدف المراد من الــكلام وهو الايضاح والابانة وافهام المعنى انعدمت فى مثل هذه الأبيات فاذا ذهب المقصود من الكلام ذهب المراد به وسقط تبعا لذلك الكلام ، وأصبح عاريا عن الفصاحة ، لأن هذا الكلام ضدها (١٠٣) ٠

المنـــــــــافرة

وهى من الأشياء المخلة بفصاحة الكلام المركب ، وحدها : أن تذكر ألفاظ يكون غيرها مما فى معناها أولى بالذكر منها (١٠٤) ٠ وبهذا تفترق المنافرة عن المعاظلة وكما سبق أن أوضحنا ، فان المعاظلة هى التراكب والتداخل اما فى الألفاظ ، واما فى المعــانى ، بخلاف المنافرة التى لا تراكب فيها بل كما سبق تعريفها هو ايراد ألفاظ غير لائقة بمكانها التى وضعت فيه ويوجد غيرها أولى منها بالذكر فى هذا المقام لأنه سيكون أوضح وأبين على المعنى المراد ٠

وأثناء حديثنا عن فصاحة اللفظة المفردة تناولنا المنافرة فى اللفظة المفردة ، هناك وأوردنا أمثلتها ، والآن سوف نتناول المنافرة فى الكلام المركب فمن أمثلتها فى الكــلام المركب قول أبى الطيب

---

(١٠٣) المثل السائر جـ٢ ص ٤٦ وانظر أيضا الجامع الكبير ص ٢٣١ ٠

(١٠٤) المثل السائر جـ١ ص ٣٠٤ ٠

المتنبى :

لا خلق أكرم منك الا عـــارف .·. بكَ راء نفسكَ لم يقل لكَ هاتها

فان عجز هذا البيت نافر عن موضعه (١٠٥) •

وبهذا ينهى ابن الأثير كلامه عن الفصاحة ، وكنا نود لو أنه أسهب القول فى شروط فصاحة الكلام المركب ، مثلما أسهب فى شروط فصاحة اللفظة المفردة ، فقد رأينا فى الصفحات السابقة شدة احتفائه بالتركيب الذى يعطيه أهمية كبيرة ومما يحمد له فى هذا المضمار أنه انتهى الى أن التركيب فى الكلام ، اما أن يعلو به ، أو يهبط ، وضرب لذلك مثلا باللؤلؤ والعقد (١٠٦) • غير أنه اكتفى بذلك ولم يكمل ، بل قسم الكلام المركب الى ألوان بلاغية متعددة ثم درسه من خلال هذه الألوان كما سنعرض فيما بعد •

---

(١٠٥) المثل السائر جا ص ٣٠٩ •
(١٠٦) المثل السائر جا ص ١١٤ •

دراســـــات ابن الأثـــير

لفنــــــون البـــلاغة

أولا

عـــــلم المعــــانى

تمهـــــيد :

بعد أن عرض ابن الأثير لقضايا الفصاحة والبلاغة نثر فى كتبه بعض الالوان البلاغية للعلوم الثلاثة أعنى المعانى والبيـان والبديع ، فناقش وحلل ومثل لبعضها بعد أن سبر أغـوارها ، فاستخرج دررها ، وبعضها مسها برفق كأنه يريد أن يعلم كاتب الانشاء بالالوان البلاغية التى يجب عليه أن يعرفها لكى يكسب كلامه رونقا وبهاء ، فعرض لما يهم الكاتب ، وان كان فى عرضه هذا قد اضطرب وخلط أحيانا ، وقد سيطرت عليه شهوة المعارضـــة والمجادلة ، من أجل المعارضة والمجادلة فقط مما أوقعه فى الخطأ كثيرا مثلما خلط بين التشبيه مضمر الأداة والاستعارة أو بين الوان الاستعارة والكناية ، وأيضا أدت به معارضته فى المجاز المرسل لابن جنى ، والغزالى الى خلط غير مقبول من هذا العالم النحرير ، وأيضا هذه التقسيمات العديدة التى جعلها للكناية لم تخرج فى مجملها عما ذهب اليه علماء البلاغة من كناية عن صفة أو موصوف أو نسبة ، ولكن شهوة المعارضة من ناحية ومحاولة الزهو من ناحية اخرى أودت به الى هذا المنعطف الحاد .

لكن ليس معنى هذا أن الرجل كان متخبطا ، بل كان ذا قدم راسخة فى علوم البلاغة وتلك التفريقات التى أتى بها ، وهذه المناقشات التى تدل على ذوق أدبى رائع خاصة ما وجدناه فى المقابلة والطباق والجناس ، وأيضا التفرقة الدقيقة بين الكناية والتعريض ، ومناقشة مسائل الايجاز والاطناب والمساواة على الصورة التى أوردها لتدل بصدق على ترف ذوقى بلاغى كبير لدى

الرجل وكما يقال لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة فيكفيه أن تعد معايبه دليلا على فضله وثاقب فكره .

ومهما يكن من أمر فانه عرض لبعض علوم البلاغة الثلاثة . ولذا سوف نتناول ما أورده بالدراسة ، وأول نبدأ به هو علم المعانى والسؤال الذى يطرح نفسه الآن وهو كيف عرض ابن الأثير لعلم المعانى ؟ والاجابة على السؤال تكون بدراسة مواد علم المعانى عنده

علـــم المعـــانى

معلوم من دراسة البلاغة بالضرورة أن علم المعانى مجموعة من القواعد التى توجد فى الـــكلام ، وتكون مشتملة على خصوصيات يقتضيها الحال ويفرضها المقام كى يوصف صاحبه بالبلاغة والفصاحة فهو يضيف ظلالا على اسلوبه بهذه الخصوصيات تميزه عمن فقدها .

وتنحصر مباحث علم المعانى فى ثمانية أبواب :

١ ـــ أحوال الاسناد الخبرى .

٢ ـــ أحوال المسند اليه .

٣ ـــ أحوال المسند .

٤ ـــ أحوال متعلقات الفعل .

٥ ـــ القصر .

٦ ـــ الانشـــاء .

٧ ـــ الفصل والوصل .

٨ ـ الايجاز والاطناب والمساواة (١) .

هذه هي مباحث علم المعاني كما وردت في الايضاح لكن ابن الأثير لم يتناولها كلها وانما تناول بعضها ودرس وشرح ومثل ، وأحيانا تكون الدراسة عميقة وأحيانا أخرى تكون مجرد تعريف بالشيء والانتقال الى غيره كما سوف نرى .

أولا : الاسلوب الخبرى : لم يحدد ابن الأثير هذا العنوان الذى وضعناه لدراسة هذا الاسلوب ، وانما ذكره تحت عناوين متفرقة ، ولم يفصل حقيقة الاسناد وانما درسة تحت عنوان : (الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما) (٢) هذا كلامه فى كتابه المثل السائر ، أما كلامه فى الجامع فقد قال (الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية الموكدة بأن المشددة،وتفضيل أحدهما على الاخرى) (٣) وان كانت دراسته الاولى فى المثل أو فى من الثانية الموجزة .

والملاحظ على هذه الدراسة أنه لم يبسط القول فى ركنى الاسناد ، أى المسند أو المسند اليه ، وانما تناول مباشرة الجملة ، وأيهما آكد وأبلغ ، وان ذكر بعض أدوات التوكيد ومثل لذلك . وهذا ما يعرف بأضرب الخبر تبعا لحالة السامع من التردد والشك أو التنفى أو خلو الذهن وما شابه ذلك ، وكما نعلم فان الجملة

---

(١) الايضاح ص ١٠ بتصرف .
(٢) المثل السائر جـ٢ ص ٥٤ .
(٣) الجامع الكبير ص ٢٢٤ .

الفعلية هى التى تتكون من الفعل والفاعل أوما ناب مناب الفاعل وتوضع هذه الجملة لكى تفيد التجدد والحدوث فى وقت محدد مع الاختصار اذا كان الفعل ماضيا نحو اشرقت الشمس وذهب الليل ، أما اذ كان الفعل مضارعا أفادت أيضا الاستمرار والتجدد شيئا فشيئا وفق سياق الكلام بمعونة القرينة مثل : يعيش البخلاء فى الدنيا عيشة الفقراء ، ويحاسبون فى الآخرة حساب الأغنياء . والجملة الاسمية هى المكونة من مبتدأ وخبر أى بثبوت المسند للمسند اليه دون اعتبار التجدد والاستمرار ، اذا لم يكن فى خبرها فعل مضارع ، مثل «محمد كريم» وكان خبرها مفردا ، أما اذاكان فى خبرها فعل مضارع فانها تكون كالجملة الفعلية فى افادة التجدد والحدوث فى وقت محدد مثل « محمد يسعى لخير وطنه » (٤) .

ومعروف أن الخبر اما أن يلقيه المتكلم لسامع أو مخاطب خالى الذهن تماما مما يلقى اليه ، وهذه حالة لابد أن يراعيها المتكلم فى كلامه ، واما أن يكون السامع مترددا فى قبول ما يلقى اليه ، فيجب على المتكلم أيضا مراعاة حالته تلك ، واما أن يكون السامع منكرا للخبر الذى يلقى عليه ، والانكار يختلف من مستمع لآخر قوة وضعفا وحالة السامع هذه تفرض على المتكلم اعتبارات لابد أن يراعيها فى كلامه ، فأحيانا يخرج كلامه خاليا من التوكيد ، وأحيانا يتطلب مؤكدا أو أكثر وفق حالة المخاطب ، ولذلك قسم

---

(٤) انظر دلائل الاعجاز ص ١٢٢ .

علماء البلاغة الخبر الى ثلاثة أنواع ابتدائى ، طلبى ، انكارى ، حسب ما به من مؤكدات ، يفرضها المقام •

والمؤكدات كثيرة نذكر منها ان ، واللام ، واسمية الجملة ، والقسم ، وقد وأدوات التنبيه ، ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة ، وضمير الفصل ، وأدوات الحصر ، لكنه تنبه الى أن ثمة فرقا بين كلام وكلام أوبين خطاب وخطاب ، وما يرمى اليه المتكلم ، وما تكون عليه حالة السامع أو السامعين ، فيترك المتكلم كلاما الى كلام آخر لقصد يقصده ، وغرض يهدف اليه وهذا ما عناه ابن الآثير من قوله : (وانما يعدل عن أحد الخطابين الى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة) (٥) وهذا العدول مؤسس على ما بالجملة من التوكيد الذى يعطى الكلام زيادة وقوة فى المعنى لم تكن لخالى التوكيد •

فعند ما تقول قام زيد ، فان هذه الجملة لم تفد اكثر من الاخبار عن قيام زيد وذلك عمن كان ذهنه خاليا من هذا الحدوث أو لم يعرفه أصلا ، ولذلك رأينا الجملة من المسند والمسند اليه فقط ، ولا شىء بعد ذلك ، ومثل هذا النوع من الأخبار هو ما يسميه علماء البلاغة بالخبر الابتدائى •

أما قلنا : اذ زيدا قائم ، فنكون أخبرنا أيضا عن قيام زيد ، لكن بصورة تزيد على الأولى أتت من دخول ان المشددة التى تفيد الاثبات لما يأتى بعدها من الكلام ، فدخول ان المؤكدة على هذه الجملة آفادت التوكيد والمبالغة لأن حالة السامع تقتضى ذلك ، لانه ربما يكون مترددا فى قبول هذا الحكم ، وهو ما يعرف بالخبر الطلبى •

---

(٥) المثل السائر جـ٢ ص ٥٤ •

أما اذا أخبرنا عن قيام زيد بقولنا : ان زيدا لقائم ، فنكون قد أكدنا الجملة بأكثر من مؤكد وهو ان ولام الابتداء الواقعة فى خبرها ، زاد توكيد الكلام لأن السامع منكر للقيام ، ومن ثم تتطلب المؤكدات الموجودة فيه ، وهذا هو ثالث الاقسام التى ذكرها ابن الاثير المعروف عند البلاغيين بالخبر الانكارى لأن المستمع منكر للحدث فتطلب الكلام أكثر من مؤكد حتى يزيل ما بنفس السامع من انكار ويتمكن لديه الحكم على زيد بالقيام ولذا يقول ابن الاثير عن النوع الثالث هذا (واذا زيد فى خبرها — اى ان — اللام فقيل ان زيدا لقائم كان ذلك اكثر توكيدا فى الاخبار بقيامه) ويقول أيضا عن لام التوكيد (ومما يجرى هذا المجرى ورود لام التوكيد فى الكلام، ولا يجىء ذلك الا لضرب من المبالغة ، وفائدته أنه اذا عبر عن أمر يعز وجوده أوفعل يكثر وقوعه جىء باللام تحقيقا لذلك) (٦) •

اذا فان مجىء المؤكدات فى الكلام تزيد الكلام قوة وتوكيدا ومبالغة ، ولذا وجدنا ابن الاثير بعد أن ضرب الامثلة الثلاثة التى شرحناها آنفا ووضحنا ما فيها ، بعد ذلك عرض لبعض أدوات التوكيد فى جمل ، ومن دراستنا لاساليب وأدوات التوكيد عنده وجدناه على بصيرة بما يستتر خلف هذه الأدوات ، فهو دائما ينص على أن مجىء لام التأكيد لزيادة التحقيق والتقرير والايجاد ، وذلك مثل قوله تعالى : (اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا) فلام

---

(٦) المثل السائر ج٢ ، ص ٥٥ •

الابتداء دخلت على يوسف للتحقيق والتقرير (فاللام فى «ليوسف» لام الابتداء ، وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها : أى أن زيادة حبه اياهما أمر ثابت لامراء غيه) (٧) • وأحيانا تستخدم هذه اللام مع نونى التوكيد الخفيفة أو الثقيلة ، واكثر ذلك الاستعمال فى جواب القسم فى حالة الايجاب دون النفى ، فاذا كان المستخدم نون التوكيد الثقيلة دون الخفيفة زادت فى تأكيد الكلام كقــول القائل والله لأقوم أو والله لأقومنْ ، والله لأقومنّ (وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب فان استعملت فى موضع فانما يقصد بها التأكيد) (٨) •

فهذه أضرب الخبر ، وهذه بعض مؤكداته وكلها يتضح منها فهم ابن الأثير لهذا النوع من الأساليب الخبرية ، وهو فهم كما رأينا يدل على ذوق أدبى رفيع يحلل ويعلل ويتذوق قبل وبعد أن يحلل ، وهذه الأمثلة على ندرتها أوردها الرجل من أجل المقايسة والتمثيل، لا الحصر ، ولذلك وجدناه فى صدر هذا الباب يقول : (ولم أذكر هذا الموضع لان يجرى الامر فيه على ما يجرى مجراه فقط ، بل لأن يقاس عليه مواضع أخرى مما تماثله وتشابهه ، ولو كان شبها بعيدا) (٩) •

---

(٧) المثل السائر جـ٢ ص ٥٧ •
(٨) المثل السائر جـ٢ ص ٥٨ •
(٩) المثل السائر جـ٢ ص ٥٤ •

ثانيا : الاسـلوب الانشـائى

وكما تناول الاسلوب الخبرى ، فانه بنفس الطريقة تناول شيئامن الاسلوب الانشائى وذلك أثناء كلامه عن التقديم والتأخير ، فتناول أداة واحدة من أدوات الاستفهام وهى الهمزة ، وبين الغرض من استخداماتها ، عند ما تدخل على الأسم ، وعندما تدخل على الفعل ، ولكنه لم يشف الغلة وعلى كل فانه قال عنه (واعلم أن من التقديم والتأخير بابا عجيب المأخذ ، كثير الفائدة ، وافر اللطائف ، وهو باب الاستفهام ، فان حاجة مؤلف الكلام اليه ماسة ، ولنورد فى كتابنا هذا ما يروقك) (١٠) ٠

والاستفهام كما هو معروف طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل وأدواته : الهزة ، وهل وما ، وفى ، وأين وكيف ، وأيان وأنى ، وكم ، وأى ٠ فمنها ما يكون تارة للتصور ، وأخرى للتصديق، وهو الهمزة ٠

ومنها ما يكون للتصديق فقط وهو هل ، ، ومنها ما يكون للتصور وهو باقى الادوات (١١) فالاستفهام عن التصور يكون فى حـالة التردد فى تعيين أحد أمرين تذكر بينهما أم المتصلة المعادلة ، وقد تحذف هى وما بعدها اكتفاء بما قبلها ويلى الهمزة فى هذه الحالة المستفهم عنه سواء أكان مسند اليه أم مسندا أم مفعولا أم حالا

---

(١٠) الجامع الكبير ص ١١٤ ٠

(١١) الايضاح ص ٧٨ وما بعدها وانظر دلائل الاعجاز ص ٨٤ ٠

أم ظرفا فنقول عن واحد منها : أمحمد مسافر أم زيد ؟ وفى حالة الاستغناء عن المعادل نقول أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم ؟ أما التصديق فهو ادراك وقوع نسبة تامة بين المسند والمسند اليه أوعدم وقوعها ومن ثم يكون المتكلم خالىالذهن مما استفهم عنه، فيصدقالجواب ،ويكثر التصديق فىالجمل الفعلية مثل أنجحمحمد؟ وفيها تكون الاجابة ثبوتا بنعم ونفيا بلا ويقل التصديق فى الجمل الاسمية نحو : أمحمد ناجح ؟

وقد قصرنا الكلام على الهمزة دون غيرها من أدوات الاستفهام لان ابن الأثير تناول الهمزة فقط ، فأردنا أن نمهد للكلام بهذهالمقدمة ليتضح بالمقارنة كيف عرض ابن الأثير لهذا الاسلوب .

نقول ان ابن الاثير تكلم عن الهمزة عند مايأتى بعدها الفعل ، وعندما يأتى بعدها الفاعل ، وهى حالة التصديق التى تكلمنا عنها آنفا ، لكن ينص على أن الشك دائما يكون فيما بعدها ، فاذا كان فعلا كان الشك فى الفعل ، واذا كان اسما كان الشك فى الفاعل وحده ، لكن اذا كان الشك فى الفعل كان الغرض من الاستفهام العلم بوجوده لاغير وذلك مثل « أفعلت كذا وكذا » ومن ثم عبر عن تلك الحالة بكثرة التصديق فى الجمل الفعلية وتكون الاجابة ثبوتا بنعم ونفيا بلا وهذا ما عناه ابن الأثير عندما ماقال (واعلم أنك اذا بدأت فىالاستفهام بالفعل فقلتأفعلتكذا وكذا كان الشكفى الفعل ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده لاغير) (١٢) ولذا فان الاجابة تكون بنعم ، أو لا على التفصيل السابق .

---

(١٢) الجامع الكبير ص ١١٤ .

واذا قلت « أأنت فعلت ذاك » وقدمت الاسم على الفعل كان الشك فى الفاعل دون الفعل ، لان الفعل قد حدث والحقيقة ماثلة أمام المستفهم ، لكنه يشك فيمن أحدث هذا الفعل ، ولذلك فان معنى الهمزة فى مثل هذه المواقف هو التقرير ، ومن هنا يقل التصديق فى مثل هذه الجمل •

وعليه ورد قوله تعالى حكاية عن قوم سيدنا ابراهيم (أأنت فعلت هذا بألهتنا ياابراهيم) فانهم والحقيقة ماثلة أمامهم لم يستفهموا عنها أى عن الحدث وهو فعل تحطيم الاصنام ، بل أرادوا أن يتأكدوا ممن فعل هذا الفعل ومن هنا كانت الاجابة عليهم (بل فعله كبيرهم هذا) ، فلو كان الشك فى الفعل لكانت الاجابة فعلت أو لم أفعل) •

وبجانب الشك الموجود فى الهمزة يوجد الانكار أيضا ، خاصة اذا تقدم الفعل وكان ماضيا وأنه لا يكون من أصله كقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبينين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما) أو كقوله تعالى (أأصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون) •

فاذا كان الفعل مضارعا فانه لا يخلو من ارادة الحال أو الاستقبال ، فاذا أراد المتكلم الحال كان المعنى شبيها بالماضى واذا اريد به الاستقبال كان المعنى اذا بدأت بالفعل أنك تعمد الى انكار الفعل نفسه وكأنك تريد أنه لا يحدث ولا ينبغى أن يحدث وقد مثل ابن الاثير للأول بقول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى .·. ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وللثانى بقولك لرجل يركب الخطر (أتخرج فى هذا الوقت ؟ أتغرر بنفسك ؟)

وقد يلى همزة الانكار هذه اسم فيكون الكلام موجها للمذكور بعدها بهدف انكار حدوث هذا الفعل منه لضعته وقلة عزمه ، أو لسمو قدره وعلو همته ، فالأول كقولك (أأنت تمنعنى ، أأنت تأخذ على يدى) أى انك أعجز من ذلك ، والثانى كقولك (أهو يسأل فلانا ؟ هو أرفع قدرا من ذلك) وعلى كل فان المقصود من مثل هذا الاستفهام أنه تنبيه للسامع حتى يرجع الى نفسه فيخجل ويرتدع (١٣) .

وهذا هو الضرب الأول وهو منقول عن الامام عبد القاهر الجرجانى بهذه التقسيمات ، اذا أنه بعد ما فرغ من ذلك قال نفس الألفاظ والعبارات التى أوردها الجرجانى فى الدلائل (١٤) أما الضرب الثانى فكما أورده الجرجانى أورده هو ، (١٥) . وهذا الضرب عنده هو أن يكون بفعل لفاعل موجود ، فان تقديم الاسم يقتضى تشبيها بما اقتضاه فى الفعل الماضى من الاقرار بأنه الفاعل، أو الانكار أن يكون هو الفاعل فالأول كقوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، والثانى كقوله تعالى (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم) (١٦) .

وبهذا ينهى كلامه عن الاستفهام ولا يزيد عما قدمنا ، وبه أيضا ينتهى كلامنا عن الاسلوب الانشائى ، ونتبع هذا الكلام عن أحوال الاسناد .

---

(١٣) الجامع الكبير ص ١١٦ .
(١٤) دلائل الاعجاز ص ٨٥ : ص ٩٢ .
(١٥) انظر حاشية دلائل الاعجاز ص ٩٢ رقم ١ .
(١٦) الجامع الكبير ص ١١٧ .

ثالثا : أحـــــــوال الاســـــــناد

الاسناد الخبرى هو ان تضم كلمة أوما يقوم مقامها الى كلمة أخرى ، أوما يحل محلها بصورة تفيد ثبوت الحكم أو نفيه وهناك عدة صور لهذا الاسناد ، لكن الذىيهمنا هو أركان الجملة الخبرية أى المسند ، والمسند اليه ، فالمسند اليه هو مايعرف نحويا بالفاعل أو نائبه أو مبتدأ له خبر أو اسم كان أو أن ، أو المفعول الاول لظن وأخواتها •

أما المسند فهو الخـــبر ، والفعـــل ، والمفعول الثانى لظن وأخواتها ، ولابد أن يكون هناك رابط يربط المسند بالمسند اليه ، وهذا الرابط معروف لدى البلاغيين بالنسبة الكلامية •

ولكل من المسند اليه والمسند أحوال كثيرة كالذكر والحذف ، والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير •

وكالمسند اليه والمسند هناك متعلقات الفعل كالمفعول ، والحال والتمييز والاستثناء والنواسخ الثلاثة ، والتوابع الأربعة وغير ذلك، تعرض لها أحوال أيضا ، كتلك التى تعرض للمسند اليه والمسند •

غير ان ابن الاثير لم يتعرض لكل هذه الأمور ، وانما عرض لبعضها ، وكان فى بعض جوانب هذا العرض مائلا للايجاز ، وليته أسهب لانه يتمتع بذوق أدبى بصير فيما يعالج أو يعرض من أمور بلاغية ، وان كان أحيانا يتوكأ على الامام الجرجانى خاصة فى كتابه دلائل الاعجاز ، ولكن يكفيه ما قدم ، وهو ما سوف نعرض له بالدرس الآن •

١ — التقديم والتأخير •

عرض ابن الاثير لبعض صور التقديم والتأخير (١٧) ويقسمه الى قسمين (الاول يختص بدلالة الالفاظ على المعانى ، ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى ، والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو أخر لما تغير المعنى)(١٨) فتناول تقديم الخبر على المبتدأ ، والظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل ، ويرجع كل هذه الأحوال الى :

١ — الاختصاص •

٢ — مراعاة النظم •

وقد يكون التأخير كما يرى هو الأصوب الأبلغ (يكون التأخير هو الأولى والابلغ اما لفائدة تقتضى ذلك ، واما خوفا من فساد المعنى واختلاله) (١٩) • اذن تكلم عن التقديم عند ما يكون التقديم أفضل من التأخير ، كما تكلم عن التأخير عند ما يكون أفضل من التقديم ومن ثم قسمه الى :

القسم الذى يكون فيه التقديم هو الابلغ ويضرب لذلك أمثلة بتقديم ما ذكرنا ويكون للاختصاص ، فتقديم المفعول على الفعل مثل زيدا ضربت ففى تقديم المفعول « زيدا » على فعله أفاد تخصيصه بالضرب دون غيره فلو قدمنا الفعل وقلنا ضربت زيدا ، كان لمتكلم مختارا فى أن يوقع الفعل على زيد أو على غيره ، فيقول

---

(١٧) المثل السائر ج٢ ص ٣٨ وانظر الجامع الكبير ص ١٠٨ •

(١٨) المثل السائر ج٢ ص ٣٨ •

(١٩) الجامع ص ١٠٩ •

ضربت محمدا ، أو عليا ، فاذا قدم المفعول لزم الاختصاص • ومثله تقديم الخبر على المبتدأ وضرب مثلا لذلك وهو زيد قائم فزيد مبتدأ وقائم خبر ، فلو قدم لقال قائم زيد فقدم الخبر على المبتدأ • وعلى نفس المنوال تكلم عن الجار والمجرور والحال والاستثناء وأرجع هذا التقديم للاختصاص وهو القسم الاول فى كلامه •

أما ما يكون تقديمه مراعاة لنظم الكلام فهو مثل قوله تعالى : « اياك نعبد واياك نستعين » (وذلك لمراعاة حسن النظم السجعى الذى هو على حرف النون ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن) (٢٠) •ومثله فى تقديم المفعول قوله تعالى« خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » (فان تقديم الجحيم على التصلية ، وان كان فيه تقديم المفعول على الفعل الا أنه لم يكن ههنا للاختصاص ، وانما هو للفضيلة السجيعة) (٢١) •

أما فى تقديم خبر المبتدأ عليه فكقوله تعالى « وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله » فهذا أفضل لمراعاة النظم مما لو قال وظنوا أن حصونهم ما نعتهم من الله ، وكذلك تقديم الظرف أو الجار والمجرور ، وينتهى الى ان القرآن الكريم قد قدم الظروف كثيرا وأنها لم تقدم للاختصاص (وانما قدمت لمراعاة الحسن فى نظم

---

(٢٠) المثل جـ٢ ص ٣٩ •
(٢١) المثل السائر جـ٢ ص ٤٠ •

الكلام) (٢٢) أما تأخيره فانه يقتضى النفى من غير تفضيل لان تقديمه يقتضى المنفى عنه ، فالأول كقوله تعالى (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه) والثـانى كقوله تعـالى (لافيها غـول ولاهم عنها ينزفون) (٢٣) .

الايجـاز والاطنـاب والمسـاواة

كلام المتكلم ينحصر فى صورة من ثـلاث صور بحيث يكون مقبولا مفيدا معنى ، فاما أن يكون هذا الكلام ، جاء التعبير فيه على قدر المعنى لا زيادة ولا نقصان أى أن الالفاظ مساوية للمعنى ، وأحيانا يزيد اللفظ على المعنى ، وهذه الزيادة اما أن تكون لفائدة فتكون محمودة ، وقد تكون على حساب المعنى فتكون مذمومـة اذ لا طائل منها فتكون حشوا وتطويلا ، وربما تكون الالفاظ قليلة ولكن المعنى الذى تحتها كثير .

والمتكلم حسب رسوخ قدمه فى مضـمار البلاغة يختار أية طريقة شاء لكى يعبر عما بنفسه فاما أن يكون كلامه موجزا ، وربما يكون مطنبا ، أوقد يكون بين بين ، كل هذا مع مراعاة المقام الذى سيق فيه الكلام ، فاذا عدل عن طريقة الى أخرى وكان المقام يفرض هذه أو تلك فعدل عما يستوجبه المقام كان غير بليغ ، فيجب أن يستخدم الاطناب ، أو الايجاز ، أو المسـاواة كل فى مكانه .

ومن ثم كان لاهل البلاغة باع كبير فى دراسة هذه الألوان

---

(٢٢) المثل السائر جا ص ٤٤ .
(٢٣) المثل السائر جا ص ٤٤ وقد عبر عن الجار والمجرور بالظرفية .

وفصلوا وشرحوا ووضحوا (٢٤) وجاء ابن الأثير فسار على الدرب، فعرف ومثل وشرح كما سوف نعرض •

أولا : الايجاز : يعرفه ابن الأثير بأنه دلالة اللفظ على المعنى من أقرب طرقه (٢٥) • أو دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة فى اللفظ على المعنى (٢٦) • وسواء كانت الدلالة عن غير زيادة أو من أقرب الطرق والالفاظ مع قلتها تحوى الكثير من المعانى شريطة أن تكون وافيه بالغرض المقصود مع الابانة والافصاح •

وقد قسمه ابن الأثير الى قسمين كبيرين ، وهى نفسها الاقسام التى قسمها علماء البلاغة الا أنه قسمها الى أقسام أخرى ، فالقسمان الكبيران هما :

(أ) ايجاز بالحذف ، وهو ما حذف بعض أجزائه لدلالة الكلام على المحذوف ويكون فيما زاد معناه على لفظه •

(ب) ايجاز بدون حذف وينقسم الى ضربين :

١ — ما ساوى لفظه معناه (٢٧) ويسمى التقدير •

٢ — والآخر مازاد معناه على لفظه وهو ما يعرف بايجاز القصر (٢٨) •

---

(٢٤) الايضاح ص ١٠٢ وما بعدها •
(٢٥) الجامع ص ١٢٤ •
(٢٦) المثل جـ٢ ص ٧٤ •
(٢٧) انظر الجامع ص ١٢ والمثل جـ٢ ص ٨١ وقارن بما جاء بدلائل الاعجاز ص ١٠٤ •
(٢٨) المثل السائر جـ٢ ص ٧٨ والجامع الكبير ص ١٢٤ •

ويعلق عليه بمقولة نقلهـا عن عبد القاهر فى كتابه دلائل الاعجاز ويثبتها فى كتابيه الجامع والمثل (*) •

وهى قوله (وذلك باب دقيق المسلك لطيف المأخذ •• •• •• •• •• وتدفعها حتى تنظر) (**) •

ولـكل أقسـام •

والذى عليه القزوينى فى الايضاح ان الايجاز اما ايجاز الحذف أو ايجاز القصر (٢٩) وتوارث كثير من البلاغيين فيما بعد هذا التقسيم، ولعل من يطالع كتبهم سوف يقف على حقيقة ماذهبنا اليه ، أمـا هذه التقسيمات فانها من صنع ابن الاثير نفسه ، ولذا فاننا سمعنا منه غير مرة قولته المشهورة « وهو شىء استخرجته ، ولم يكن لاحد فيه قول سابق » وهى مبثوثة فى كتبه ، غير انه فى هذا التقسيم يدل على ذوق أدبى يميل الى التحديد والاستنباط ، وهذا نتاج المدرسة الأدبية وذوقها •

الايجاز بالحذف :

وأسماه فى كتابه المفتاح بالاشارة ويعرفه بقوله : (وهـو اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة) ويضرب لذلك مثلا قول امرىء القيس :

فظل لنا يوم لذيذ بنعمـة ⁂ فقل فى مقيل نحسه متغيب (٣٠)

ويشترط أن يكون فى الكلام دليل على المحذوف وهذا كلام

(*) وهذا قريب من تعريف المساواة كما سنوضح •

(**) المثل السائر جـ٢ ص ٧٨ والجامع الكبير ص ١٢٤ •

(٢٩) الايضاح ص ١٠٥ •

(٣٠) المفتاح لمنشا ص ٣١١

وجيه منه ، وأحيانا يظهر هذا المحذوف عن طريق القواعد النحوية وليس ثمة حسن لهذا النوع ، أما الآخر فهو ما يظهر بالنظر الى تمام المعنى ويكون تبعا لذلك الحذف أولى فى حكم البلاغة (لانه متى ظهر صار الكلام الى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن) (٣١) •

والحذف قد يكون حذف جملة كما يكون حذف مفردات ، ويقسم حذف المفردات الى أربعة عشر ضربا • أما حذف الجمل فانه على قسمين :

(أ) حذف جمل مفيدة •

(ب) حذف الجمل غير المفيدة (٣٢) •

ويقسم بعد ذلك حذف الجمل هذا الى أربعة أضرب :

— **الضرب الأول : حذف السؤال المقدر وهو الاستئناف ويقسمه الى:**

١ — اعادة الاسماء والصفات ويكون أحيانا باعادة اسم من تقدم الحديث عنه أو باعادة صفته ، فالاول كقولك : أحسنت الى زيد حقيق بالاحسان والثانى وهو أفضل من الاول وأبلغ لما فيه من تخصيص وهو : « أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك » وذلك كقوله تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى

---

(٣١) المثل جـ٢ ص ٨١ •

(٣٢) وهذا ما عناه القزوينى بقوله فى الضرب الثانى (وهو ما يكون بحذف والمحذوف اما جزء جملة أو جملة ، أو اكثر من جملة ••) الايضاح ص ١٠٦ •

للمتقين .. .. .. اولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)

٢ — الاستئناف بغير اعادة الاسماء والصفات كقوله تعالي : (ومالى لاعبد الذى فطرنى واليه تجعون أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) فخرج مخرج الاستئناف لان ذلك من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه ، وكأن قائلا قال كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ما كان منه ما كان ؟ فقيل : قيل له ادخل الجنة ، ولم يقل : قيل له لان الهدف المقول لا المقول له مع كونه معلوما ، وأيضا (ياليت قومى يعلمون) مؤسس على تقدير سؤال سائل عما وجده .

— الضرب الثانى : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب :

١ — فالاول كقوله تعالى : (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر) فذكر سبب الوحى وهو طول الفترة بين سيدنا موسى ،وسيدنا محمد ﷺ ودل به على المسبب الذى هو الوحى وكأن تقدير الكلام : أننا أنشأنا بعد عهد الوحى الى موسى الى عهدك يامحمد قرونا كثيرة ، فطالت مدة انقطاع الوحى فاندرست العلوم ، لذا أرسلناك اليهم وعرفنك العلم بقصص موسى وما حدث له لتتخبر به قومك ، فالمحذوف اذا جملة مفيدة ولكنها اختصرت على عادة القرآن فى الاختصار .

وأما حذف الجمل غير المفيدة ما جاء فى قصة مريم (قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا

مقضيا) ففى قوله تعالى (ولنجعله آية للناس) تعليل معلله محذوف وتقدير الكلام وانما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس ، فذكر السبب الذى صدر الفعل من أجله وهو جعله آية للناس ، ودل على المسبب الذى هو الفعل

٢ — وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى — والله أعلم — اذا أردت قراءة القرآن فاكتف بالمسبب الذى هو القراءة عن السبب الذى هو الارادة والدليـل على ذلك أن الاستعاذة قبـل القراءة .

الضرب الثالث : الاضمار على شريطة التفسير وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به مؤخرا فيكون هذا الاخير دليلا على الاول ، وينقسم الى أقسام ثلاثة :

١ — أن يأتى على طريق الاستفهام ، فنذكر الجملة الأولى دون الثانية ، وذلك مثل قوله تعالى (أفمن شرح الله صـدره للاسلام ، فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين) والتقدير : أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى قلبه ، ويدل على المحذوف قوله تعالى : (فويل للقاسية قلوبهم) .

٢ — أن يأتى على حد النفى والاثبات كقوله تعالى (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) أى لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعده وقاتل ، والدليل قوله :

(أولئك أعظم درجة من الذين .. ..) الآية .

٣ — مالا يكون استفهاما ، ولا نفيا واثباتا كقول أبى تمام

يتجنب الاثام ثم يخافها .·. فكأنما حسناته اثام

ففى صدر البيت اضمار مفسر فى عجزه تقديره أنه يتجنب الاثام فيكون قد أتى بحسنه ثم يخاف تلك الحسنة فكأنما حسناته آثام .

الضرب الرابع : خلاف كل ما تقدم فليس بسبب ولا مسبب ، ولا اضمار على شريط التفسير ، ولا استئناف ، فأما ما حذف فيه من الجمل المفيدة فكقوله تعالى (قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن لا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، وقال الملك ائتونى به) والحذف واضح من سياق الكلام وهو جملة مفيدة وهو جملة الحوار بين سيدنا يوسف عليه السلام وبين فرعون مصر .

ومما حذفت منه جمل ليست بمفيدة أى ليس ثمة طائل من وراء معناها ولذا كان حذفها أولى من ابقائها مثل قوله تعالى : (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا .. .. يايحيى خذ الكتب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) فالحذف واضح وتقديره ولما جاء الغلام يحيى ونشا وترعرع قلنا له يايحى خذ الكتاب بقوه وقد دل عليها صدر الكلام . وبهذا ينتهى كلام المؤلف (٣٣) على القسم الاول وهو حذف الجملة ، وقد فرعها ابن الاثير كل هذه التفريعات ، نظرا لما يتمتع به من ذوق ادبى

---

(٣٣) المثل السائر ج٢ ص ٧١ : ص ٩١ والجامع ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ .

مرهف ، ومعرفة دقيقة بين اللفظة واللفظة الأخرى بل بين العبارة والعبارة ، كما أنه كان مدركا للمعانى المستترة خلف الكلمات .

وبعد ما انتهى من هذا القسم دلف الى القسم الثانى وهو الايجاز بالحذف ، وخصصه لحذف المفردات وقد اشترط البلاغيون لذلك ان يحذف شىء من العبارة أو الجملة أو الكلام شريطة أن لا يخل بالفهم مع وجود ما يدل على المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية وهى كثيرة متنوعة يقول القزوينى (وأدلة الحذف كثيرة منها أن يـدل الفعـلعلى الحـذف والمقصـود الأظهـر على تعيـين المحذوف ...) (٣٤) والاصار الحذف رديئا . وعلى كل فان ابن الاثير قد قسم هذا القسم الى أربعة عشر ضربا كالآتى :

١ — حذف الفاعل بدلالة ذكر فعله كقول حاتم الطائى :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ... اذا حشرجت يوما ضاق بها الصدر

أى اذا حشرجت النفس . علما بانها لم تذكر فى الكلام .

٢ — حذف الفعل وجوابه وهو على قسمين :

(أ) أحدهما يظهر بدلالة المفعول عليه وهو غالبا ما يكون فى التحذير كقوله تعالى : (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) .

(ب) مالا يظهر فيه قسم الفعل ، لأنه لا يكون هناك منصوب يدل عليه ، بل يظهر بالنظر الى ملاءمة الكلام . وهذا اللون موجود

(٣٤) الايضاح ص ١١٠ وما بعدها .

فى القرآن بكثرة ومنه قوله تعالى : (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) والتقدير فقيل لهم لقد جئتمونا . ومن هذا النوع ما يعرف فى النحو بالتنازع والاشتغال ، ومنه أيضا احلال المصدر محل الفعل بهدف المبالغة والتوكيد .

وأما حذف جواب الفعل ، فيشرط أن يكون الجواب مقترنا بالفاء وفعله يكون ماضيا . كقوله تعالى : ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا) والتقدير فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا اليهم فكذبوهما فدمرناهم .

٣ — حذف المفعول به كقوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) فقد حذف المفعول وهو الماشية فى أربعة أماكن من هذه الآية .

٤ — حذف المضاف أو المضاف اليه واقامة كل منهما مكان الآخر ، فالأول كقوله تعالى (واسأل القرية التى كنافيها) والتقدير أهل القرية . والثانى كقوله تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل ذلك ومن بعده .

٥ — حذف الموصوف والصفة واقامة كل منهما مقام صاحبه ، وغالبا ما يقع ذلك فى الشعر وقد ورد منه فى القرآن الكريم أيضا كقوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أى آية مبصرة ، أو قوله

تعالى حكاية عن الكافرين (يأيها الساحر) أى الرجل الساحر فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه •

أما حذف الصفة واقامة الموصوف مقامها ، فانه نادر فى الكلام لانه غالبا يؤدى الى استغلاق الكلام وقد حصرها ابن الاثير فقال (وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ الا فى صفة تقدمها ما يدل عليها ، أو تأخر عنها أو فهم ذلك من شىء خارج عنها) (٣٥) •

فمثال التى تقدم ما يدل عليها قوله تعالى : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى كل سفينة صحيحة فحذفت الصفة لأنه تقدمها ما يدل عليها وهو (فأردت أن أعيبها) ومثال التى تأخر عنها ما يدل عليها قول يزيد به الحكم الثقفى :

كل امرئ ستئيم منـــ ـــه العرس أو منها يئيم

والتقدير كل امرىء متزوج ، بدلالة قوله بعد ذلك « ستئيم منه أو منها يئيم » فلا تئيم الزوجة الا من زوج ، وهو الامن زوجة •

وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شىء خارج عن الكلام ، فكقوله ﷺ (لا صلاة لجار المسجد الا فى المسجد) أى لا صلاة كاملة أو فاضلة ، وهذا قد علم من شىء خارج عن الألفاظ التى صيغ بها الحديث •

٦ ــ حذف الشــرط وجــوابه • فحذف الشرط مثل قوله تعالى : (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية) والتقدير فخلق فعليه فدية •

---

(٣٥) المثل السائر جـ٢ ص ١٠٣ •

وأما حذف الجواب فكقوله تعالى : (قل أرأيتم ان كـــان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين) فحذف جواب الشرط والتقدير : ان كان القرآن من عند الله وكفرتم به الستم ظالمين ، ويدل على المحذوف قوله تعالى : (ان الله لا يهدى القوم الظالمين).

٧ ــ حذف القسم وجوابه ، فحذف القسم مثل « لأفعلنّ » أى والله لأفعلن أو غيرها من ألوان القسم المحلوف بها ، أما حذف الجواب مثل قوله تعالى : (ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب) والتقدير : ق والقرآن المجيد لتبعثن بدلالة ما جاء بعد ذلك وهــو (أئذامتنا وكنا ترابا وعظاما ذلك رجع بعيد) وكثير ما حذف جواب القسم فى القرآن الــكريم .

٨ ــ حذف لو وجوابها فحذف لو مثل (وما كنت تتلو مــن قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) أى اذ لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون ، وأما حذف الجواب مثل : (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) وتقدير المحذوف الذى هو الجواب لو أن لى بكم قوة لدفعتكم أو منعتكم . ولابد من دلالة على المحذوف فى مثل هذه الأمور .

٩ ــ **حذف جواب لولا** : كقوله تعالى : (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا .. .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رءوف رحيم) والتقدير لولا فضل الله عليكم ورحمته لعجل لكم العذاب .

١٠ — حذف جواب لما وأما : فحذف جواب لمّا مثل : (فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يابراهيم .. ..) الآية ، والتقدير وناديناه أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال . وأما حذف جواب أما فمثل (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم) والتقدير فيقال لهم اكفرتم بعد ايمانكم .

١١ — **حذف جواب اذا** مثـــل (واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ، وما تاتيهم من آيه من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) فحذف جــواب اذا وهو : واذا قيل لهم اتقـــوا ما بين آيديكم وما خلفكم أعرضوا ، ثم قال ودأبهم الاعراض عن كل آية وموعظة .

١٢ — **حذف المبتدأ والخبر** : ومثل لحذف الخبر من الكلام بقول البحترى :

كل عذر من كل ذنب ولـــــــكن ... أعوز العذر من بياض العذار

فحذف خبر المبتدا وتقديره كل عذر من كل ذنب مقبـــول او مسموع .

١٣ — **حذف لا من الكلام وهى مرادة** مثل (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف) أى لا تفتأ ، فحذفت لامن الكلام وهى مرادة .

١٤ — حذف **الواو من الكلام واثباتها : وهذا لا يكون الا فى** كل اسم نكرة جاء خــبره بعد الا فيجوز اثبات الواو فى خبره وحذفها ، فنقول مار رأيت رجلا الا وعليه ثياب أو : الا عليه ثياب بدون الواء ، فان كان الذى يقع على النكرة ناقصا فلا يكون الا بحذف الواو مثل « ما أظن قرشا الا هو كافيك » ولا يصح أن

نقول الا وهو كافيك لان الظن يحتاج الى شيئين ؛ فلا يعترض فيه بالواو ، فيتشبه بالفعل الذى ينصب مفعولا واحدا ، وأيضا خبر كان وان ، والمفعول الثانى لظن فلا يقترن بالواو عدا ليس فنقول ليس احد الا وهو قائم فأثبتنا الواو ، وأيضا أصبح وأمسى ورأى فان الواو فيهن أسهل • وقد ورد فى القرآن الكريم أمثلة للاثبات وأخرى للحذف ، وذلك مثل قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية الاولها كتاب معلوم) وقوله تعالى (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون) ، ومن ثم يتضح قياسا على هاتين الآيتن أن الواو لا يجوز حذفها واثباتها فى كل موضع ، بل ما شابه هاتين الآيتين •

وبعد أن فرغ من الوان الايجاز بالحذف تناول بعد ذلك الايجاز بدون حذف وقد قسمه على عادته وولعه بالتقسيمات الى قسمين : الاول ايجاز تقدير ، والثانى ايجاز قصر •

ويرى أن هذا القسم من الايجاز فيه عسر ومشقة (فالتنبه له عسر لأنه يحتاج الى فضل تأمل وطول فكرة لخفاء مايستدل عليه ، ولا يستنبط ذلك الا من رست قدمه فى ممارسة علم البيـــان وصار له خليقة وملكة) (٣٦) •

واستتباعا للايجاز فسوف نعرض لايجاز القصر عنده ثـم بتضمين المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة من غير حذف (٣٧) •

فايجاز القصر ، الذى يعرف أحيانا بأنه ايجاز البلاغة يكون بتضمين المعانى الكثيرة ألفاظ قليلة من غير حذف (٣٧) •

---

(٣٦) المثل السائر جـ٢ ص ٧٨ •
(٣٧) الايضاح ١٠٥ •

ويقسمه أيضا ابن الاثير الى قسمين :

(أ) ما يدل على محتملات متعددة •

(ب) مالا يكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها (٣٨)

(أ) فالضرب الاول وهو الذى يدل على محتملات عديدة ، فان فى القرآن الكريم الكثير منه وذلك مثل قوله تعالى فى حكاية فرعون وموسى (فغشيهم من اليم ماغشيهم) فبرغم قلة الالفاظ الا أن المعنى الذى تحتها كثير جدا وتقديره أى غشيهم من الامور الهائلة والخطوب الفادحة مالا يعلم كنهه الا الله ولا يحيط به غيره ، ومنه أيضا قوله تعالى (أولئك لهم الأمن) فدخل تحت الأمن كل ما هو محبوب ونفى عنهم الخوف من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة وما الى ذلك ومما ورد وشعرا قول السموءل بن عاديا :

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها ∴ فليس الى حسن الثناء سبيل

فقد احتوى هذا البيت على جميع مكارم الاخلاق التى تجد النفس فى حملها مشقة كالشجاعة ولاسماحة والفقة والتواضع والحلم والصبر وغير ذلك •

(ب) الضرب الثانى مالا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها (وهو أعلى طبقات الايجاز مكانا وأعوزها امكانا ،

---

(٣٨) المثل ض ١٢٣ ج٢ والجامع ص ١٤٣ •

واذا وجد فى كلام البلغاء فانما يوجد شاذا ونادرا) كما يقــول ابن الأثــير (٣٩) •

وقد ورد منه فى القرآن الكريم كثيرا وذلك مثل قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) فان قوله تعالى القصاص حياة لا يمكن التعبير عنها الا بألفاظ كثيرة تقديرها : اذا قتل الحاكم القاتل امتنع غيره عن القتل خوفا على حياته ، فأوجب ذلك حياة لغيره من الناس • وهذا أفضل من قول العرب (ألقتل أنفى للقتل) من وجوه ثلاثة :

١ — الآية لفظتان والمثل العربى ثلاثة •

٢ — فى المثل تكرير ليس فى الآية •

٣ — ليس كل قتــل نافيا للقتــل الا اذا كان على حــكم القصاص (٤٠) •

وهذا معنى قوله الكلام الذى لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها ، وغير ذلك ليس داخلا فى هذا القسم •

لكن الغريب حقا هو ادماجه القسم الاول من هذا اللون فى الايجاز لان تعريفه له يقترب من حد المساواة التى هى تأديه المعنى المراد بعبارة مساوية اى أن تكون الألفاظ على قدر المعانى ، لا يزيد بعضها على بعض ، ويعرفه هو بقوله (ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير) (٤١) ولذا فاننى سوف اناقشه على انه الضرب الثانى

---

(٣٩) المثل السائر ح ٢ ص ١٢٥ •
(٤٠) المثل السائر ص جـ٣ ص ١٢٦ وانظر الايضاح ص ١٠٥ •
(٤١) الجامع الكبير ص ١٤٢ والمثل جـ٢ ص ١١٤ •

وهو المساواة لان الامثلة التى أوردها فى شرحها هى أمثلة للمساواة

كما أن كلامه عنها فى المفتاح المنشا يتفق مع ما ذهبنا اليه فهو يقول المساواة هو أن أن يكون اللفظ مساويا للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص غير محتاج الى زيادة كقول زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ∴ ولو خالها تخفى على الناس تعلم(٤٢)

ثانيا : المســـــاواة :

وقد سبق التعريف بها فهى تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، فتكون الالفاظ على قدر المعانى لا يزيد بعضها على بعض ، كما أننا لو حذفنا لفظا لاختل المعنى وذلك الحذف يتبعه نقص فى الكلام، ومن ثم جاءت التسمية بالمساواة وذلك مثل قوله تعالى : (من كفر فلعيه كفره) ، أو قوله تعالى : (ولا يحيق المكر السىء الا بأهله) (٤٣) وقد عرف ابن الأثير المساواة سواء فى كتبه الجامع أو المثل أو المفتاح كما أوضحنا سلفا ويمثل له بقوله تعالى (قتل الانسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفه خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره) .

ويشرح هذا المثال بما لا يدع مجـالا للشك بأنه المســاواة وليس غير فيقول « قتل الانسان » دعاء عليه وقوله « ما أكفره » تعجب من افراطه فى كفران النعمة ، وقد وصف الله خلق الانسان الى منتهاه فقال « من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره » أى هيأه لما يصلح له « ثم السبيل يسره » أى سهل خروجه من بطن أمه ، كما يسر له الطـريق اما للخير وامـا للشر ، ثم « أماته

---

(٤٢) المفتاح المنشا ص ٣١١ .

(٤٣) الايضاح ص ١٠٥ .

فأقبره » أى يوارى فى قبره « ثم اذا شاء أنشره » أى احياه « كلا » حرف ردع للانسان لما هو عليه « لما يقض ما أمره » أى أن الانسان لم يخل من تقصير قط (٤٤) اذا اللفظ على قدر المعنى (ولو أردت أن تحذف جزءا من أجزائه لما قدرت على ذلك لأنك كنت تذهب بجزء من معناه ، ويختل عليك نظمه ، فان أسقطت الجملة الاولى التى هى صدر الكلام زال معنى الدعاء عليه . وأن اسقطت الجملة الثانية زال معنى التعجب من كفران نعمة ربه ، وان أسقطت الجملة الاستفهامية أو غيرها زال ما تضمنته من المعانى التى لولاها لما كان) (٤٥) وهذه هى المساواة بعينها ويأتى بأمثلة كثيرة من القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة والاشعار العربية الرصينة .

فما قاله الرسول ﷺ (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى) ومنه قول النابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى ∴ وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وهذا المثال نفسه هو ما تمثل به القزوينى للمساواة (٤٦) وغير هذا كثير .

---

(٤٤) المثل السائر ح ٢ ص ١١٥ ، والجامع الكبير ص ١٤٢ .
(٤٥) المثل السائر ج٢ ص١١٥ والجامع الكبير ص ١٤٢ .
(٤٦) الايضاح ص ١٠٥ .

ثالثا : الأطنـــــــــــاب

وكما تكلم ابن الأثير عن القسمين السابقين وهما الايجـاز والمساواة ، تكلم أيضا عن الاطنـاب وفرق بينه وبين التطويل والتكرار وقسمه الى أقسام ، كما ذكر الغرض البلاغى أو الفائدة من الاطناب كما سوف نعرض الآن •

فحد الاطناب عنده زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، وهذا التعريف هو ما حد به علماء البلاغة الاطناب (٤٧) ، وقد نص ابن الأثير فى التعريف على الفائدة المأخوذة من الاطناب ، وهو محق فى هذا لأن الزيادة اذا لم تكن لفائدة وغير معينة سمى تطويلا ، وليس اطنابا ، أما اذا كانت الزيادة فى الكـلام معينة ولا تفسد المعنى سمى حشوا (٤٨) •

وهذا نفســه ما عناه ابن الأثـير عندما فرق بين الاطنــاب والتطويل ، والحشو الذى أسماه بالتكرار ويعرفه بقوله (وأما التكرار فانه دلالة اللفظة على المعنى مرددا) (٤٩) وقد قسم التكرار الى قسمين فمنه ما يأتى لفائدة وهو جزء من الاطناب ، ومنه ما يأتى لغير فائدة وهو جزء من التطويل •

وحـد التطويل بقـوله (هو زيادة اللفظ عن المعنى لغـير فائدة) (٥٠) فاذا كان لفائدة فهو اطناب ، وان كان لغير فائدة فهو

---

(٤٧) الايضاح مثلا ص ١٠٢ •
(٤٨) الايضاح ص ١٠٣ •
(٤٩) المثل السائر جـ٢ ص ١٢٩ •
(٥٠) المثل السائر حـ٢ ص ١٢٩ •

تطويل ، واذا كان مرددا فهو تكرير ومن ثم فان التكرير صار بذلك قاسما مشتركا بين الاطناب والتطويل عند ابن الاثير (ان كل تكرير يأتى لفائدة فهو اطناب ، وليس كل اطناب تكريرا يأتى لفائدة ، وأما الذى يأتى من التكرير لغير فائدة فانه جزء من التطويل وهو أخص منه ، فيقال حيئذ : ان كل تكرير يأتى بغير فائدة تطويل ، وليس كل تطويل تكريرا يأتى بغير فائدة) (٥١) .

أما فائدة الاطناب عنده فهى (زيادة التصور للمعنى المقصود ، اما حقيقة واما مجازا . وهو على الحقيقة ضرب من ضروب التأكيد) (٥٢) وذلك كقوله تعالى « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » فيحصل لمن يسمع هذه الاية زيادة تصور للمدلول عليه ، لانه اذا طبقه على نفسه تصورها جوفا يحتوى قلبين كان ذلك أسرع للانكار ومن تأتى فائدة هذا الاسلوب وأنماطه ويقسم ابن الاثير الاطناب الى قسمين كبيرين :

(أ) الاطناب فى الجملة الواحدة الكلام .

(ب) ما يوجد فى الجمل المتعددة ، وهذا هو الابلغ لاتساع المجال فى ايراده . والقسم الأول الذى يوجد فى الجملة الواحدة اما أن يكون حقيقة أو مجازا .

١ — الحقيقة ، كقول القائل : رأيته بعينى ، وقبضته بيدى ،

---

(٥١) المثل السائر جـ٢ ص ١٢٩ .
(٥٢) الجامع الكبير ص ١٥١ .

ووطئته بقدمى وذقته بفمى • فقد يظن ظان أن ثمة زيادة لاحاجة اليها ، لان الرؤية بالعين ، والقبض باليد ، والوطء بالقدم ، والذوق بالفم ، لكن ذكر هذه الأمور فى كل شىء توجد صعوبة فى الحصول عليه ، فجاءت هذه الالفاظ دلالة على التوكيد فى الحصول عليه والوصول اليه •

ومن هذا قوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) فالسقف لا يكون الا من فوق ولكن لما كان المقام مقام ترهيب وتخويف ، وانكار وتعظيم ذكر لفظة (فوقهم) للفائدة التى لا توجد مع اسقاطها (وأنت تحس هذا من نفسك فانك اذا تلوت هذه الآية يخيل اليك أن سقفا خر على أولئك من فوقهم ، وحصل فى نفسك من الرعب مالا يحصل مع اسقاط تلك اللفظة) (٥٣) وعلى ذلك فان مثل هذه الامور كثيرا ما ترد فى القرآن الكريم ، وفيها من الأسرار البلاغة الشىء الكثير وذلك بحسب المقام الذى سيقت فيه والموقف الذى ذكرت من أجله •

٢ — وقد يأتى على طريقة المجاز ، وهو يفضل الحقيقة كثيرا لأنه كما هو شائع المجاز أبلغ من الحقيقة هذا من ناحية ، وأيضا (لمكان زيادة التصوير فى اثبات وصف الحقيقى للمجازى ، ونفيه عن الحقيقى) من ناحية أخرى (٥٤) ، وذلك مثل قوله تعالى (فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فالعمى يكون بطمس حدقة العين والعمى مكانه البصر ؛ أما استعماله فى القلب ، فعلى سبيل الاستعارة (فلما أريد اثبات ما هو خلاف

---

(٥٣) المثل جـ٢ ص ١٣١ •
(٥٤) المثل السائر جـ٢ ص ١٣٣ •

المتعارف عليه من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج الامر الى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر أن مكان العمى انما هو القلوب لا الأبصار) (٥٥) •

هذا ما يخص القسم الأول من الاطناب عند ابن الاثير ، أما القسم الثانى وهو المختص بالجمل فانه يشمل أربعة أضرب •

الضرب الاول : أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخله الا أن كل معنى يختص بخصيصه ليست للآخر ، فكل معنى له ما يخصه وهو وقف عليه لا يمكن أن يكون لغيره لأنه ليس من أسبابه كقول أبى تمام :

قطعت الى الزابيين هباته ∴ والتاث فاول السحاب المبل

من منة مشهورة وضيعة ∴ بكر واحسان اغر محجل

فالمنة والضيعة والاحسان تتداخل معانيها لكن الشاعر وصف كل واحدة منها بوصف يمنعها من التداخل ، وبالتالى من لتكرير ، فالمنة مشهورة ، والضيعة بكر لم يأت أحد بمثلها من قبل أما الاحسان فانه أنمر محجل ، وهذه الأوصاف المتباينة منعت التداخل والتكرير •

الضرب الثانى : ويسميه ابن الاثير النفى والاثبات (٥٦) وهو أن يذكر الشيء منفيا ثم يذكر مثبتا أو العكس ، ولابد أن يكون فى أحدهما زيادة ليست للآخر والا كان تكريرا ، والغرض به تأكيد

---

(٥٥) المثل السائر جـ٢ ص ١٣٣ •
(٥٦) المثل السائر جـ٢ ص ١٣٥ •

المعنى المقصود ، وهو أوكد وجوه الاطناب فمما جاء منه على سبيل النفى ، ثم ذكر على سبيل الاثبات قوله تعالى (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين ، انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) فبدأ سبحانه وتعالى بالنفى فقال (لايستأذنك ..) الآية ثم عقب بالاثبات فقال (انما سيتأذنك ..) الآية وزاد فيها قوله تعالى (وارتابت قلوبهم فى ريبهم يترددون) فانتفى التكرار وثبت الاطناب .

أما مثال الاثبات ثم النفى فهو كقوله تعالى (الم غلبت الروم .. .. وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) فقال سبحانه (يعلمون) بعد (لا يعلمون) فنفى علم الناس لما خفى عنهم من تحقيق وعده ، وأثبت لهم العلم بظاهر الامور وليس بعلم ، فالعلم بما كان بباطن الامور .

الضرب الثالث : أن يجىء المعنى الواحد تاما لا يطلب زيادة ويمثل له بمثال من التشبيه كقول البحترى :

ذات حسن لو استزادت من الحسـ ∴ ـن اليه لما أصابت مزيدا
فهى كالشمس بهجة والقضيب اللـ ∴ دن قدا والريم طرفا وجيدا

فانه قد بلغ الغاية فى وصف حسنها ، وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله (لو استزادت لما أصابت مزيدا) فجمع لها كل الاشياء

الحسنة ، غير أن التشبيه أفاد مزية أخرى ، وهى أفادة السامع تخيلا وتصويرا لا يحدث له من البيت السابق .

الضرب الرابع : استيفاء معانى الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة وهذا كما يقول (أصعب الضروب الاربعة طريقا ، وأضيقها بابا ، لانه يتفرع الى أساليب كثيرة من المعانى ... ومثاله ومثال الايجاز،مثال مجمل ومفصل)(٥٧) وقد ضرب له ابن الاثير مثلا فى صفة بستان فى قرابة صفحة من كتابه وبدأه بقوله (جنة علت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تمسك سماء وهى ذات ثمار مختلفة الغرابة ...) الى أن ختمه بقوله (ولقد دخلتها فاستهوتنى حسدا ، ولم ألم صاحبها على قوله لن تبيد هذه أبدا)(٥٨) .

التكرير

هذه هى دراسة ابن الاثير لهذا الشق من الاطناب وقد اردف بعد ذلك بالكلام على التكرير وهو يعلم أنه جزء من الاطناب ، غير أن شهوة التقسيم ومحاولة السبق ، والاحساس بأنه أتى بما لم يأت به الآخرون دفعه الى تلك التقسيمات ولقد أصر منذ البداية على أن يزيل من الفهم ما قد يتبادر للذهن من الفصل بين الاطناب والتكرير الذى هو أحد أنواعه فعند ما قسم التكرير الى قسمين جعل القسم الاول منه وهو الذى يأتى لفائدة جزءا من الاطناب وقدتقدم

---

(٥٧) المثل السائر جـ٢ ص ١٣٦ ، ص ١٣٧ .
(٥٨) المثل السائر جـ٢ ص ١٣٧ ، ص ١٣٨ .

سلفا قوله (ان كل تكرير يأتى لفائدة فهو اطناب ، وليس كل اطناب تكريرا) (٥٩) وبذا صار التكرير أخص من الاطناب وقد عرفه وفرق بينه وبين الاطناب والتطويل كما مر .

اقسام التكرير : ينقسم التكرير الى قسمين :

١ ــ ما يوجد فى اللفظ والمعنى مثل قول القائل لمن يستدعيه « أسرع ، أسرع » .

٢ ــ ما يوجد فى المعنى دون اللفظ وذلك مثل قولك لآخر « أطعنى ولا تعصنى » فالأمر بالطاعة نهى عن المعصية .

وقد قسم ابن الاثير هذين القسمين الى أربعة أقسام أخرى فجعل كل واحد منهما ينقسم الى قسمين آخرين ، وهما مفيد ، وغير مفيد ، غير انه يعنى بالمفيد هنا هو ما جاء لمعنى أى ما أضاف معنى زائدا لمدلول الكلام ، وغير المفيد ما انعدم فيه ذلك ، وهذا بخلاف ما يعنيه النحاة من كلمة مفيد ، اذا المفيد عندهم هو لفظ المركب من اسم مع آخر لعلاقة تربطهما ، أو اسم مع فعل أو العكس وما شابه ذلك يقول (واعلم أن المفيد من التكرير يأتى فى الكلام تأكيدا له ، وتشييدا من أمره ، وانما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشىء الذى كررت فيه كلامك ، اما مبالغة فى مدحه أو ذمه أو غير ذلك ، .. .. .. وغير المفيد لا يأتى فى الكلام الا عيا وخطلا من غير حاجة اليه) (٦٠) .

---

(٥٩) المثل السائر ج٢ ص ١٢٩ .
(٦٠) المثل السائر ج٢ ص ١٥٨ وانظر الجامع الكبير ص ٢٠٤ .

أولا : أقسام ما يوجد فى اللفظ والمعنى :

١ ــ المفيد وينقسم الى فرعين :

(أ) اذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان كقوله تعالى (واذ يعدكم الله احد الطائفتين أنها لكم •• •• •• •• ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) فكرر سبحانه وتعالى (يحق الحق) (وليحق الحق) غير أن المراد بهما مختلف ، فالاول تمييز بين الارادتين ، والثانى بيان لغرض فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها ، وأنه سبحانه وتعالى ما نصرهم وخذل الكافرين الا لهذا الغرض •

(ب) اذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله تعالى (فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر) ، فكرر دلالة على التعجب من تقديره واصابته الغرض ، وهذا كما يقاله : قتله الله ما أشجعه ، أو ما أشعره •

وقد يكون التكرير للتأكيد وتقرير المعنى مثل : قوله تعالى فى سورة الرحمن (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فانه أيضا يكون للترغيب والتنبيه كقوله تعالى (وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار) فكرر نداء قومه ليستميل قلوبهم كيلا يشكوا فى اخلاصه لهم فى نصحه (وهذا من التكرير الذى هو أبلغ من الايجاز وأشد موقعا من الاختصار) (٦١) •

---

(٦١) المثل السائر جـ٢ ص ١٦٨ وانظر الجامع الكبير ص ٢٠٧ •

ثانيا : غير المفيد : ففى تكريره اضعاف للمعنى واسفاف به ووجوده وعدمه سواء لانه لا يأتى الا بمعنى واحد فقط كقول مروان الاصغر .

سقى الله نجدا والسلام على نجـد ∴ ويا حبذا نجد على النأى البعد
نظرت الى نجد وبغداد دونهـــا ∴ لعلى أرى نجدا وهيهات من نجد

فان تكرير كلمة نجد فى البيتين ست مرات ، وهن المعنى ، ولم يأت بطائل يذكر فمقصوده فى البيت الأول الثناء والتلذذ بذكر نجد ، وفى الثانى التلفت ناظرا من بغداد ، وهـــذا المعنى غير محتاج الى كل هذا التـــكرير وهذا من العى الضـــعيف كما يقول ابن الاثير (٦٢) .

أما لو اقتصر على البيت الأول فقط لأدخل فى التكرير المقبول لان الموقف موقف تشوق وتحرق والم لفراق نجد ومن ثم دخل تحت أحد أغراض التكرير وهو التلذذ بذكر الشىء المحبوب أكثر من مرة .

القسم الثانى من التكرير وهو الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ ، وينقسم الى قسمين أيضا كسابقة :

(أ) مفيـــد .

(ب) غير مفيد .

(أ) المفيد وينقسم هو الاخر الى قسمين :

---

(٦٢) المثل السائر جـ٢ ص ١٧١ .

١ ـ اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنيين مختلفين ، كدلالته على الجنس والعددمثلا (وهو موضع من التكرير مشكل لانه يسبق الى الوهم أنه تكرير محض يدل على معنى واحد فقط) (٦٣) ، وذلك كقوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد) والفائدة من ذكر (الهين اثنين ، اله واحد) هو أن الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية يدل على الجنسية والعدد المخصوص (فاذا أريدت الدلالة على أن المعنى به واحد منهما وكان الذى يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد اليه والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت « انما هو اله » ولم تؤكده بواحد لم يحسن ، خيل انك تثبت الالهية لا الوحدانية) (٦٤) ومن هذا النوع ذكر الخاص بعد العام (٦٥) وفائدته التنبيه على فضله ، حتى كأنه لفضله وسمو مكانته جزء آخر مغاير لما قبله كقوله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) ومن ذكر الخاص بعد العام ما فائدته تعظيم الشأن ، وتفخيم لامره وهذا مذكور فى القرآن الكريم كثيرا مثل قوله تعالى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها) فالجبال جزء من الارض ، لكن لفظ الارض عام ، والجبال خاص ، وبذا عظم شأن الامانة وفخم أمرها •

---

(٦٣) الجامع الكبير ص ٢٠٩ •
(٦٤) الجامع الكبير ص ٢١٠ •
(٦٥) وانظر أيضا المثل جـ٢ ص ٣٢ النوع الثامن : وهو فى استعمال العام فى النفى والخاص فى الاثبات •

٢ — اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنى واحد لا غير كقولك لمن تخاطبه : أطعنى ولا تعصنى فالأمر بالطاعة نهى عن المعصية ، والفائدة من ذلك تثبت الطاعة فى نفس المخاطب •

ومنه أيضا الترغيب فى العفو والصفح كقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وان تعفوا وتصفحوا او تغفروا فان الله غفور رحيم) فالعفو ، والصفح والمغفرة بمعنى واحد ، وانما كرر للزيادة فى تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته • ومن أنواع الاطناب التى ذكرها مبعثرة فى كتبه التفسير بعد الابهام ويقول عنه (اعلم أن هذا النوع لا يعمد الى استعماله الا لضرب من المبالغة ، فاذا جىء به فى كلام، فانما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم واعظامه لانه هو الذى يطرق السمع أولا فيذهب بالسامع كل مذهب (٦٧) وضرب له أمثلة عديدة قرآنا وشعرا ونثرا وسنكتفى بمثال واحد يبين هذا النمط وهو قوله تعالى (وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع) ففى ابهامه أولا وتفسره بعد ذلك تفخيم للامر وتعظيم لشأنه ، فانه لو حذف لفظة (الامر) لما كان الكلام بهذه المنزلة من العظمة لان الابهام يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما يقرع سمعه ، فيتشوف الى معرفته والاطلاع على حقيقته ، فأبهم فى كلمة الامر ثم وضحه بعد ذلك تهويلا لامر العذاب •

---

(٦٧) المثل السائر جـ٢ ص ٢٧ وهذا شبيه بعطف المظهر على ضميره والافصاح به بعده انظر المثل جـ٢ ص ٢٤ •

(ب) غير المفيد ، وذلك كقول أبى تمام :

قف بالطول الدراسات عـــلاثا ∴ أضـحت حبـال قطينهن رثاثا

قسم الزمان ربوعها بين الصــبا ∴ وقبولهـا ودبورها أثـــلاثا

والصبا والقبول بمعنى واحد ، فالتكرير لم يأت بفائدة ، وهذا النوع من التكرير لا يجــوز للناثر أن يستخدمه ، وانما يجــوز للشاعر فى حالة واحدة فقط وهى اقامة والقافية كقول امرىء القيس•

وهل ينعمن الا سعيد مخـــلد ∴ قليل الهموم لا يبيت بأوجـــال

فاذا كان قليل الهموم ، فانه لا يبيت بأوجال والذى سوغ ذلك هو القافية •

وقد تنبه ابن الاثير الى نوع عده القزوينى (٦٨) من أغراض التكرير وهو التكرير اذا طال الفصل لئلايجىء الكلام مبتورا ليس له طلاوة ، فلم يعده ابن الاثير من التكرير فقال (ولربما أدخل فى التكرير من هذا النوع ما ليس منه) (٦٩) وذلك مثل قوله تعالى : (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) فكرر (ان ربك) مرتين وذلك أدل على المغفرة ومنه قوله تعالى (ولا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ويحبون أن يحمد وابما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) •

وأيضا قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام (اذ

---

(٦٨) الايضـــاح ص ١١٣ •
(٦٩) المثل السائر جـ٢ ص ١٦٦ •

قال يوسف لابيه ياأبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) فلما طـال الفصـل كرر الرؤية ومنه قول الشاعر :

وان امرأ دامت مواثيق عهـده .·. على مثـل هذا انه لـكريم

ويدلل على صدق رأيه أنه اذا طال الفصل من الكلام وكان أوله يفتقر الى اتمام لكى يفهم ، فمن الفصاحة أن يعاد اللفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارنا لتمام الفصل من ناحية ، ولكيلا يكون منثورا من ناحية أخرى ، ونراه يحدد الموضع فى ان وأخواتها فيقول (فاذا وردت ان وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام ، فاعادة ان أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة •• •• •• فاذا لم تعـد ان مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق) (٧٠) •

ومن أنواع الاطناب الاعتراض ، الذى يذكره المتكلم لغرض يقصده فى كلامه ، فيأتى فى أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين فى المعنى بجملة معترضه أو اكثر ، وقد يكون فى آخر الكلام ، وقد أسماه ابن الاثير بالاعتراض وذكر أن بعضهم يسميه بالحشو • وقد مر بنا أثناء حديثنا عن الفصاحة العيوب التى ترد بها فصاحة الكلام وذكرنا منها التداخل بين ألفاظه ومعانيه ، والفصل المخل بين مالا يصح فصله لانه سوف يؤدى الى خلل فى سـياق الكلام • واضطراب فى معانيه ، وهذا هو الفصل المخل بالمعنى والسياق • غير أن هناك فصلا قد لا يفسد المعنى ولا يؤدى الى ذلك •

---

(٧٠) المثل السائر جـ٢ ص ١٦٧ •

الاضطراب ، وهو ما يعرف عند ابن الاثير بالاعتراض أو ما يسميه بعضهم بالحشو ، أى ما يأتى محشوا ، أو معترضا بين أطراف الكلام كالمبتدأ والخبر ، والصفة والموصوف والمتضايفين وما أشبه ذلك •

لكن ما الفرق بين هذه الاعتراضات ، وبين العيوب التى تدخل على الكلام ، فتذهب فصاحته ؟ سوف نجد أن هذا الحشو أو تلك الاعتراضات لم تخل بالمعنى ، كما أنها لا تؤدى الى التعاظل فان الجمله الموضوعة بين جزءين رئيسيين تتواءم معهما فى المعنى ولو اسقطت من الكلام لم ينقص المعنى أو يختل شىء منه بخلاف ما سبق كقول الشاعر :

فاصبحت بعد خط بهجتها ∴ كان قفرا رسومها قلما

وبذلك تزيد من قوة المعنى فى العبارة خاصة اذا كانت جملة دعائية أو قسما أو ما أشبه ذلك •

ويعرف ابن الاثير الاعتراض والحشو بقوله : (كل كلام ادخل فيه لفظ مفرد أو مركب ، لو اسقط لبقى الأول على حاله) (٧١) أى سواء كان الداخل لفظة واحدة أو جملة بأكملها بين عنصرى الجملة فان ذلك ليس مما يفسد الكلام أو يؤدى الى خلط المعنى شريطة أنه اذا سقط من الكلام لبقى المعنى قائما ، فلوقلنا مثلا • زيد قائم ، فان المعنى قد تم بالمبتدأ والخبر ، ولو جئنا بفاصل كالقسم بينهما لم يفسد المعنى بل يزداد توكيدا ، ولو حذفناه لن يتغير المعنى ، هذا بالنسبة لدخوله لفظة مفردة •

---

(٧١) المثل السائر جـ٢ ص ١٨٣ •

أما لو أدخلنا جملة بين زيد ، وقائم ، أى بين المبتدأ والخبر فان الكلام أيضا لن يختل • فتقول مثلا : زيد على ما يعانيه من المرض قائم ، فقد أدخلنا جملة على ما يعانيه من المرض « بين المبتدأ والخبر ، وقد أفادت معنى زاد على المعنى الأول واتحد المعنيان لخدمة الجلمة الخبرية ، ولو حذفنا الجملة التى أضفناها لظل المعنى على حاله دون تغيير وهو الافادة بقيام زيد » •

ولكن ليس كل اعترض حسن أو جائز ، والمعول على ذلك كتب العربية وقواعدها ، فان فيها ميزانا وقاعدة لما يحسن استعماله أو يجوز ، ولما يقبح ، وينكر استعماله ؛ وليس هذا من وكدنا بل الهدف هو الوقوف على الجيد والردىء من مثل هذه الأمور •

ويقسم ابن الاثير الاعتراض والحشو الى قسمين (٧٢) :
أحدهما : لا يأتى فى الكلام الا لفائدة وهو جار مجرى التوكيد •

الآخر : أن يأتى فى الكلام لغير فائدة ، فاما أن يكون دخوله كخروجه منه ، واما أن يؤثر فى تأليفه وفى معناه فسادا •

وهذا القسم الأخير ينقسم هو ايضا الى ضربين :

الأول : يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسنا ولا قبحا •

---

(٧٢) المثل السائر جـ٢ ص ١٨٤ •

الثانى : وهـو الذى يؤثر فى الكـلام نقصـا وفى المعنى فسادا (٧٣) • أما بالنسبة للقسم الاول ـــ الذى يأتى لفائدة فانه ورد كثيرا فى القرآن الكريم والشعر العربى • فمن أمثلته مما جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) ففى هذه الآية اعتراضان أحدهما هو قوله تعالى (وانه لقسم لو تعلمون عظيم فانه اعتراض بين قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) ، وبين قوله تعالى (انه لقرآن كريم) أى فيه فاصل أو اعتراض بين القسم وجوابه بقوله تعالى : (انه لقسم لو تعلمون عظيم) وأيضا فان فى هذا الاعتراض اعتراض آخر وهو قوله تعالى (لو تعلمون) ووقع بين الموصوف وهو قسم والصفة التى هى عظيم •

وهذا الاعتراض كما هو واضح انما جاء خدمة للمعنى فالقصد منه تعظيم شأن المقسم به فى نفس السامع ، فيقدره حق قدره ويكبره ويظل متأملا متطلعا الى معرفة عظمته •

وكما سلف أن قلنا فان القرآن الكريم مليىء بالاعتراضات كالاعتراض بين القسم وجوابه كما مر ، أو كالفصل بين المتعاطفين أو بين اذا وجوابها ، أو غير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ، وكلها ترد فى الموضع الذى يتعلق بنوع من الخصوصية والمبالغة والتهويل أو التعظيم فى المعنى المقصود •

---

(٧٣) المثل السائر جـ٢ ص ١٨٥ وما بعدها •

وكما ورد فى القرآن ورد فى الشعر العربى وذلك مثل قول امرىء القيس :

لو ان ما اسعى لادنى معيشة ∴ كفانى ولم اطلب قليل من المال

فتقدير الكلام كفانى قليل من المال ، فاعتراض بين الفعل ولفاعل بقوله « ولم أطلب » ، فأفاد تحقير المعيشه ، وأنها حاصلة بغير جهد ولا مشقة ومنه قول كثير هاجيا :

لو ان الباخلين وانت منهم ∴ رأوك تعلموا منك المطالا

فاعترض بين اسم ان وخبرها بجملة وأنت منهم •

وفائدة الاعتراض فى الشعر غالبا أن الكلام اذا كان فى الغزل أضفى عليه لطفا ورقة ، أما اذ كان مديحا فان يكسوه جمالا وجلالا ، فاذا كان هجاء أكده فى نفس السامع وما أشبه ذلك • ومن ثم فان هذا النوع يؤدى الى زيادة المعنى واضافة ظلال تسمو به ، بخلاف ما لو حذف منه •

القسم الثانى من الاعتراض وهو الذى يأتى لغير فائدة ، أى لا يفيد لطفا ولا رقة ، ولا جمالا ولا تأكيدا ، ويكون دخوله فى الكلام كخروجه منه فلا يكتسب الكلام به حسنا ولا قبحا وهو جملة (لا أبالك) وغالبا فانها تكون مع الجمل الخبرية فاذا كانت مع الجملة الانشائية فانها غالبا ما تزيد الكلام حسنا ، وتضفى عليه توكيدا •

فالأول كقول النابغة :

يقول رجال يجهلون خليقتى ∴ لعل زيادا — لا أبالك — غافل

أو قول زهـــير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ∴ ثمانية حولا – لا أبالك – يسام

فان قولهما لا أبالك زيادة واعتراض لافائدة منها فى البيتين ولم تؤثر فى المعنى لا حسنا ولا قبحا ، عكس قول أبى تمام :

عتابك عنى – لا أبالك – واقصدى ∴ ... ... البيـت

فانه لما كره عتابها اعـترض بقوله لاأبالـك فجاءت موقعها وأضافت زيادة فى الكلام فاكسبته توكيدا فى ذهن المخاطب والجملة كما نرى انشائية ، نوعها أمر وغرضه أو مقصوده الذم ، والاعتراض جاء بين فعل الأمر ، وبين المعطوف عليه وهو قوله اقصدى •

وهذا هو الضرب الاول من القسم الثانى ، **أما الضرب الثانى** من القسم الثانى ، فهو الذى يهجن الكلام ، ويفسد المعنى ، وقد تكلمنا عنه فى المعاظلة مثل قول الشاعر :

فقد والشك بين لى عنـــاء ∴ .... البيت

أو قول الاخر : فأصبحت بعد خط بهجتها ••••

وبهذا تنتهى دراسات ابن الأثير لعلم المعانى وكان الرجل ذا قدم راسخة وعلى علم ودراية بهذا الفن من فنون البلاغة، والآن نتجه صوب علم أو فن البيان لنقف على مدى فهم ابن الاثير له أيضا •

---

(٧٤) المثل السائر جـ٢ ص ١٨٩ •

دراســـــات ابن الأثـــــير

للبيـــــان وأبـــوابه

شــيئان لا نهاية لهمــا
البيـــــان والجمـــال
ابن الاثير

دراســـة ابن الأثــير للبيــان وأبوابه

بعد أن تناولنا بعض أبواب علم المعانى التى أوردها ابن الاثير ورأينا كيف كان فهمه لكل منها ، نعرض الآن لدراسته لعلم البيان ، وكيف تناول أبواب هذا القسم من البلاغة ، وكما هو معروف فان علم البيان يعنى بايراد المعنى الواحد بطرق وتراكيب متباينة فى الوضوح والدلالة على هذ المعنى ، فربما اعتقد المتكلم أن طريقا أفضل أو أوضح من طريق فى الدلالة على المعنى الذى يدور بخلده، ومن ثم يعبر بطرق مختلفة ، فأحيانا يعمد الى التشبيه ، فيشبه الشىء الغامض بالشىء الواضح ، وأحيانا يتوجه ناحية المجاز لاداء ذلك المعنى ، وقد يلجأ الى الكناية وربما استخدم الاستعارة ، وهذه الطرق كلها توصل الى ما يرمى اليه وما يهدف ، ومدار الامر كله فى هذه الطرق أنه يسخر المجاز ، فهو القاسم المشترك الاعظم بين هذه الطرق ، بل هو الرابط بينها وبين المعنى الحقيقى الذى دار بخلد المتكلم طالما كان سليم الذوق جيد الطبع •

وقد عرض له ابن الاثير فى كتبه متناثرا هو وأبوابه ، وان كان كلها ينبع من ركية واحدة ، ويكمل كل منهما الاخر ، غير أنه شديد الاحتفاء بعلم البيان اذ هو الركن الركين لتأليف النظم والنثر، فهو بمنزلة أصول الفقه للاحكام وأدلتها ، ومداره على الذوق السليم الموهوب ،فمتى اعطى الناظم أو الناثر هذا الذوق ، فانه سوف يعينه على نظم الفرائد ، بل هو أجدى للناظر والناثر من الخبرات المكتسبة بالتعليم ، طالما أوتى صاحبه الدربة والممارسة والمران (فان الدربة

والادمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا) (١) •

واذا كان صاحب كل صناعة يسأل عن أحوالهـا التى تعرض لها ، فان صاحب علم البيان أو صناعة البيان يسأل عن الفصاحة والبلاغة سواء من الناحية اللفظية أو المعنوية ، والدلالة وفضيلتها، والهيئة المخصوصة من الحسن وعلم البيان بهذه الخصوصية يفترق عن علم النحو ، فاذا كان علم النحو ينصب على الالفاظ والمعانى وأحوالهما الدلالية من جهة الاوضاع اللغوية فان علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ومن ثم فان (موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية ، وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الالفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والاعراب الاترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع اعرابه ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة) (٢) ولذا قرر أن النحاة لا فتيالهم فى مواقع الفصاحة والبلاغة (٣) لأن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب•

---

(١) المثل السائر جا ص ٦ ت محيى الدين •
(٢) المثل السائر جا ص ٧ •
(٣) المثل السائر ج٢ ص ١٦٤ •

المجـــاز وعـــلم البيـــان

قلنا فيما سبق ان المتكلم يستطيع أن يؤدى ما بنفسه من معان متباينة بطرق شتى وهذه الطرق ، قاســمها المشترك الأعظم هو المجاز ، ومن هنا توثقت الصلة بين المجاز وعلم البيان ، لان اللفظ الذى يطلقه المتكلم قد لا يقع الا لمعنى واحد ، وقد يقع لمعنيين ، وهذان المعنيان اما أن يكونا حقيقيين ، وأما أن يكون أحدهما حقيقيا والآخر مجازيا ، واما أن يكونا مجازيين •

فمثال الحقيقيين قول الرسول ﷺ « التمسوا الرزق فى خبايا الارض » فلفظه خبايا معناها الكنوز المخبوأة فى باطن الارض ، والاخر الزراعة من حرث وغرس ، والمقصود والمرجح من هذه اللفظة هنا هو الزراعة دون الاخر •

ومثال المجازيين قول أبى تمام :

قد بلونا أبا سعيد حـــــديثا ⁂ وبـلونا أبا سـعيد قديمـــــا

ووردناه ســـاحلا وقليبـــا ⁂ ورعيناه بارضـــا وجـميما (٤)

فعلمنا أن ليس بشـق النــ ⁂ ـفس صار الكريم يدعى كريما

فيعلق ابن الاثير على هذه الابيات قائلا (فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقليب ، والاخر أنه أراد بهما السبب وغير السبب ، وكلا هذين المعنيين مجاز ، فان حقيقة الساحل والقليب

---

(٤) البارض أول خروج النبت من الارض والجميم انتشاره •

غيرهما .. .. فكأنه قال أخذنا منه تبرعا ومسألة ، وقليلا وكثيرا) (٥) .

أما النوع الثالث وهو الحقيقة والمجاز فكقوله تعالى : (ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) فلفظة الجلود هنا تفسر على الحقيقة ، والمجاز ، أما الحقيقة فيكون مطلق الجلود، أما المجاز فيكون تخصيص الفروج ، وهذا التعبير من الطف الكنايات لانه كنى عما يستقبح ذكره وجاء به واضحا بينا والذى رشح ذلك هو مراعاة النظير بين الجوارح من سمع وبصر وجلود أى فروج .

ومهما يكن من أمر فان المقصود بالدراسة هنا هو المجاز على وجه العموم لاهميته القصوى لعلم البيان كما بينا آنفا ، ونظرا لهذه الاهمية يذهب ابن الاثير الى أن المجاز هو علم البيان بأجمعه لان مجيء العبارات على المجاز يجتنى منه فوائد كثيرة وتبعا لهذه الاهمية فانه أفرد فصلا خاصة لدراستة دراسة الحقيقة (٦) التى يعرفها بأنها اللفظ الدال على موضوعه الأصلى .

ويعرف المجاز بأنه (ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة) (٧) . وهذا التعريف ناقص بعض الشىء عن التعريف

---

(٥) المثل السائر جا ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٦) المثل السائر جا ص ٥٧ .
(٧) المثل السائر جا ص ٥٨ .

الاصطلاحى للمجاز اذ قد عرفه علماء البلاغة:بأن استخدام اللفظفى غير ما وضع لعلاقة مع قرينة ما نعة من ارادة المعنى الاصلى •

وأحيانا تكون العلاقة مقيدة بالمشابهة فيكون مجازا بالاستعارة وأحيانا تكون العلاقة مطلقة تتحدد من سياق الكلام فهذا هو المجاز المرسل كل هذا مع وجود قرينة اما لفظية واما معنوية (٨) يمنع السامع من فهم اللفظ على حقيقته ، إذ لو أردنا اللفظ على الحقيقة لما كان ذلك مجازا البتة • ومهما يكن من أمر ، فان ابن الاثير فى تحليله للفظ مجاز قارب من التعريف الاصطلاحى سالف الذكر له •

فيرى أن المجاز اسم مكان ، يقصد به الانتقال من مكان لآخر فاستعير لنقل الالفاظ من محل الى محل لوجود صلة بينهما (كقولنا زيد أسد فان زيدا انسان والاسد هو هذا الحيوان المعروف ، وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية أى عبرنا من هذه الى هذه لوصلة بينهما وتلك الوصلة هى صفة الشجاعة وقد يكون العبور وصلة وذلك هو الاتساع) (٩) • وسمى المجاز بهذا الاسم لأنه جيز به المعنى أو الغرض المقصود فى نفس الســامع عن طريق التخييل ومن ثم فان كل مجازلة حقيقية وليس العكس ، ولذا صار المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة والبلاغة لانه يثبت المعنى أو الغرض المقصود فى نفس السامع عن طريق التخييل

---

(٨) انظر الكلام بتفصيل اكثر بين الحقيقة والمجاز والقرائن فى كتابنا البلاغة وقضايا المشترك •

(٩) المثل السائر جـ١ ص ٥٨ وهذا تشبيه بليغ مضمر الاداة !!

والتصوير حتى ليكاد يتجسم أمامه هذا المعنى محسوسا ، ومن ناحية أخرى فان التعبير المجازى له فعل السحر فى نفس السامع ، ويجد له نشوة لا تكون للتعبير الحقيقى ، فتجعل الجبان شجاعا والبخيل كريما ، واذا لم تتحقق هذه الفوائد المرجوه من المجاز وجب على المتكلم أن يعدل الى الحقيقة لانها أصل والاصل أولى فى التعبير من الفرع .

نخرج من كل ما تقدم الى أن المتكلم اذا عدل عن الحقيقة الى المجاز لمشاركته بين المنقول والمنقول اليه كان ذلك التعبير استعارة أما اذ كان العدول عن الحقيقة الى المجاز لغير المشاركة بين المنقول والمنقول اليه فيكون ذلك بطلب التوسع فى الكلام ، وذلك بتعدد العلاقات ، وينتهى الى أن أقسامه ثلاثة : اما توسع ، أو تشبيه أو استعارة (١٠) ويقصد بالتوسع المجاز المرسل .

وأثناء كلامه عن الاستعارة اعترض عل الغزالى فى كتابه اصول الفقه فيما كتبه عن المجاز وأقسامه ، تبعا لتنوع علاقاته المعروفة فى المجاز المرسل ، وان كنت لا أوافقه على هذا الخلط ، وما ذهب اليه الغزالى هو الصواب بل هو المعروف لدى البلاغيين ، وان كان ولابد من مثال فسوف نورد بعض اعتراضاته على الامام الغزالى فى قسم من أقسام المجاز المرسل ، فقد ذكر الغزالى — حسبما أورد ابن الاثير — قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام

---

(١٠) المثل السائر جـ١ ص ٣٦٤ تح محيى الدين .

ومن دخل معه السجن (انى أرانى أعصر خمرا) وكما هو معروف لدى البلاغيين فهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يئول اليه أى انى أعصر عنبا يئول ويصير ويتحول الى خمر ، وهذا لا خلاف عليه عندهم غير أن ابن الاثير لا يرى ذلك مجازا مرسلا ، وانما يراه استعاره فيقول (وهو من باب الاستعارة ، لا ، بل أوغل فى المشابهة من ذاك لان الخمر من العنب) (١١) وهذا رأى مدحوض لابن الاثير لانه لاشك فى أن هذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون والمثال الاخر من الامثلة التى عدها الغزالى من المجاز المرسل ورفضها ابن الاثير ما علاقته الجزئية فقال : (تسمية الشىء باسم جزئه كقولك لمن •• تبغضه أبعد الله وجهه عنى ، وانما تريد سائر جثته) (١٢) • فاعتبر ذلك أيضا من الاستعارة ، وهذا خطأ من ابن الاثير لان ذلك أيضا مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وهذا من نوع قوله تعالى (فتحرير رقبه مؤمنه) فالمتكلم ذكر لفظ الجزء فى المثال والاية الكريمة غير أن المراد هو لكل لا الجزء •

وعلى كل فان الغزالى كان مصيبا فى دراسته للمجاز ، ولكن شهوة المناقضة والانتقاص لدى ابن الاثير جعلته يقف موقفا متخبطا من دراسة الغزالى لهذا اللون البيانى • والملاحظ أنه كان يقسم المجاز الى أقسام ثلاثة : هى التوسع ، والتشبيه ، والاستعارة وقد جاءت هذه الدراسة ، وتلك الاقسام أثناء كلامه عن الاستعارة ، وهى التى سوف نعرض لها فيما بعد ، مع باقى ألوان علم البيان •

---

(١١) المثل السائر جـ١ ص ٣٦٩ •
(١٢) المثل السائر جـ١ ص ٣٧١ •

التشـــــبيه

معروف أن التشبيه هو الحاق أمر بأمر فى معنى من المعانى بأداة مـن أدوات التشـبيه ، فالأمـر الأول هـو المشـبه والثانى هـو المشـبه به ، والمعنى الذى يشـتركان فيـه هو وجه الشبه بأداة من أدوات التشبيه المعروفة سواء كانت اسما أو فعلا ، أو حرفا ، وقـد قسم علماء البلاغـة مصطلح التشبيه الى أقسام عديدة سواء بالنسبة للطرفين من حيث الحسـية والمعنوية ، أو من حيث الافراد والتركيب ، ومن ناحية اثبات الاداة وحذفها ، ومن ناحية وجه الشبه ، من حيث الحسن والقبح وما الى ذلك .

ودرس ابن الاثير فى كبته أيضا التشبيه ، وكان له رأى فيه خاصة التشبيه المضمر الاداة ، وثمة حقيقة نود أن نقررها بادىء ذى بدء ، وهى أن ابن الاثير خلط أحيانا بين التشبيه والاستعارة على عادته فى الخلط بين أبواب المجاز والوانه على نحو ما سنوضح فى دراستنا له .

تعريف التشبيه عنده ، يعرف ابن الاثير التشبيه بقوله (حد التشبيه هو أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به) (١٣) وهذا تعريف قاصر للتشبيه لانه لم يتناول الطريقة التى يتم بها هذا الاثبات ، كما قد يكون هذا الاثبات لاجمال فيه ، ولا قبح ، بل

---

(١٣) المثل السائر جـ١ ص ٤١٧ .

يكون على طريقة التقريب ، كأن نقول هذا اللون ، أو هذا اللباس فى سوادة يشبه سواد الليل ، فلا قيمة بلاغية مرجوة من هـذا التشبيه ، بل هو مبتذل يجرى على ألسنة العوام كثيرا ليس فيه قوة التخييل ، لانه خال من الابداع ، ولذا فاننا اذا ايممنا تجاه كتابه الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور ، وجدنا تعريفا آخر للتشبيه أقرب الى الحد البلاغى له عند البلاغيين فيقول (وحده أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به ، ويقال : هو الدلالة على اشتراك شيئين فى معنى من المعانى ، وأن أحدهما يسد مسد الآخر ، وينوب منابه سواء كان ذلك حقيقة أو مجازا .... واعلم أن التشبيه يكون بأداته كالكاف ، وكأن ، وما جرى هذا المجرى ، ويكون بغير أداته ، وهو أن يجعل الكلام خلوا منها صالحا لتقديرها فيه) [١٤] .

وهذا التعـريف كما نرى يتطـابق الى حد كبير مع تعريف البلاغيين للتشبيه كما بينا سلفا ولكن الذى زاده فى هذا التعريف هو تعريفه للتشبيه البليغ عندما تحذف الاداة ووجه الشبه ، ومما يحمد له أيضا أنه أثبت أن تشبيه شىء بشىء اما أن يكون على الحقيقة ، أو على المجاز ، فما كان على الحقيقة فهو كتشبيه شىء أبيض باخر أبيض مثله ، أو بشىء أسود ، باخر مثله ، ولذا فانه بقول على مثل ذلك التشبيه (وليس هذا من غرضنا) [١٥] ، وأما

---

(١٤) الجامع الكبير ص ٩٠ ، ٩١ .
(١٥) الجامع الكبير ص ٩٠ .

المجاز فكقولنا زيد أسد ، فليس زيد هو نفسه ذلك الحيوان المفترس لكنه شبيه به فى بعض أوصافه وذلك يكون على سبيل المبالغة ، والبيان والايجاز (١٦) •

وقد قسم التشبيه بعد ذلك الى أقسام ، كما فعل البلاغيون ، سواء من حيث الطرفين — أى المشبه والمشبه به — أو من حيث الاداة، أو من حيث وجه الشبه ، وتكلم عن التشبيه المقلوب ووسمه بأنه المسمى بغلبة الفروع على الاصول كما تناول التشبيهات الحسنة، وبين الرديئة كما سوف نعرض •

أولا : أقسامه من حيث الافراد والتركيب : يقسم التشبيه من حيث الافراد والتركيب فى كتابه الجامع الى ثلاثة أقسام :

(أ) مفرد بمفـــرد •

(ب) مركب بمركب •

(ج) مفرد بمركب (١٧) •

أما فى كتابه المثل السائر فانه يقسمه الى أربعة أقسام فيزيد على الثلاثة المتقدمة نوعا رابعا ، وهو تشبيه المركب بالمفرد •

ويقرر منذ البداية بأن تشبيه المفرد بالمفرد يكون فيه تشبيه شىء واحد بشىء واحد ، أما المركب فيكـــون التشـــبيه فيه بين شيئين أو اكثر بشيئين أو أكثر كذلك (١٨) • وضرب لكل نوع مثاله •

---

(١٦) المثل السائر جا ص ٣٩٤ •
(١٧) الجامع الكبير ص ٩٢ •
(١٨) المثل السائر جا ص ٣٩٨ •

(أ) فمن تشبيه المفرد بالمفرد قول البحترى :

تبسم وقطوب فى ندى ووغى ∴ كالغيث والبرق تحت العارض البرد

(ب) ومن أمثلة المركب بالمركب قوله تعالى (انما مثل الحيواة كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل النـــاس والأنعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) • فقد شبه حال الدنيا بسرعة زوالها وانقراض نعيمها وادبارها ، بهيئة نبات الأرض فى جفافه وذهابه طعاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض •

(ج) ومثل لتشبيه المفرد بالمركب بقول الشاعر :

كأن السها انسان عين غريقة ∴ من الدمع يبدو وكلما ذرفت زرفا (١٩)

(د) وهو تشبيه المركب بالمفرد وقد مثل له بقول أبى تمام فى وصف الربيع :

ياصاحبى تقصيا نظر يكمـــا ∴ تريا وجـوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شـــــابه ∴ زهـر الربا فكأنما هو مقمـــر

ثم يقول معلقا على ذلك (فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر وهو تشبيه حسن واقع موقعه مع ما فيه من لطف الصنعة) (٢٠) •

---

(١٩) الجامع الكبير ص ٩٣ : ص ٩٦ •
(٢٠) المثل السائر جا ص ٤١٥ •

والنوع الأخير عنده ينقسم الى قسمين :

١ — تشبيه شيئين مشتركين بشىء واحد كقول أبى تمام سالف الذكر فى وصف الربيع .

٢ — تشبيه شيئين منفردين بشىء واحد كقول المتنبى :

تشرق أعراضهم وأوجههم .:. كأنها فى نفوسهم شيم

ثم يقسم التشبيه ايضا باعتبار طرفيه تقسيما آخر من حيث الحسية والمعنوية فالحسى ما يدرك هو أو ما دته باحدى الحواس الخمس ، أما المعنوى فهو المدرك بالعقل لا بالحواس ، ويورد لذلك ثلاثة أقسام بكتابه الجامع (٢١) ، ويوردها أربعة فى المثل ، والاقسام الاربعة هى :

١ — معنى بمعنى .

٢ — صورة بصورة .

٣ — معنى بصورة .

٤ — صورة بمعنى .

ويقصد بالمعنى هو ذلك الشىء المدرك بالعقل عكس الصورة ، فانه يعنى بها المدرك الحسى وجاء عليه بالامثلة :

ففى تشبيه المعنى بالمعنى ضرب مثلا لذلك بقوله : زيد كالاسد

---

(٢١) الجامع الكبير ص ٩١ .

وان كنت أعتقد أن ظاهر هذا المثال يوحى بأنه تشبيه صورة بصورة لان زيدا مرئى ، الأسد كذلك ، وهناك وجه بعيد ربما ذهب اليه ابن الأثير وهو أنه أراد أن يشبه شجاعة زيد ، بشجاعة الأسد وهذا بعيد (٢٢) •

— وتشبيه صورة بصورة كقوله تعالى : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالاعلام) •

— وأما تشبيه معنى بصورة كقوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) •

فمثل لما يدرك بالعقل وهو الأعمال بما يدر بالحس وهو السراب

— وآخر الأقسام وهو تشبيه صورة بمعنى ومثل له بقول أبى تمام :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا ∴ فتك الصبابة بالمحب المغرم

فشبه فتكه بالمال وبأعدائه ، بفتك الحب بالحبيب ، فالاولى صورة حسيه مرئية عكس الثانية فهى معنوية عقلية ، ولذا تراه علق على ذلك بقوله (وهذا القسم من ألطف الاقسام الأربعة ، لأنه نقل صورة الى غير صورة) (٢٣) •

وهذا يجعل السامع بدون شك يتخيل المعنى ، واثبات هذا المعنى فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، بالاضافة الى جانب

---

(٢٢) المثل السائر جا ص ٣٩٨ •
(٢٣) الجامع الكبير ص ٩١ •

المبالغة والوضوح ، والايجاز •

أما من حيث الاداة فانه تكلم عن التشبيه مثبت الاداة كما تقدم فى الأمثلة سالفة الذكر ، وتكلم أيضا عن التشبيه مضمر الاداة ، مضمر وجه الشبه أيضا ، غير أنه وان لم يذكر اضمار وجه الشبه صراحه لكن ذلك موجود فى الامثلة التى جاء بها ، فعندما تكلم عن حد التشبيه فقال (ويكون بغير أداته ، وهو أن يجعل الكلام خلوا منها صالحا لتقديرها فيه ، واذا جاء التشبيه بغير أداته كان أبلغ وأوجز) (٢٤) ويضرب لذلك مثلا : «زيد أسد» اذ تقدير الكلام زيد كأنه الأسد ، فحذف الاداة وكذا وجه الشبه ، فصار المشبه هو نفسه المشبه به فأخذ كل ما للاسد من شجاعة وقوة وهيبة الى غير ذلك — دون الحيوانية طبعا — وبذا صار هذا اللون من ألوان التشبيه أبلغ وأشد موقعا بالنفس وأوجز •

وأثناء كلامه عن هذا اللون من التشبيه تناول تشبيه التمثيل وان لم يعرفه ، وكما هو معروف عند البلاغيين فان تشبيه التمثيل ما كان وجهه وصف منتزع من متعدد كقول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ∴ وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وعلى كان فان ابن الأثير اثناء تقسيمه التشبيه مضمر الاداة قسمة الى أقسام منها تشبيه المفرد بالمفرد ،أو المفرد بالمركب،كما مر

---

(٢٤) الجامع الكبير ص ٩١ •

سلفا ، لكنه أتى بأقسام ثلاثة فقال (والقسم الثالث لا يرد الا فى تشبيه مركب بمركب ، والقسم الرابع والخامس لا يردان الا فى تشبيه مركب بمركب) وقد مثل لهذه الاقسام أمثلة تدل على ماذهبنا اليه فمن تلك الامثلة قول الرسول ﷺ (وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم الا حصائد ألسنتهم) •

أو قول الفرزدق فى هجاء جرير :

ماضر تغلب وائل اهجوتهـــــــا ∴ أم بلت حيث تناطح البحـران

(فشبه هجاء جرير تغلب وائل ببوله فى مجمع البحرين ، فكما أن البول فى مجمع البحرين لا يؤثر شيئا فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر شيئا) (٢٥) • فاذا ما طبقنا تعريف البلاغيين لتشبيه التمثيل وجدناه يصدق على هذه الامثلة فان وجه الشبه فى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام وبيت الفرزدق منتزع من متعدد سواء فى المشبه أو المشبه به ، وان كان قد خلط بين التشبيه مضمر الاداة ، وبين الاستعارة أحيانا على نحـــو ما سوف نوضح فى درســـنا للاستعارة عنده •وأثناء كلامه عن الشبيه المضمر الاداة ينتبه الى لون من التشبيه قد يخفى على البعض الاوهو نوع من التشبيه ينتج من المصدر المضاف وهو أحد الوان التشبيه البليغ أيضا لانه جاء خاليا من الاداة ووجه الشبه وضرب له مثلا : قدم اقدام الاسد،

(٢٥) المثل السائر جا ص ٣٩١ •

وفاض فيض البحر ، والتقدير أقدم كاقدام الأسد ، وفاض كفيض البحر ، أو كقول أبى نواس فى وصف الخمر :

واذا ما مزجوهــا ∴ وثبت وثب الجـــراد
واذا ما شـــربوها ∴ أخذت أخــذ الرقــاد

اذا التقدير وثبت كوثب الجراد ، وأخذت كأخذ الــرقاد وهذا من أفضل أنواع التشبيه وأحسنها ولذا يقول عنه ابن الأثير (وهو أحسن ما استعمل فى باب التشبيه) (٢٦) ٠

وآخر الالوان التى أوردها لأقسام التشبيه ما عــرف لدى البلاغيين بالتشبيه المقلوب أو المنعكس ، وهو ما يرجع فيه وجه الشبه الى المشبه به ، وذلك عندما يراد تشبيه الزائد بالناقص،ويلحق الأصل بالفرع بقصد المبالغة ، وهو جار على خلاف العــادة فى التشبيه ، ولذا يفضل غيره ، وقد عرفه ابن الأثير بقوله (واعلم أن من التشبيه ضربا يسمى « غلبة الفروع على الاصول » وهو ضرب من الكلام ظريف ، ولا تكاد تجد شيئا منه الا والغرض به المبالغة) (٢٧) ٠

وسواء أكانت التسمية المقلوب أو المنعكس أو غلبة الفروع على الأصول فان هذا التشبيه جار على خلاف العادة فى التشبيه حيث اننا فى التشبيه نشبه الشىء بما هو أحسن أو اعظم أو أظهر أو

---

(٢٦) المثل السائر جا ص ٣٩٥ ٠
(٢٧) الجامع الكبير ص ٩٧ ٠

أشهر منه بهدف الايضاح أو المبالغة أما فى هذا النوع (فيجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به) (٢٨) •

وذلك مثل قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعتــه ∴ اذا البســته المظلمات الحنادس

فالعادة أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الرمل لا العكس ، لكن ذا الرمة عكس فتشبيه كثبان الانقاء باعجاز النساء بقصد المبالغة •

ومنه أيضاً قول البحترى :

فى طلعة البدر شيء من محاسنهــا ∴ وللقضيب نصيب من تثنيها

فالعرف قد جرى بأن تشبه الطلعة بالبدر ، والقد بالقضيب لا العكس كما فعل البحترى ، بل جعلها الأصل فى الاشياء التى أخذها منها البدر والقضيب ولعلك تلاحظ المبالغــة التى تطل برأسها من لفظتى شيء ونصيب •

كما تناول الحسن والردىء من التشبيه فعرف التشبيه الردىء بأنه الذى (يكون بين المشبه ، والمشبه به تباين) وبعد (٢٩) ، وقد كان العربى يمدح بانه اذا شبه قارب ، من ذلك ما مدح به امرىء القيس ، ولذا عيب من باعد بين المشبه والمشبه به كقول الشاعر :

ملا حاجبيك الشـعر حتى كانـه ∴ ظباء جرت منهـا سنيح وبارح

---

(٢٨) المثل السائر جا ص ٤٢١ ويسميه أيضا ابن الاثـير بتشبيه الطرد والعكس •

(٢٩) الجامع الكبير ص ٩٦ والمثل جا ص ٤١٧ •

(٣١) المثل السائر جا ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ •

فشبه شعرات بيضاء فى حاجبيه بالظباء السانحة والبارحة وفرق بعيد بين هذه الشعيرات ، وبين الظباء .

أما الحسن منه ما قارب فيه المتكلم بين المشبه والمشبه به ، أو أن يمثل الأستر بالاظهر ، أو غير المعتاد المعروف أو تمثيل الشىء بما هو أعظم منه ، كل ذلك من أجل بيان المقصود وايضاح المعنى المراد أو بهدف المبالغة أو التحسين والتزيين ، ؤو التقبيح والتنفير ومثلوا لهذا بقول ابن الرومى فى مدح العسل وذمه :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه .:. وان تعب قلت ذاقىء الزنابير

ولعل هذا من بلاغة التشبيه . وأغراضه وهى كثيرة متنوعة فأحينا يكون فى معرض المدح ، وأخرى فى معرض الذم ، وأحيانا للابانة والايضاح أو المبالغة .

وبعد فهذا هو التشبيه ، وهذه دراسة ابن الاثير له وهذا ما قدمناه عنه وهو فى كثير من جوانبه يأتى وفق ما قدمه علماء البلاغة لهذا اللون من ألوان البيان بأقسامه وأنواعه وأمثلته ، وان كان يؤخذ عليه أنه اتى بألوان من الاستعارة واعتبرها من التشبيه مضمر الاداة وذلك مثل قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) وقوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) (٣٠) . وهو ما سوف نعرض له عند الكلام عن الاستعارة .

---

(٣٠) المثل السائر جا ص ٤٠٠ .

الاســـــتعادة ودراســـــة
ابن الأثـــــــير لهـــا

درس ابن الأثير الاستعارة ، كما درس التشبيه ، باعتبارها من الوان المجاز غير أن دراسة ابن الأثير لها دراسة مسطحة لاعمق فيها مثلما فعل غيره من البلاغيين الذين غاصوا فى أعماقها وسبروا أغوارها واستخرجوا دررها ، أما هو فليس له الا التفريق بينها وبين التشبيه مضمر الاداة،وان خلط أيضا خلطا فاحشا بينهما ،وماعدهمن التشبيه مضمر الاداة ، فى كتابه المثل السائر ، عاد واعترف بأنه من أحسن الاستعارات فى كتابه الجامع على النحو الذى سوف نعرض له • ويحدد خطته فى الدراسة ، فانه سوف يتناول (ما يختص بالاستعارة التى هى جزء من المجاز ، ولم سميت بهذا الاسم ، وكشف عن حقيقتها ، وميزتها عن التشبيه المضمر الاداة) (٣١) •

والاستعارة عند البلاغيين هى استخدام اللفظ فى غير ما وضع له لعـــلاقة المشـــابهة مع قرينـــة مانعـــة مـــن ارادة المعـــنى الأصـــلى ، كقولنا : رأيت أســـدا يخطـــب فى الناس ، فقـــد استعرنا كلمـــة أســـد لتدل على رجل بينه وبين الاســـد صلة ، أو صفة اشتركا فيها سويا وهى الشجاعة وجاءت كلمة يخطب فى الناس لتمنع ارادة لفظ الاسد على حقيقته فتعين أن يكون رجـــلا

---

(٣١) المثل السائر جـ١ ص ٣٥٥ ، ص ٣٥٦ •

موصوفا بالشجاعة كالأسد ، وهى قائمة أساسا على التشبيه الا أننا نحذف المشبه ، والاداة ، ووجه الشبه ، وبذا تسمى الاستعار بالتشبيه الناقص ، كما تفترق عن المجاز المرسل من ناحية العلاق فهى فى الاستعارة مقيدة بالمشابهة أما فى المجاز المرسل فلم تقيد بهذا القيد ، لتنوع العلاقات .

وقد عرف ابن الأثير الاستعارة ، فقال (ان الاستعارة جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما ، يكسب بيان أحدهما بالاخر) (٣٢)، ويعرفها أيضا فى كتابه المثل فيقول عنها (حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما . مع ذكر المنقول اليه) (٣٣) كم كما تكلم عن القرينة ورأى أنها تفهم من فحوى اللفظ ، أى من سياق الكلام أو من اللفظة الموجودة المانعة .

أما فى كتابه المفتاح المنشا فلم يعفها واكتفى بأن دلل عليه بأشياء تنم عن فهمه لها فقال (وأما الاستعارة ، فهو أن تقول خرت الجبال الرجاك واستغنى النهار بشعاع البيض عن الشمس وجرى نهر الصياح حتى ملأ الأفق ، ولقد أحسن ابن الطثرية فى قوله :

ولما قضينا من منى كل حاجـــة .·. ومسح بالاركان من هو ما ســمح
وشدت على دهم المهادى رحالنا .·. ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا باطرف الاحاديث بيننا .·. وسالت بأعناق المطى الاباطح (٣٤)

---

(٣٢) الجامع الكبير ص ٨٣ .
(٣٣) المثل جا ص ٣٦٥ .
(٣٤) المفتاح المنشأ ص ٣١١

وفهمه وتعريفه للاستعارة مقبولان خاصة تعريفه لها لأنه قريب من واقع الاستعارة خاصة بعدما اشترط القرينة المانعة ، وقد حدد أركان الاستعارة فاشترط أنه لابد للاستعارة من ثلاثة أشياء :

١ — المستعار .

٢ — المستعار منه .

٣ — المستعار له .

فاللفظ المستعار هو الذى قد نقل من أصل الى فرع بهدف التوضيح والابانة ، أما الطرفان أى المستعار منه والمستعار له فهما لفظان حمل أحدهما على الآخر فى معنى من المعانى ، وهذا المعنى المأخوذ أوالمحمول حقيقى ومجازى فى وقت واحد فهو حقيقى بالنسبة للمأخوذ منه ، مجازى للمحموله اليه ، فمثلا قوله تعالى :

« واشتعل الرأسى شيبا » فالاشتعال هو المستعار ، وهو خاص بالنار فنقل الى الشيب بهدف الابانة ، فالاشتعال للنار حقيقة ، وللشيب مجاز ، وبذا تصير النار مستعارا منه ، والشيب مستعار له ، ومن ثم توجب أن تكون ثمة مناسبة بين المستعار منه ، والمستعار له ، اذ لو افتقدت هذه المناسبة لعسر فهمها (ان الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له ، فانها لا تجىء الا ملائمة مناسبة ، ولا يوجد فيها مباينة ، ولا تباعد لأنها لا تذكر مطوية الا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ، ولو طويت، ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها

ولم يبين المراد منها) (٣٥) • ولما كانت الاستعارة قائمة على التشبيه فانه آلى على نفسه الا أن يبين الفرق بينها وبين التشبيه المضمر الاداة ، غير أنه يتمحل فى هذا التفريق ، فيقول فى المثل انالفرق بين التشبيه مضمر الاداة ، والاستعارة (أن التشبيه المضمر الاداة يحسن اظهار اداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن ، وعلى هذا فان الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذى هو المنقول اليه ، ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول) (٣٦) •

ومن حيث الطى فنعـــم ، أما من حيث الاداة فـــلا لأنه نسى أو تناسى القرينة المانعة من ارادة المعنى الاصلى للكلام ، فعندما مثلنا بالمثال السابق : رأينا أسدا يخطب فى الناس ، فان لفظةيخطب معنت من ارادة الاسد على حقيقته ، وتحقق أن يـــكون هذا استعارة لاتشبيها •

ولسنا أيضا نوافقه فى ادعائه بأن قول الشاعر :

فرعاء ان نهضت لحاجتها ... عجل القضيب وابطـــا الدعص

تشبيه ، أى عجل قد كالقضيب : وأبطاء ردف كالدعص ، ويراه من قبيل قولنا زيد أسد ، فكلاهما تشبيه مضمر الأداة بدليـــل

---

(٣٥) المثل السائر جا ص ٣٨٣ •
(٣٦) المثل السائر جا ص ٣٥٧ •

استحسان دخول الاداة عليهما دون خلل أو ذهاب لفصاحة الكلام ، ونحن لو وافقنا معه ورددنا الاداة فى المثال الثانى لجاز لأنه فى الأصل تشبيه حذف أداته ووجه شبهه فنقول زيد كالاسد دون أن نحذف أو نضيف شيئاً بعد ذلك ، فلو طبقنا هذا على كلامه لاحتجنا الى المشبه مرة ثانيـــة وهو القد والردف فيســـتحيل الكلام الى تشبيه ويبعد عن الاستعارة ، وهذا مما يؤخذ على ابن الاثير(٣٧) فهـــذا من التشـــبيه وليس من الاســـتعارة فى شىء وليس هذا هو التخليط الوحـــيد فى الاســـتعارة ، فـــان ما عـــدة من التشبيه المضمر الاداة عنوة وقهرا فى كتابه المثل وسخف به الرأى الآخر لأنه كان يناقش لأجل المناقشة فقط ، عاد واعتبره من أجود الاستعارات فى كتابه الجامع •

فيقول : ومن محاسن التشبيهات قوله تعالى ••• ومن هذا الاسلوب قوله تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » ••• وهذا تشبيه فى غاية الحسن ، وكذلك ورد قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » (فهـــذه أوصـــاف أربعـــة جامعة بين المشـــبه والمشبه به) (٣٨) •

ويقول أيضا : (ومما أورده ابن سنان فى كتابه الموسوم بســـر الفصاحة قول امرىء القيس فى صفة الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجاز وناء بكلكل

(٣٧) انظر المثل جا ص ٣٥٧ : ص ٣٦٠ •

(٣٨) انظر المثل السائر جا ص ٤٠٠ وقد درسه ضمن باب التشـــبيه المضمر الاداة •

وهذا البيت من التشبيه المضمر الأداة) (٣٩) .

وكل هذه الأمثلة للاستعارة وليست من التشبيه فى شىء ، والدليل على ذلك بالاضافة الى دراستنا المتقدمة فى التشبيه ، اعترافه هو نفسه فى كتابه الجامع الكبير فقال عن قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) ، (فهذا مستعار ، ومستعار منه ومستعار له ، فالمستعار هو الاشتعال ... وأما المستعار منه فهو النار والاشتعال لها حقيقة ، وأما المستعار له فهو الشيب والاشتعال مجاز) (٤٠) .

وعن قوله تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) فبعد أن أجرى الاستعارة علق قائلا (فانظر أيها المتأمل لهذه الاستعارة شدة التناسب الذى بينها وبين ما استعيرت له ، ومشابهتها اياه ، فانها من الاستعارات التى لا أمد فوقها فى الحسن) (٤١) . أما بيت امرىء القيس فبعد أن أورد رأى الآمدى ، وابن سنان الخفاجى، وأكد أنها استعارة علق قائلا (وذلك من الاستعارات المناسبة التى لا أمد فوقها فاعرفها) (٤٢) . وكما خلط بين التشبيه المضمر الأداة والاستعارة ، خلط أيضا بين الكناية والاستعارة ، فعد أشياء من الاستعارة وهى من صلب الكناية من ذلك على سبيل المثال : قول

---

(٣٩) انظر المثل السائر جـ١ ص ٣٨٤ .
(٤٠) الجامع الكبير ص ٨٤ .
(٤١) الجامع الكبير ص ٨٤ .
(٤٢) الجامع الكبير ص ٨٨ .

الرسول ﷺ (« أما انكم لو أكثرتم من ذكرها ذم اللذات لشغلكم عما أرى ») وهاذم اللذات أرادبه الموت ، وهو مطوى الذكر (٤٣) فهذه كناية عن موصوف وليست استعارة كما ذهب •

كما أورد للاستعارة أيضا قول الشاعر مسكين الدارمى :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته ∴ ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه ان الحديث من القرى ∴ وتعلم نفسى انه سوف يهجع

وعلق عليه قائلا (فالغزال المقنع هنا استعارة للمرأة الحسناء) (٤٤) •

وهذا أيضا ليس من الاستعارة بل هو كناية عن موصوف وهو المرأة الحسناء • ولكن ليس معنى هذا أنه لم يقدم شيئا عن الاستعارة ، بل يكيفية ماقدم بجانب هذه الأمثلة العديدةللاستعارة(٤٥) سواء من أقواله أو من أقوال الآخرين بالاضافة الى تقسيمه الاستعارة الى جيدة مناسبة ، وغير مناسبة (٤٦)وقد اقام الجيدة وغير الجيدة منها على القرب أو التباعد بين المستعار منه والمستعار له ، وهذا يدل على ذوق وبصر بالاستعارة ، من ذلك ما أورده فى كتابه المفتاح المنشا فقد أورد فيه نوعا عرف باسم المماثلة ، وقال عنه انه

---

(٤٣) المثل السائر جا ص ٣٧٥ •
(٤٤) لمثل السائر جا ص ٣٧٦ •
(٤٥) المثل السائر جا ص ٣٧٤ وما بعدها ، والجامع ص ٨٢ ومابعدها
(٤٦) الجامع الكبير ص ٨٤ ، ص ٨٨ •

ضرب من الاستعارة لانه فعلا قائم عليها فيستعار فيه شيء لشيء آخر كقول زهير :

ومن يعص أطراف الزجاج فانه ∴ مطيع العوالى ركبت كل لهزم (٤٧)

فالزجاج لا تعصى ، والرماح لا تطاع ، وانما يفعل ذلك مع حامليها • ويرى تقديره أن من لم يرض بأحكام الصلح رضى بأحكام الحرب والذى يتحكم هو الانسان المحارب لا الحرب نفسها •

الكناية والتعريض

من المعروف أن الكناية هى استخدام لفظ ويراد به لازم معناه الحقيقى لقرينة غير مانعه من ارادة المعنى الحقيقى مع المعنى المراد، وذلك مثل قوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه) نقول ان فى هذه الآية كناية فعض اليدين لم يقصد على حقيقته وهو العض ، وانما اريد ما يلازم العض ، وهو الندم على فوات محبوب أو مأمول غير أن عض اليدين على الحقيقة ليس ثمة ما يمنع من جواز ارادته أيضا اذا المعروف ان الانسان النادم غالبا ما يعض على يديه أسى وحزنا ، وهذا معنى قولهم لقرينة غير مانعة من ارادة المعنى الحقيقى مع المعنى المراد ، وبهذا تختلف الكناية عن الاستعارة والمجاز المرسل اذ القرينة فيهما مانعة من ارادة المعنى الحقيقى •

---

(٤٧) المفتاح المنشا ص ٣١٢ •

ويقسم البلاغيون الكناية الى ثلاثة أقســام باعتبار المكنى عنــه ٠

(أ) كناية صفة : وفيها يصرح المتكلم بالموصوف وصفة ليست هى المرادة بل تسلتزم الصفة المرادة مثل : محمــد كثير الرماد رفيع العماد ٠

(ب) كناية عن موصــوف : ويصرح فيها بالصفة التى تختص بالموصوف الذى لا يذكر مثل قوله تعالى : « وحملناه على ذات الواح ودسر » ٠

(جـ) كناية عن نسبة : فتذكر نسبة غير مرادة لكنها تستلزم النسبة المرادة مثل قولنا : المجد يمشى فى ركاب على ٠

والهدف من استعمال الكناية هو الوقوف على الحقيقة المدعومة بالبرهان ، أو ابراز المعنى فى صورة حسية ، أو أداء المعنى بألفاظ لا يمجها الذوق ولا ينفر منها السمع ٠

هذه صورة موجزة للكناية عند البلاغيين ، والسؤال الان كيف درسها ابن الاثير ؟ انه ن يقرأ كتب الرجل سوف يراه درسها كما درس الاستعارة قبلها بصورة بسيطة لا عمــق فيها ولا غور ، وكأننا به استفرغ جعبته واستنفذ طاقته فى فن التشبيه ، نقول درسها ، ولكنه لم يقسم ولم يفصل ، وان قسم تقسيمات بمسميات بعيدة عما تعارف عليه البلاغيون ٠ غير ان حدها عنده يدل على فهم بها ، ومما يحمد له تفريقه بين الكناية والتعريض ، اذ المعروف الشائع أن التعريض غرض من أغراضها ، لكنه فرق بينهما تفريقا

وجيها كما سوف نعرض وقد عرف ابن الاثير الكناية فقال : (انها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز) (٤٨) أو هى بايجاز : أن يذكر المتكلم شيئا ، ويقصد به سواه (٤٩) وهذا دليل على أن المستخدم للكناية عندما يتكلم فان كلامه يدل على ما تكلم به ، وعلى ما أراده من غيره فهو قد استخدم الالفاظ على الحقيقة ، لكنه يريد ما تحتها من معان مجازية ، وهذه المعانى المجازية هى التى وردت فى تعريف البلاغيين وعرفت عندهم بلازم المعنى وليس هناك مانع من ارادة الحقيقة والمجاز ومن ثم يقول ابن الأثير (وكل موضع ترد فيه الكناية فانه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، ويجوز حمله على كليهما معا). وبهذا تتفوق الكناية عن التشبيه من ناحية ، وعن الاستعارة من ناحية أخرى . فأما وجه الفرق بين الكناية والتشبيه ، أن الكناية يجوز أن يقصد بها الحقيقة ، كما يقصد بها المجاز ، فهى تحمل على الجانبين معا ، أما التشبيه ، فانه لا يجوز حمله الا على جانب المجاز خاصة . اذا لو أردنا المعنى الحقيقى مع المعنى المجازى لفسد المعنى واستحال، فعند ما نشبه زيدا بالاسد ونقول زيد أسد ، فاننا لا نقصد من وراء هذا التشبيه الا المعنى المجازى من حيث الشبه بينهما فى القوة والشجاعة أو غير ذلك ، أما فى الناحية الحقيقية فلا لأننا (لو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى لان زيدا ليس ذلك الحيوان ذا الاربع والذنب والوبر والأنياب والمخالب) (٥٠) .

---

(٤٨) المثل السائر جـ٢ ص ١٩٤ وانظر الجامع الكبير ص ١٥٧ .
(٤٩) المفتاح المنشا ص ٣١٢ .
(٥٠) المثل السائر جـ٢ ص ١٩٣ .

وثمة فروق بينها وبين الاستعارة أيضا ، فالكناية جزء من الاستعارة لأنها تأتى على حكمها اذ الاستعارة لابد أن يطوى فيها ذكر المستعار له ، وكذا الكناية لابد أن يطوى ذكر المكنى عنه ، فتكون النسبة بينهما نسبة خاص الى عام فكل كناية استعارة لوجود جانب المجاز وليس كل استعارة كناية لوجود جانب الحقيقة •

كما أن الاستعارة لفظها صريح ، والكناية بخلاف ذلك لانها عدول عن ظاهر اللفظ • هذا بالاضافة الى جانب الحقيقة والمجاز فى الكناية ، فتكون الكناية بجانب المجاز جزء من الاستعارة والاستعارة جزء من المجاز (فتكون نسبة الكناية الى المجاز نسبة جزء الجزء ، وخاص الخاص) (٥١) •

وبعد هذا العرض نقول انه قسم الكناية الى أقسام ، لكنها غير أقسام البلاغيين فيقسمها الى ضربين : أحدهما يحسن استعماله والآخر ضده أى يقبح استعماله ، وقسم ما يحسن استعماله الى أربعة أقسام (٥٢) ، كما قسم الأرداف الى خمسة أقسام

---

(٥١) المثل السائر جـ٢ ص ١٩٧ •

(٥٢) هذا التقسيم ورد فى الجامع الكبير ص ١٥٧ أما فى كتابة المثل السائر فقد قسمها الى ثلاثة أقسام : تمثيل وارداف ومجاورة والرابع من كتابه الجامع وهو ما ليس بتمثيل ، ولا ارادف ولا مجاورة كما أن الارادف يكون عنده أحيانا ، كناية عن صنفة ، وأخرى عن موصوف •

الاول : التمثيل : وهو أن ترد الاشارة الى معنى ، فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك مثالا للمعنى الذى أريدت الاشارة اليه والعبارة عنه ، مثل فلان نقى الثوب ، أى منزه عن العيوب ، أو كقوله تعالى : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) فان الأول كناية عن صفة هى الطهر ، والثانية عن الغيبة والنميمة ، فان الكناية فى هذه الآية على طريق التمثيـــل كما يقول ابن الاثير (فانظر أيها المتأمل لهذا التمثيل كيف مطابقته لما مثل به تجده من أبلغ التمثيلات وأندرها مثالا ••••• فتمزيق العرض ، مثل أكل الانسان لحم من يغتابه ، لان ذلك تمزيق على الحقيقة ، وجعل بمنزلة لحم الاخ لأجل المبالغة فى الكراهة • والميت لا متناع الاحساس به واتصال ما هو مستكره بالمحبة لما فى طبع الأنفس من الشهوة للغيبة والميل اليها) (٥٣)

الثانى الارداف : وهو ان ترد الاشارة الى معنى فيوضـــع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك من لوازم ـــ رادفا ـــ المعنى الذى أريدت الاشارة اليه على الحقيقة ، وهذا بخلاف القسم السابق فى قولنا فلان نقى الثوب أى منزه عن العيوب ، لان نقاء الثوب على الحقيقة لا يلزم النزاهة من العيوب بخلاف كناية الارداف عندما نقول محمد طويل النجاد ، فان طول النجاد هذا لابد أن يكون حقيقة لمعنى آخر وهو طول القامة •

---

(٥٣) الجامع الكبير ص ١٥٨ •

وأقسام الارداف خمسة وهى :

١ — فعل المبادهة : ويكنى به عن عدم التثبيت قبل اصدار الحكم كناية عن سفاهة الرأى كما يذهب ويمثل له بقوله تعالى : « ومن أظلم من افترى على الله كذبا وكذب بالحق لما جاءه » فقوله تعالى : « لما جاءه » كناية عن سفاهة رأيه أى أنه لم يتوقف تكذيبه وقت ما سمعه ، ولم يتثبت كما يتثبت أو لوا الرأى والتدبر حتى يتضح الصدق من الكذب (٥٣) ٠

٢ — النوع الثانى من الارداف وهو باب « مثل » وكانت العرب تأتى بهذه الصيغة فى هذا الموضع توكيدا للكلام وتثبيتا لأمره (يقول الرجل اذا نفى عن نفسه القبيح « مثلى لا يفعل هذا» أى أنا لا أفعله فنفى ذلك عن مثله وهو يريد نفيه عن نفسه قصدا للمبالغة فسلك به طريق الكناية ، لانه اذا نفاه عمن يماثله أو يشابهه فقد نفاه عنه لا محالة) (٥٤) ٠

٣ — وهو ما يأتى فى جواب الشرط كقوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث » فكنى بقوله (فهذا يوم البعث) عن بطلان كذبهم وانكارهم لذلك اليوم (وذلك ارداف له ، ونظيره قولك تنكر حضور زيد فها هو زيد ، أى فأنت كاذب ، وهذا من دقائق الكناية فاعرفه) (٥٥) ٠

---

(٥٣) الجامع الكبير ص ١٦٠ ٠
(٥٤) الجامع الكبير ص ١٦١ ٠
(٥٥) الجامع الكبير ص ١٦٢ ٠

٤ — وهو الاستثناء غير الموجب كقوله تعالى (ليس لهم طعام الا من ضريع) والضريع لا يأكل أصلا ، فكنى به عن عدم الاطعام ، فذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام •

٥ — والنوع الخامس هذا ليس فيه شىء مما تقدم ، من الاشياء الاربعة المذكورة ويمثل له بقوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » (والمعنى المراد من هذا الكلام : أنك أخطأت ، وبئسما فعلت ، وقوله أذنت لهم بيان للمكنى عنه بالعفو أى مالك أذنت لهم وهلا استأنيت ؟ فذكر العفو دليل على الذنب ورادف له ، وان لم يذكره) (٥٦) •

والقسم الثالث من الكناية هو المجاورة : وهو أن يذكر فى الكلام شىء ، فيترك ذكر هذا الشىء الى ما جاوره ، ويقتصر عليه اكتفاء بدلالته على المعنى المستهدف •

كقول عنترة :

وشككت بالرمح الاصم ثيابه .:. ليس الكريم على القنا بمحرم

فيعلق على هذا البيت قائلا (أراد بالثياب هاهنا نفسه ، لأنه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به ، فثبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب وفى ذلك من الحسن ما لاينكره العارف بهذه الصناعة) (٥٧) •

---

(٥٦) الجامع الكبير ص ١٦٣ •
(٥٧) الجامع الكبير ص ١٦٤ وانظر المثل السائر ص ٢٠٠ ج٢ •

أما القسم الرابع فقد عرفه بأنه ما ليس بتمثيل ولا ارداف ولا مجاورة ، ويضرب له مثلا قوله تعالى (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) فكنى بذلك عن النساء لأنهن ينشأن فى الزينة والنعمة ، أما فى الخصومة والمجادلة والمحاجة فانهن لا يستطعن المحاجة والخصومة •

ومنه قول ابى نواس :

تقول التى خفمنبيتها محملى ∴ عزيز علينـا أن نراك تسـير

ويعلق على ذلك (ألا ترى الى حسن هذه الكناية عن ذكر امرأته بقوله « التى من بيتها خف محملى » فانه من ألطفها مذهبا) (٥٨) •

وغريب حقا هذه القسمة وتلك الاقسام من ابن الاثير الذى نسى أنه ناقشها مناقشة مستفيضة فى كتابيه المثل والجامع الا أنه بعد صفحات قليلة — وبعد هذا الحماس فى المناقشة سنراه يعترض على هذا التقسيم فى كتابه المثل السائر فقط فيقول (وهذا التقسيم غير صحيح لان من شروط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصلة عن عموم الاصل) فيعترض على التمثيل ، ويرى أن قوة المناسبة بين الكناية والمكنى عنه أفضل وخاصة اذا كان فى الالفاظ المركبة ، أما اذا كان فى الالفاظ المفردة فان المناسبة والمشابهة تكون ضعيفة ولذا عاب هذا النوع من الكناية قائلا : (وهذا الذى ذكر من أنه من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا غير سائغ ولاوارد، بل

---

(٥٨) الجامع الكبير ص ١٦٥ •

الكناية كلها هى ذاك) (٥٩) ، وبرغم ما فى هذا الرفض من ابهام الا أننا أيضا لا نستسيغ منه هذا التقسيم الذى رفضه فى المثل ، وأيده فى الجامع ، بل تحمس وناقش ومثل ووصف بالابداع والحسن على عادته فى التخبط بين الأشياء لاننا لو تدبرنا الأقسام الأربعة لوجدناها لا تعدو الأقسام الثلاثة التى قسمها علماء الكناية لها ، فبدراسة تحليلية لأمثلته التى أوردها نستطيع القول بأن القسمين الاول والثانى ، أى التمثيل والارداف هما كناية عن صفة •

والقسم الثالث : قريب جدا من الكناية عن نسبة ، أما القسم الرابع فهو كنايه عن موصوف ، وان كان قد خلط ايضا بين هذه الأقسام الثلاثة فتداخل بعضها مع بعض ، لكن مما يحمد له انه تنبه الى الكنايه الحسنه ومثل لها ، وبالكنايه الرديئة وحللها ومثلها، مثله فى ذلك مثل باقى البلاغيين (٦٠) •

وكما درس الكناية فانه أيضا درس التعريض وعرفه بانه (اللفظ الدال على الشىء من طريق المفهوم ، لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى) (٦١) • اى أن المقصود يفهم من سياق الكلام وعرضه فنجد المتكلم يعرض فى طلب شىء ، ويدل على طلبه من غير ذكر المطلوب (٦٢) ، ومن ثم فهو غير معتمد لا على الحقيقه ولا على المجاز، وذلك كقول فقير أمام غنى ، والله انى لمحتاج وليس عندى شىء،

---

(٥٩) المثل ص ٢٠٠ جـ٢ •

(٦٠) المثل السائر جـ٢ ص ٢٠٨ وما بعدها وانظر الجامع الكبير ص ١٥٧ وما بعدها •

(٦١) المثل السائر جـ٢ ص ١٩١ والجامع ص ١٥٧ •

(٦٢) المفتاح المنشا ص ٣١٣ •

وأنا عريان أتأذى من البرد فهو هنا يعرض حالته ويعرض بها ، وقد فهم ما يقصده من سياق الكلام وهذا بخلاف « يوم يعض الظالم على يدية » الموضوع كناية عن الندم كما وضحنا سلفا ، ولذا نراه يفرق بين الكناية والتعريض •

فالتعريض أخفى من الكناية ، لان دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، عكس دلالة التعريض لانها من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى •

كما أن التعريض سمى بهذا الاسم لان المعنى المقصود يفهم فيه من عرضه ، عكس الكناية فهى مشتقة من الستر • فيقال كنيت الشىء اذا سترته ، وأجرى هذا الحكم فى الالفاظ التى يستر فيها المجاز بالحقيقة فتكون دلالة على الساتر والمستور معا (٦٣) •

كما أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا ، فتأتى على هذا وعلى ذاك بخلاف التعريض فانه مختص باللفظ المركب ولا يأتى فى اللفظ المفرد أبدا ، ويفهم من جهة التلويح والاشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد فيحتاج فى الدلالة عليه الى اللفظة المركب• وذلك كقول الرجل العزب لامرأة عزباء : انك لخلية وانى لعزب • ويضرب بعد ذلك مجموعة من الأمثلة (٦٤) سواء من القرآن الكريم أو الاحاديث النبوية الشريفة أو مما استعماله هو فى رسائله ، ولكن يكفى من القلادة ما أحاط بالعنق فنورد مثالا له ونورد أيضا كيفية تحليله لهذا المثال •

---

(٦٣) المثل السائر جـ٢ ص ١٩٥ •
(٦٤) المثل جـ١ ص ٢١٢ : ص ٢١٥ والجامع ص ١٦٦ وما بعدها •

يقول : (فمما جاء منه ــ أى من التعريض ــ قوله تعالى : « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » وغرض ابراهيم صلوات الله عليه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم ،لانه قال « فاسألوهم ان كانوا ينطقون » وذلك على سبيل الاستهزاء ، وهذا من رموز الكلام ، والقول فيه أن قصد ابراهيم عليه السلام لم يردبه نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم ، وانما قصد تقريره لنفسه ، واثباته على اسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم والاستهزاء بهم ، وقد يقال فى هذا غير ما أشرت اليه وهو أن كبير الاصنام غضب أن تعبد معه هذه الاصنام الصغار فكسرها ، وغرض ابراهيم عليه السلام من ذاك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هودونه فان من دونه مخلوق من مخلوقاته ، فجعل احالة القول الى كبير الاصنام مثالا لما أراده) (٦٥) • وعلى هذا المنوال حلل باقى الامثلة التى أوردها باستثناء بعض العبارات التى يزخرف بها كلامه من مثل : وهذا من التعريضات اللطيفة أو من خفى التعريض وغامضه، أو هو من التعريض المعرب عن الأدب ؛ أو من أحسن التعريضات أو من بديع التعريض ، أو من مشكلات التعريض وما شابه ذلك(٦٦) ولولا خشية الاطالة لاوردنا العديد من مثل هذه الامثلة وتحليلاتها، لكنها جميعا لا تخرج عن المثال سالف الذكر •

---

(٦٥) المثل السائر جا ص ٢١٢ ومابعدها •
(٦٦) الجامع الكبير ص ١٦٦ وما بعدها •

ثالثا : دراســـــات ابن الأثــــير

لفــــن البـــديع

رأينا في الصفحات السابقة دراسة ابن الأثير لعلمى المعانى والبيان ، والآن سوف نعرض لدراسة ابن الاثير لثالث الثلاثة وهو علم البديع •

ونود أن نقول اذا كان علم المعانى يبحث فى صميم المعنى المراد ، من حيث مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وعلم البيان يبحث أيضا فى صميم المعنى المستهدف عن طريق أدائه بأساليب مختلفة واضحة بعد مراعاة شروط المعانى ، فان علم البديع يبحث فى اخراج هذا المعنى فى صورة مدبجة جميلة ، ولذا سمى بالمحسنات البديعية • ومن ثم ارتبطت العلوم الثلاثة ببعضها بعضا لان كل منها يكمل الاخر ، ولذا فان الكلام اذا كان غير مطابق لمقتضى حال السامع ، أو كان خفى الدلالة صار البديع كقلادة علقت فى جيد خنزير •

ومن هنا فان تعريف البلاغيين لعلم البديع بعد ، لم يأت من فراغ ، فعندما قالوا عن حد البديع : هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة (١)، فقد اشترطوا فى تعريفه رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة ليتحرز بذلك عما يكون داخلا فى البلاغة مما يتبين فى علوم المعانى والبيان واللغة والنحو والصرف ، فسوف يدخل فى وجوه التحسين ما ليس من المحسنات التابعة لبلاغة الكلام كخلوه من التنافر ، اذن فلا يجوز

---

(١) الايضاح ص ١٩٢ •

أن يراد بوجوه التحسين ، المفهوم الشامل الأعم لها (بل تقول لا يخرج منها الا مطابقة مقتضى الحال والخلو عن التعقيد مطلقا بأن يجرى وضوح الدلالة أيضا على مفهومه المتبادر ، فيبقى الخلو عن التنافر بين الحروف أو الكلمات والخلو عن مخالفة القياس ، والخلو عن ضعف التاليف كلها مندرجة فيها مع أنها ليست من علم البديع ، وأما الخلو عن الغرابة فيمكن ادراجه فى وضوح الدلالة) (٢).

ومهما يكن من أمر ، فان المحسنات البديعه تنقسم الى قسمين قسم راجع الى المعنى ، واخر راجع الى اللفظ ، وهذا هو ما عليه علماء البلاغة .

اولا المحسنات المعنوية

وهى التى يرجع التحسين فيها الى المعنى ، وان كان بعضها لا يخو من تحسين اللفظ وذلك مثل .

الطباق والمقابلة

الطباق عند أهل البلاغة هو أن يجمع المتكلم فى كلامه بين معنيين متقابلين فى جملة واحدة ، وقد سموه بالمطابق أو المطابقة ، أو التضاد لما فيه من جمع بين متضادين ، غير أن ابن الأثير يرفض هذه التسمية ، فيدمج الطباق فى المقابلة ويجعلهما بابا واحدا ، ويعلل ذلك بأن المقابلة قد تكون بين الشىء وضده ، أو بين الشىء وما ليس بضده (٣) .

---

(٢) الايضاح شرح محمد عبد المنعم خفاجى جـ٦ ص ٥،٤ الهامش .
(٣) المثل السائر جـ٢ ص ٢٨٠ وقد عرف الطباق فى المفتاح المنشا لحديقة الانشا : بانه الجمع فى سجعة أو سجعتين بين ضدين أو اكثر انظر ص ٣١٠ .

وهذا التعريف قريب من تعريف المقابلة ، وهى الاتيان بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقه ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، فاذا كان الطباق بين الألفاظ المفردة فان المقابلة تكون بين الالفاظ المركبة ، فليس ثمة فروق جوهرية ، بالاضافة الى أن القاسم المشترك الأعظم بينهما هو التقابل بين صدر الكلام وعجزه والدليل على ذلك دراسته للطباق وتعريفه فى كتابه المفتاح المنشا حيث قال عنه هو الجمع فى سجعة أو سجعتين بين ضدين أو أكثر ، ومثل له بقول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه ∴ وقابض شرعنكم بشماليا

فقد جمع بين البسط والقبض ، والخير والشر (٤) .

ألا أن كلمة اكثر فى هذا التعريف أخرجت الطباق وجعلته فى حيز المقابلة التى هى الجمع بين أكثر من معنيين متوافقين،وعلى هذا فالبيت يتمثل به للمقابلة التى درسها فى هذا الكتاب على أنها قسم قائم برأسه وعلى الرغم من ذلك فان كلامه عنها يقترب من كلامه على الطباق فقال عنها هو أنه تأتى فى سجعة أو سجعتين أن فلانا فيه ما يسر الصديق ، وفيه ما يسوء العدو ، وينبغى الأولياء ، ويفقر الاعداء ومثل له بقول النابغة الجعدى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه ∴ على ان فيه ما يسوء الاعاديا (٥)

---

(٤) المفتاح المنشا ص ٣١١ .
(٥) المفتاح المنشا ص ٣١١ .

وهذا البيت يتساوى مع البيت الذى مثل له بالمطابق وعلى هذا يكون الطباق عند ابن الاثير داخل فى حيز المقابلة فصار قسما من أقسامها كما سوف نرى .

أقســـام المقـــابلة عنده

تنقسم الى :

(أ) مقابلة الشىء بضده .

(ب) مقابلة الشىء بما ليس بضده .

(أ) مقابلة الشىء بضده ويقسمه أيضا الى :

١ — مقابلة فى اللفظ والمعنى ، وقد تكون هذه المقابلة بين لفظين مفردين كما تكون بين الألفاظ المركبة ، وكما أسبق أن أشرت، فانه أدمج بهذا الطباق فى المقابلة وجعلهما شيئا واحدا ، فأما مثال اللفظ المفرد قوله ﷺ « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » .

أما الألفاظ المركبة ، وهى التى يتعدد فيها التقابل بين لفظين أو أكثر وما يقابلهما ، كقوله تعـالى (فليضحكوا قليلا ،وليبكوا كثيرا) فقابل بين الضحك والقلة والبكاء والكثرة على الترتيب ، كما مثل لمقابلة ثلاثة بثلاثة وأكثر من ذلك (٤) وهـذه هى المقابلة المعروفة من القسم الاول .

---

(٤) المثل السائر جـ٢ ص ٢٨٣ وما بعدها .
والجامع الكبير ص ٢١٣ .

٢ — المقابلة فى المعنى دون اللفظ ، وهى تختلف عن الاولى، التى تكون الالفاظ فيها واضحة غير محتاجة الى تأويل لكى يتوصل عن طريقها الى المقابلة وقد مثل لذلك ابن الاثير بقول المقنع الكندى من شعراء الحماسة :

لهم جل مالى ان تتتـــابع لى غنى .·. وان قــل مالى لم اكلفهم رفـــدا

وقد قابل بين « تتابع لى غنى » و « قل مالى » وذلك عن طريق تأويل التتابع ، بالكثرة ، فتكون المقابلة بين كثر مالى المؤولة عن « تتابع لى غنى » وبين « قل مالى » فهذه مقابلة معنوية كما يقول ابن الأثير (فاذا ترك المفرد من الألفاظ ، وتوصل الى مقابلة بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، كقول الشاعر « تتابع لى غنى » فى معنى كثر مالى ، وهذه مقابلة معنوية لا لفظية) (٥) وبهذا ينهى قسمه الاول من المقابلة التى هى مقابلة الشىء بضده •

(ب) مقابلة الشىء بمـــا ليس بضده وتنقســـم أيضا عنده الى قسمين :

أحدهما أن لا يكون مثلا ، أى غير مماثل له •

والآخر أن يكون مثلا أى مماثلا له فى اللفظ •

والضرب الاول وهو أن لا يكون مثلا وهو ما يعرف فى الملحق بالطباق بتعلق السببية ، أو تعلق اللزوم ، وهو الجمع بين معنيين

(٥) المثل جـ٢ ص ٢٨٩ •

يتعلق أحدهما بما يقابل الاخر نوع تعلق ، وليس بينهما تناف ، بل يجتمعان ، ومن ثم يمتاز عن الطباق ، ولذا فان ابن الاثير قد قسم هذا القسم الى نوعين :

النوع الأول : ما كان بين المقابل ، والمقابل نوع مناسبة وتقارب وهذا هو القسم الاول مما عنيناه سلفا بتعلق السببية ، ومثل له بقول قريط بن أنيف :

يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ﴿﴾ ومن اساءة اهل السوء احسـانا

وليس الظلم مقابل للمغفرة ، بل المقابل له هو العدل ، ولكن كانت المغفرة مسببة عن العدل وقريبة منه فحسنت مقابلة الظلم بالمغفرة ، وعلى هذا جاء قوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فان الرحمة مسببة عن اللين الذى هو ضد الشدة ولذا علق على هذا بقوله (فان الرحمة ليست ضدا للشدة ، وانما ضد الشدة اللين ، الا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة) (٦) ٠

النوع الثانى : هو ما كان بين المقابل والمقابل به بعد ، ورأى أنه مما لا يحسن استعماله ، وانه قد ورد كثيرا فى الاشعار العربية، وهو ما عرفناه سلفا بتعلق اللزوم ، وليست ببعيدة — كما عبر ابن الأثير لمن له تعلق بالبلاغة وعلومها واللغة ودلالتها ،وجعلها الضرب

---

(٦) المثل السائر جـ٢ ص ٢٩٠ ٠

الثانى من النوع الثانى وهى مقابلة الشىء مثله ، وهو ماعناه بالمثلية من قبل عندما قال أن يكون مثلا ، وعلى كل فانه قد مثل له بقول المتنبى

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بهـــا ∴ سرور محب أو اســاءة مجـرم

فقابل بين المحب والمجرم ، ولكن لما كان المبغض مجرما فى حق صديقه عبر عنه بالمجرم وذلك لان الاجرام من لوازم المبغض الكاره فتم التقابل بين المحب والمجرم لتعلق اللزوم بين المبغض والمجرم •وليس الأمر كما ذهب ابن الأثير عندما قال (ليس كل من أجرم اليك كان مبغضا لك) (٧) فما دام أجرم كان مبغضا •

وقد تناول ابن الأثير أثناء كلامه عن الطباق والمقابلة،تناول المشاكلة كما تكلم عن الجمع مع التقسيم أيضا أثناء كلامه عنها ودمج فى ذلك ما يعرف باسم تشابه الأطراف، ولذا وجب علينا الفصل بين هذه الأنواع ودراسة كل نوع على حده ونبدأ بالمشاكلة •

المشــــــــــاكلة

وهى كما هو معروف عنها أنها ذكر الشىء بلفظ غيره وقت وقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرا ومن ثم فانهــا تختلف عن المقابلة اختلافا بينا ، ولذا نتعجب من وضع ابن الاثير لها ضمن المقابلة بل عدها ضربا ثانيا وقال عنها مقابلة الشىء بما ليس بضده وذلك

---

(٧) المثل السائر ج٢ ص ٢٩٢ •

بأن يكون اللفظ مماثلا للفظ ، وبانتفاء الضدية تنتفى المقـابلة وتدخل المشاكلة يقول (الضرب الثانى : فى مقابلة الشىء مثله)(٨) ولكن بدون تضاد ، ويفرعها الى فرعين :

أحدهما : مقابلة المفرد بالمفرد .

والآخر : مقابلة الجملة بالجملة ولا أرتضى له بأن يقول مقابلة كذا بكذا ، اذا الأفضل التعبير بمشاكلة ومصاحبة المفرد للمفرد ، ومصاحبة أو مجاورة الجملة للجملة .

ألاول : أى مشاكلة ومصاحبة المفرد للمفرد وذلك مثل قوله تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا) فقد سمى الله سبحانه وتعالى تدبيره لنجاة نبيه صالح عليه السلام من كيد قوم ثمود والذين أرادوا هلاكه هو وأهله « مكرا » مشاكلة لوقوعه فى صحبه مكر أعداء نبيه لان المكر على حقيقته لا يصح أن ينسب الى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا بمعناه الحقيقى اذ المكر تحايل لجلب الضرر الى الغير وذلك ينبىء عن ضعف وخور تعالى الله عن ذلك .

ومثله أيضا مما أورده ابن الأثير — وان كان لم يفسره — قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فجزاء السيئة العقوبة ، فسميت العقوبة سيئة مشاكلة لوقوعها فى صحبه السيئة وقد ذكر اللفظ الذى سمى الشىء باسمه فى هذين المثالين . الثانى : وهوقائم على المعنى دون اللفظ وعرفه بأنه مقابلة جملة بجملة ويقول : (أعلم أنه اذا كانت الجملة من الكلام مستقبلة قوبلت بمستقبلة ، وان

---

(٨) المثل السائر جـ٢ ص ٢٩٧ .

كانت ماضية قوبلت بماضية ، وربما قوبلت الماضية بالمستقبلة ، والمستقبلة بالماضية اذا كانت احداهما فى معنى الأخرى) (٩) أى أن تذكر الجملة الثانية كالجملة الاولى طالما هى فى صحبتها ، وأحيانا تأتى على خلافها اذا كان المعنى يربطهما وذلك كقوله تعالى (قل ان ضللت فانما أضل على نفسى ، وان اهتديت فبما يوحى الى ربى) فهذا من جهة المعنى (وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها ، أعنى أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بسببها ومنها لانها الامارة بالسوء وكل ماهو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه اياها) (١٠) •

التقسيم

حد التقسيم هو : ذكر متعدد ، ثم يضاف الى كل فرد من أفراده ما يخصه على جهة التعيين ، وينقسم الى قسمين :

١ — ذكر أحوال الشىء مضافا الى كل منها ما يليق به •

٢ — استيفاء اقسام الشىء بالذكر (١١) •

وقد عرفه ابن الأثير بقوله (وانما نريد بالتقسيم ههنا ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم

---

(٩) المثل السائر ج٢ ص ٣٠٠ •
والجامع الكبير ص ٢١٤ •

(١٠) المثل السائر ج٢ ص ٣٠١ •

(١١) الايضاح ص ٢٠٥ مثلا •

واحد ، واذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ، ولم يشارك غيره فتارة يكون التقسيم بلفظة اما ، وتارة بلفظة بين كقولنا بين كذا وكذا ، وتارة منهم ، كقولنا منهم كذا ، ومنهم كذا ، وتارة بأن يذكر العدد المراد أولا بالذكر ثم يقسم •••) (١٢) • وقد اشترط بعد هذا التعريف شرطا للتقسيم وهذا الشرط هو أن لا تتداخل أقسامه بعضها فى بعض والافسد التقسيم • (١٣) كما اشترط ترتيب الألفاظ على المعانى حتى يكون جميع السجع متناسبا لفظا ومعنى (١٤) • فاذا ذكر لفظ ألحق به ما يناسبه ، وهو بهذا التعريف قد تناول كل أقسام التقسيم وان كان فى كلامه عن ذكر العدد ما يشعر بأنه الجمع مع التفريق والتقسيم كما سنرى • فمن ذلك قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) فقد استوفت هذه الآية جميع الأقسام وأضافت لكل مذكور ما يليق به ، فأقسام العباد ثلاثة : اما عاص ظالم لنفسه ، واما مطيع مبادر بالخيرات واما مقتصد بينهما ، وقد تم التقسيم بلفظة منهم •

وكذا قوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمه ما أصحاب المشأمه ، والسابقون

---

(١٢) المثل السائر جـ٢ ص ٣٠٥ •

(١٣) المثل السائر جـ٢ ص ٣٠٩ •

(١٤) المفتاح المنشا ص ٣١٢ ومثل له بقول طريح :

ان حاربوا وضعوا أو سالموا رفعوا ∴ أو عاقدوا واضمنوا أوحدثو صدقوا

السابقون) وهذه الآية كسابقتها فى التخريج الا أنها تختلف ، فقد ذكر العدد المراد أولا ، ثم تم التقسيم بعد ذلك . ومنه قول الاعرابى الذى وقف على مجلس الحسن البصرى فقال : (رحم الله عبد أعطى من سعة ، أو آسى من كفاف ، أو آثر من قلة) فلما رآه الحسن البصــرى قد اســتوفى جميــع الأقسام قــال : ما ترك لأحد عذرا (١٥) .

اللـــــف والنشـــــر

وقد تناوله أيضا ابن الأثير وأسماه بترتيب التفسير وما يصح منه وما يفسد ، واللف والنشر معروف عند البلاغيين بأنه ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الاجمال ثم ذكر مــا لكل اليه من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده اليه ، وذلك عن طريق القرائن اللفظية أو المعنوية المذكورة فى الكلام أو المدلول عليها بسياق الكلام . وقد يكون النشر على ترتيب اللف ، وقد يكون على غير ترتيبه وهو المعروف بالنشر المشوش .

ويعرف ابن الأثير اللف والنشر بقوله (اعلم أن صحة الترتيب فى ذلك أن يذكر فى الكلام معان مختلفة ، فاذا عاد اليها بالذكر ليفسرها ، قدم المقدم ، وأخر المؤخر ، واذا لم يراع المؤلف ذلك كان مأخوذا عليه لانه يخل بشطر من الصناعة) (١٦) وهذا التعريف

---

(١٥) المثل السائر جـ٢ ص ٣٠٧ .
(١٦) الجامع الكبير ص ٢٢١ وانظر المثل السائر جـ٢ ص ٣١٥ .

قريب من التعريف السابق ومثل لذلك بقوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية اليل وجعلنا آية النهار مبصرة) • فقد ذكرت الآية المتعدد على جهة الاجمال ثم ذكرت ماالليل ، وما للنهار •

ومنه أيضا قوله تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا ولتبتغوا من فضله) فلما قدم الليل فى الذكر على النهار قدم سبب الليل وهو السكون ، على سبب النهار وهو التعايش •

ومما يجدر ذكره أن ابن الأثير كان بصيرا بمثل هذه الاساليب البلاغية وكان يدبج بها كتبه ، ولولا خشية الاطالة لاوردنا الكثير مما كتب ، غير أننا نكتفى هنا بمثال له فى هذا المضمار ، يقول (ولقد أوحشت منه المعالي كما أوحشت المنازل ، وآمت المكارم ، كما آمت الخلائل ، وعمت لوعة خطبه فما تشتكى ثكلى الا الى ثاكل وما أقول فيمن عدمت الارض منه حياها ، والمحامد محياها ، فلو نطق الجماد بلسان ، أو تصور المعنى لعيان ، لاعربت تلك عن ظمأ صعيدها ، وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها) (١٧) •

وقد أورد كثيرا من الابيات الشعرية تمثيلا للنشر المشوش وذلك مثل قول الفرزدق :

---

(١٧) المثل السائر جـ٢ ص ٣١٢ •

كيف أسلو وأنت حقف وغصن ∴ وغزال لحظا وردفـــا وقدا (١٨)

وقال ، هذا مما يؤخذ على الفرزدق •

كما أتى بأمثلة للنشر على ترتيب اللف وقال عنـــه ان ذلك فى غاية الحسن كقول القاضى الأرجانى :

يوم الميتم فيك حول كامـــل ∴ يتعـــاقب الفصـــلان فيه اذا اتى
مابين حر جوى ومـــاء مدامع ∴ ان حنصافوان بكىوجدا شتا(١٩)

الاقتصاد والافراط والتفريط

لقد درس ابن الاثير تحت هذا العنوان الوانا من الصناعة اللفظية والمعنوية وبعضها هو الأفراط الذى يقابل أحد أنواع المبالغة وهو الغلو ، بل ما قال عنه بأنه الاقتصاد ما هو الا غلو مقبول لاحتوائه على ألفاظ مثل يكاد ، أو كأن ، فيكون بذلك قد جمع تحت المبالغة قســمين من هذه الأقسام وهما الاقتصاد والأفراط ، أما بالنسبة للتفريط ، فان تعريفه له قائم على الملائمة والمناسبة بين معـــانى الكلام ومكانه ومن قبيل له هذا الكلام ، وهذا بعيد عن باقى أقسام المبـــالغة •

ويعرف الثلاثة قائلا (أما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمن فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته ، وأما التفريط

---

(١٨) الجامع الكبير ص ٢٢٣ •
(١٩) المثل السائر جـ٢ ص ٣١٣ وانظر الجامع الكبير ص ٣٢٢ •

والافراط فهو أن يكون المعنى المضمن فى العبارة بخلاف ما يقتضيه منزلة المعبر عنه فاما انحطاطا دونها وهو التفريط ، واما تجاوزا عنها وهو الافراط) (٢٠) ومن هذا التعريف يتضح أن رأى ابن الاثير فى التفريط هو أن يكون المعنى المتضمن فى العبارة يؤدى الى انحطاط منزلة الموصوف بها ومن ثم قبحه فقال (والتفريط فى ايراد المعانى الخطابية قبيح لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه)(٢١) لأنه يؤدى الى الذم وليس للمدح فيه نصيب ، وقد ورد فى الشعر العربى الكثير من أمثال هذا اللون نجتزىء منه قول أبى تمام :

مازال يهذى بالمكارم والعـــلا ⁂ حتى ظننـــا انه محمـــوم

فانه أراد أن يمدح بل يبالغ فى ذكر من يمدحه ولهجه بالمكارم والعلا ، فجعله محموما يهذى ، وهذا ذم صريح وليس بمدح .

ومثله أيضا قول الآخر :

ويلحقه عند المكارم هـــزة ⁂ كما انتفض المجهـود من أم ملدم

وأم ملدم هى الحمى ، فهذا تشبيه فى غاية الذم والسخف ، (وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله ، وان كان المعنى المقصود به حسنا ، وكم ممن يتأول معنى كريما فأساء فى التعبير عنه حتى صار مذموما كهذا وأمثاله) (٢٢) .

---

(٢٠) الجامع الكبير ص ٢٢٦ .
(٢١) المثل السائر جـ٢ ص ٣١٦ .
(٢٢) المثل السائر جـ٢ ص ٣٢٥ .

أما القسمان الاخران من هذه الضرب فانهما وكما سبق أن أشرت يندرجان تحت ما يعرف باسم الغلو ، وهو أن يدعى لوصف بلوغه فى الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه فى الشدة أو الضعف وهو غير ممكن لا عقلا ولا عادة، وهذا غير مقبول ، وانما الذى يجعله مقبولا أن يدخل عليه ما يقربه للصحة ، وذلك كلفظة يكاد ، أو كأن أو لو وما تضمن نوعا حسنا من التخييل ، أوما جاء على سبيل الهزل (٢٣) فالقسم الاول عند ابن الأثير هو الأفراط ، والثانى هو الاقتصاد كما سنوضح •

الأفـــراط أو الغـــلو

والأفراط أو المبالغة عنده منها ما هو مقبول ، ومنها ما هو مستهجن ، والمستهجن عنده هو الذى بلغت المغالاة فيه حدا غير مقبول من الأفراط تصل لدرجة الكذب ، أما المستحسن فعليه مدار الاستعمال عنده (٢٤) ومثله قول عنترة :

ونا المينة فى المواطن كلهـــا ∴ والطعن منى سابق الاجـــال

والمستهجن كقول النابغة الذبيانى فى وصف امرأة :

وأنا المينة فى المواطن كلهـــا ∴ والطعن منى سـابق الآجـــال

(وهذا يصف طول قامتها ، لكن من الأوصاف المنكرة التى خرجت بها المغالاة عن حيز الاستحسان) (٢٥) •

---

(٢٣) الايضاح ص ٢٠٧ •
(٢٤) المثل السائر جـ٢ ص ٣٣٢ •
(٢٥) المثل السائر جـ٢ ص ٣٣٣ •

ومثله قول أبى نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى انـــه ∴ لتخافك النطف التى لم تخلق

وهذا المستهجن يحسن اذا دخل عليه كأن أو لو ، أو كأنما وقد استعمله المتنبى فى شعره فحسن كقوله :

عجاجا تعثر العقبـــان فيه ∴ كـأن الجـو وعـث أو خبـــار

وهو نفس المعنى فى قوله :

عقدت ســـنابكها عليه عثـيرا ∴ لو تبتغى عنقــا عليه لأمكنـــا

(وهذا أكثر مغالاة من الأول) (٢٦) لكن الذى حسنه دخول لو عليه ،أو قوله :

كأنما تتلقاهم لتســــــلكهم ∴ فالطعن يفتح فى الاجواف ما يسـع

لكن التخييل الحسن هو الذى سوغ مثل هذا :

أما فى كتابه المفتاح المنشا فانه ذكر المبالغة صراحة ومثل لها ، فعرفها بقوله : (هو أن يذكر معنى لو اقتصر عليه لكان كافيا ، فيما قصده ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكده بشىء آخر) وقد مثل له بقول عمرو بن الاهيم :

ونكرم جارنا مادام فينـــــــا ∴ ونتبعـه الكرامة جيث مـــــالا

---

(٢٦) المثل السائر ج٢ ص ٣٣٥ .

فلو اقتصر على قوله : ونكرم جارنا مادام فنيا :

كان كافيا ، فبالغ بقوله : ونتبعه الكرامة حيث مالا [٢٧] •

الاقتصـــــــاد

وهو عنده قسم قائم برأسه لكنه جزء من أجزاء الغلو المقبول، بل هو نفسه المستهجن الذى حسن بدخول بعض الألفاظ أو الأخيلة عليه فحسنته وهذا نفسه ما عناه ابن الاثير أثناء كلامه عن هذا اللون فقال (وأما الاقتصاد فهو وسط بين المنزلتين والأمثلة به كثيرة لا تحصى ، اذ كل ما خرج عن الأفراط والتفريط فهو اقتصاد، ومن أحسنه أن يجعل الافراط مثلا ، ثم يستثنى فيه بلو ، أو يكاد وما جرى مجراها) [٢٨] وضرب اذلك الامثلة ، فمن ذلك قوله تعالى: (يكاد البرق يخطف أبصارهم) ، ومثله قول الفرزدق :

يكاد يمسكه عرفان راحتـــــه ∴ ركن الحطيم اذا مـا جاء يستلم

ومثال لو كقول البحترى :

لو ان مشتاقا تكلف فوق مـــا ∴ فى وسعه لسعى اليك المنبر

ومن هذا القبيل ما عرفه باسم الغلو وعرفه : بأن يكرر صفة واحدة كقول أبى نواس :

توهمتها فى كأسها وكأنما ∴ توهمت شيئا ليس يدركه العقل (٢٩)

---

(٢٧) المفتاح المنشا ص ٣١٢ •

(٢٨) المثل السائر ج٢ ص ٣٦ •

(٢٩) المفتاح المنشا ص ٣١٢ •

فاخراج البيت بهذه الطريقة قد حسنه وحسن الغلو فيه .

التجــــــــــريد

ويعرفه ابن الأثير (بأنه اخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه) (٣٠) وهذا التعريف قريب من تعريف القزوينى له (٣١) الذى يثبت أن فائدة التجريد فى المبالغة فى كمال الصفة المنتزعة ، غير أن ابن الاثير يثبت فائدتين له الاولى : طلب التوسع فى الكلام ، لان ظاهر الكلام خطاب لغيرك ، وهو خطاب لنفسك. الثانية :يراها أبلغ من الاولى وهى أن يتمكن المخاطب من اجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ، اذ يكون مخاطبا بها غيره ليكون أعذر وأبرأ من التبعة فيما يقوله غير محجور عليه (٣٢).

ويقسم التجريد الى قسمين : قسم محض ، وآخر غير محض . والفرق بينهما أن المتكلم فى المحض ،وجه الخطاب لغيره مريدا به نفسه فى الحقيقة ، كما يقصد به التوسع أحيانا ، ويرى أن هذا هو التجريد الحق لانه متفق مع التعريف الذى حده به .

أما غير المحض ، فيراه نصف تجريد لانه ليس تجريدا كاملا ، وهو خطاب الانسان لنفسه كأنها شخص آخر يعى ويسمع مايلقى عليه.

ولكن الغريب حقا أنه عاب على أبى على الفارسى أشياء من التجريد ، اذا يراها خارجة عنه وذلك مثل قول العرب : لئن لقيت

---

(٣٠) المثل السائر جـ١ ص ٤٢٣ .

(٣١) الايضاح ص ٢٠٦ .

(٣٢) المثل السائر جـ١ ص ٤٢٣ .

فلانا لتلقين به الاسد ، ولئن سألته لتسألن به البحر ، فيرى أن هذا من التشبيه مضمر الأداة •

ونحن لا نوافقه على هذا ، بل نرى رأى أبى على الفارسى لانه تجريد وذلك لدخول باء المعية فى المنتزع ، وليس لاداة التشبيه هنا مكان ، ومن ثم فتقديره الاداة باطل حيث يقول (فان هذا تشبيه مضمر الاداة ، اذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، وبيان ذلك أنك تقول : لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالاسد ولتسألن منه كالبحر وليس هذا بتجريد لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه، وانما هو تشبيه مضمر الاداة) (٣٣) •

وهذه تأويلات عليه لاله ، فانه أتى بمن وهى أيضا للتجريد بدلا من باء المعية التى هى للتجريد ، بالاضافة الى قوله بأن هذا تشبيه خطأ واضح ، لان أساليب التشبيه يكون الحكم فيها باثبات المشابهة ، وأسلوب التجريد ليس كذلك فانه يخلو من المشابهة لان فلانا فى المثالين هو نفسه الاسد والبحر على سبيل المبالغة ، وليس كالاسد ، أو كالبحر حتى يكون تشبيها ، لانه لو كان كذلك لاطرد فى اسلوب التشبيه لاتحاد المنتزع والمنتزع منه (والحق هو أنه استعارة ، ولكن المنتزع قد يعبر عنه أحيانا بلفظه الحقيقى ، وقد

---

(٣٣) المثل السائر جا ص ٤٢٨ •

يعبر عنه أحيانا بلفظة المجازى) (٣٤) • ومن ثم فالخطأ عند ابن الأثير ، والصواب مع أبى الفارسى كما بينا •

أما أقسامه فهى :

الاول : التجريد المحض كقول الحيص بيص مخاطبا نفسه :

الام يراك المجد فى ذى شاعر .·. وقد نحلت شوقا فروع المنابر
كتمت بعيب الشعر حلما وحكمة .·. ببعضها ينقاد صعب المفاخر
أما وأبيك الخير انك فارس الـ .·. مقال ومحيى الدارسات الغوابر
وانك أعييت المسامع والنهى .·. بقولك عما فى بطون الدفاتر

فقد أجرى الخطاب لغيره ، وهو يريد نفسه ليتمكن من ذكر الصفات والفضائل التى يريد اثباتها لنفسه •

ومثله أيضا قول المتنبى :

لا خيل عندك تهديها ولا مال .·. فليسعد النطق ان لم تسعد الحال
وأجز الامير الذى نعماه فاجئة .·. بغير قول ونعمى القوم أقوال

ويرى أن هذا من التوسع •

النوع الثانى : غير المحض ، وهو مخاطبة الانسان نفسه وهو مايسميه بنصف تجريد كقول عمرو بن الاطنابة مخاطبا نفسه :

---

(٣٤) الايضاح جـ٦ ص ٦١ شرح محمد عبد المنعم خفاجى ط محمد على صبيح سنة ١٩٥٠ المطبعة الفاروقية •

أقول لها وقد جشــأت وجاشــت ∴ رويدك تحمـدى أو تستريحى

فالمخاطب هو المخاطب بعينه ، وليس ثم خارج عنه كما يقول (٣٥) •

التـــــــــورية

ويسميها ابن الأثير بالمغالطات المعنوية لأنها (من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه لما فيه من التورية) (٣٦) •

ويعرفها بأن يذكر معنى من المعانى له مثل فى شىء آخر ونقيض ، والنقيض أحسن موقعا ، وألطف مأخذا ، وما عبر به هنا عن المعنى والمثل هو نفسه ما قيل فى حد الاستعارة اصطلاحيا حيث يطلق المتكلم لفظا له معنيان أحدهما قريب غير مقصود ، والاخر بعيد هو المقصود ، أى هو خاص بالالفاظ المشتركة المعنى ، أو ما يعرف عند اللغويين بالمشترك اللفظى الا أن الدلالة تحدد المراد من المعنى المقصود (٣٧) •

وتبعا لهذا التعريف فانها تنقسم عنده الى :

(أ) المعنى الذى يكون له مثل يقع فى الألفاظ المشتركة كقول المتنبى :

يشلهم بــكل أقب نهــــد ∴ لفارسه على الخيــل الخيــار
وكل أصـم يعسل جانبــاه ∴ على الكعبــين منــه دم ممــار
يغادر كـــل ملتفت اليــه ∴ ولبتـــه لثعلبه وجـــار

(٣٥) المثل السائر جـ١ ص ٤٢٧ •
(٣٦) المثل السائر جـ٢ ص ٢١٥ •
(٣٧) انظر البلاغة وقضايا المشترك « التورية » •

فالثعلب هنا لفظ له معنيان ، أحدهما قريب غير مراد ، وهو الحيوان المعروف وبعيد وهو : طرف سنان الرمح وهو المقصود ، برغم وجود المرشح بعد لفظ التورية وهو لفظ وجار التى ترشح المعنى القريب وهو الحيوان،والمعنى أن الرمح الموصوف بهذه الصفات يترك من التفت اليه بعد أن غاب فى نحره وطعن ، فصار نحر المطعون بالرمح ، وللرمح ، كالوجار للثعلب • (وهذا نقل المعنى من مثل الى مثله) •

ومثله أيضا للمتنبى :

برغم شبيب فارق السيف كفه ∴ وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه ∴ رفيقك قيسى وأنت يمانى

ففى كلمة يمانى تورية لان لها معنيان : أحدهما قريب وهو الرجل المنسوب لليمن والاخر بعيد وهو السيف الذى ينسب لليمن، والمرشح للمعنى القريب كلمة قيسى نسبة الى قيس ، والعداوة مشهورة بين القيسية واليمانية •

ويريد المتنبى أن كف شبيب القيسى وسيفه متنافران عندما قتل ، فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يمانى وصاحبك قيسى ، ولهذا جانبه السيف وفارقه • وهناك أمثلة عديدة نثرية أوردها فى رسائله العديدة ولولا خشية الاطالة لأوردنا بعضها (٣٨) •

---

(٣٨) انظر المثل السائر ج٢ ص ٢١٦ مثلا •

(ب) القسم الآخر وهو النقيض ويراه قليلا ،لانه لا يتهيأ ستعماله كثير وذلك مثل قول بعض الشعراء ،

وما اشياء تشريها بمـــــا ∴ فان نفقت فاكســـد ما تكون

فالتورية فى لفظة نفقت ، فيقال نفقت السلعة اذا راجت وكان ها سوق ، ويقال أيضا نفقت الدابة ، اذا ماتت (وموضع المناقضة مهنا فى قوله : انها اذا نفقت كسدت ، فجاء بالشىء ونقيضه ، وجعل هذا سببا لهذا ، وذلك من المغالطات الحسنة) (٣٩) •

الارصـــــــــاد

وهو أن يبنى الشاعر البيت الشعرى على قافية قد أرصدها له ، أى أعدها فى نفسه فاذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به فى قافيته ، فخير الكلام مادل بعضه على بعض (٤٠) سواء كان فى الشعر أو النثر ، وهذا ما استدركه ابن الأثير بعد تعريفه للارصاد ، وقصره فى هذا التعريف على الشعر فقال : (وقد جاء الارصاد فى الكلام المنثور كما جاء فى الشعر) وقـــد عرفه فى كتابه المفتاح المنشا : (انه اذ ذكر فى سجعة معنى ، اقتضى أن يكون فى السجعة الثانية تمامه) أى تمام هذا المعنى (٤١)•وقد مثل لكلا النوعين شعرا ونثرا بما شاع من أمثلة له فى كتب البلاغة •

---

(٣٩) انظر المثل السائر جـ٢ ص ٢٢١ •

(٤٠) انظر المثل السائر جـ٢ ص ٣٤٨ وانظر ايضا التعريف فى ايضاح القزوينى ص ١٩٨ وقد شمل الشعر والنثر •

(٤١) السابق ص ٢٤٩ والمفتاح المنشا ص ٣١٢ ، والجامع الكبير ص٢٣٨

فمن ذلك قول البحترى :

احلت دمى من غير جرم وحرمت ∴ بلا سبب يوم اللقاء كلامى
فليس الذى حللته بمحلل ∴ وليس الذى حرمته بحرام

فالارصاد فى قوله « حرمته » خاصة بعد أن عرفت القافية فى البيت الأول أنها فى البيت الثانى لابد أن تذكر لفظة « بحرام » وأيضا كقول البحترى :

فاذا حاربوا أذلوا عزيزاً ∴ واذا سالموا أعزوا ذليلا

فيعلق عليه بقوله (فاذا حاربوا أذلوا عزيزا ... اقتضى أن يكون تمامه ، واذ سالوا أعزوا ذليلا) (٤٢) .

ومن النثر قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أو هن البيوت لبيت العنكبوت »، فاذا سمع السامع قوله تعالى (وان أوهن البيوت) لعلم أن بعده بيت العنكبوت .

أما ما عده من التسهيم فى كتابه المفتاح ، فانه ليس من التسهيم أو الارصاد فى شىء لأنه من اللف والنشر ، وتعريفه له قريب جدا من تعريف البلاغيين له ، فهو عبارة عن ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الاجمال ، ثم ذكر مالكل واحد من غير تعيين ثقة من أن السامع يرده اليه (٤٣) .

وهذا نفسه معنى تعريف ابن الأثير له فى قوله : (وهو أن يأخذ المنشىء فى معنى فيورده غير مشروح ، فيقع أن الواصل

(٤٢) المفتاح ص ٣١٢ .
(٤٣) الايضاح ص ٢٠٢ .

اليه الكتاب لا يتصوره بحقيقته ، فيعود اليه راجعا الى ما قدمه، اما أن يظهره ، واما أن يجلى الشبهة فيه) (٤٤) • وقد مثل القزوينى لهذا النوع بمثال هو نفسه الذى مثل له به ابن الأثير وهو قول
ولهذا النوع بمثال هو نفسه الذى مثل له به ابن الأثير وهو قول
ابن الـــرومى :

آراؤكم ووجوهكم وســـيوفكم ∴ فى الحادثات اذا دجون نجـــوم
فيها معالم للهـدى ومصـــابح ∴ تجلو الدجى والاخريات رجـــوم

ويعلق عليه ابن الاثير شارحا ، بأن الشاعر عندما ذكرالبيت الاول رآه مبهما لن يستطيع القارىء أن يفهمه بهذا الاجمال ،فأتى بالبيت الثانى مفصلا له •

كما ذكر ما يعرف بالتبيين وهو من هذا النوع ، وليس له فيه الا التعريف فقط ، أما التمثيل والشرح ، فهو منقول بالكامل من الخطيب التبريزى (٤٥) فاذا كان الشاهد السابق على ترتيب اللف والنشر ، فان الشاهد التالى على غير ترتيبه •

وتعريفه لهذا النوع (هو أن يضع ــ المتكلم كلا ما ــ ثم يلحقه بما يبينه) (٤٦) •

ومثل له أيضا بقول الفرزدق :

لقد خنت قومـا لو لجأت اليهم ∴ طريد دم أو حامـــلا ثقل مغرم
لالفيت فيهم معطيا أو مطـاعنا ∴ وراءك شـزرا بالوشيج المقـــوم

---

(٤٤) المفتاح ص ٣١٦ •
(٤٥) الكافى فى العروض والقوافى ص ١٩٣ •
(٤٦) المفتاح المنشا ص ٣١٦ وقارن هذا التعريف بالتعريف السابق •

وعلق عليه نقلا عن التبريزى فقال : (لواقتصر على البيت الاول لكان جيدا ودخل فى باب ما حذف جوابه ، فبين قوله « حاملا ثقل مغرم » بقوله « لألفيت فيهم معطيا » ، وقوله « طريد دم » بقوله « مطاعنا ») (٤٧) ٠

العكس والتبديل

ويسمنيه ابن الأثير بالمعكوس أو بالتبديل ويدرسه ضمن الجناس، اذ يراه مشبها بالتجنيس ، غير أنه يصوب رأى قدامة بن جعفر فى تسميته بالتبديل وكما هو عليه جمهور البلاغيين فى تلك التسمية ولذا قال ابن الاثير عنها (وذلك مناسب لمسماه ، لأن مؤلف الكلام يأتى بما كان مقدما فى جزء كلامه الاول مؤخرا فى الثانى، وبما كان مؤخرا فى الاول مقدما فى الثانى) (٤٨) ٠ وهذا الذى استصوبه ، ومال اليه هو نفسه قريب جدا من تعريف البلاغيين له ، فهو أن يقدم فى الكلام جزء ثم يؤخر ، أى هذا الجزء الذى تقدم (٤٩) ٠

ويقسم هذا التبديل الى قسمين :

الاول : عكس الالفاظ ، والاخر عكس الحروف ٠

---

(٤٧) المفتاح ص ٣١٦ وانظر الكافى ص ١٩٣ ٠

(٤٨) المثل السائر جـ١ ص ٢٦١ ، والجامع الكبير ص ٢٦٢ ٠
وانظر المفتاح المنشا ص ٣١٣ وكلامه عنه يدخله ضمن عكس الالفاظ لا عكس الحروف ٠

(٤٩) الايضاح ص ٢٠٠ ٠

أما من ناحية عكس الحروف فغير مدرج ضمن هذااللون لأنه تلاعب بالالفاظ مع اختلاف معانيها ، وهذا هو المعروف بالمقلوب ويمثل له بقول الشاعر :

كيف السرور باقبال واخــــــره ∴ اذا تأملته مقلوب اقبال (٥٠)

ومقلوب الاقبال هو لابقاء (٥١) ٠

أما عكس الالفاظ فانه يدرسها دون أن يفرق بينها ، بل أوردها كيفما اتفق ومثل لها بألوان من الشعر ، وأخرى من النثر بعضها من القرآن الكريم وبعضها الاخر عبارات من كتبه التى كتبها وهى طويلة ، ويأتى فيها هذا اللون قسراً وعنوة ولولا خشية الاطالة لمثلنا بها ، غير أن فى الامثلة الاخرى غناء عنها ٠

النوع الأول : كقــول بعضهم : عدات الســـادات ، سادات العادات ، أو شيم الاحرار أحرار الشيم ٠ وهذا اللون معروف بأنه ما يقع بين طرفى جملة وما أضيف اليه ، فالعادات ، أحــد طرفى جملة ، وهو مضاف والسادات مضاف اليه ٠

النوع الثانى : وهو الذى يقع بين متعلقى فعلين وفى جملتين كقوله تعالى : « يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى »

---

(٥٠) المثل السائر ج١ ص ٢٦٢ ٠
(٥١) وهو المعروف باسم مالا يستحيل بالانعكاس ، انظر جواهر البلاغة ص ٤٠٨ ٠

النوع الثالث : أن يمع بين لفظين فى طرفى جملتين كقول ابن قريع :

قد يجمع المال غير آكــــله ∴ ويأكل المـــال غـــير من جمعه
ويقطـــع الثوب غير لابســـه ∴ ويلبس الثـــوب غير من قطعـــه

أو كقول عتاب بن ورقاء :

ان الليالى للانام منـــاهل ∴ تطوى وتنشر بينها الاعمـــار
فقصارهن من الهمـوم طـويلة ∴ وطوالهن من الســرور قصـــار

أو قول مالك بن اسماء :

واذا الدر زان حسـن وجــوه ∴ كان للدر حسن وجهك زينا (٥٢)

أو كقول رسول الله ﷺ (جار الدار أحق بدار الجار) (٥٣) .

---

(٥٢) المفتاح المنشا ص ٣١٣ .
(٥٣) انظر المثل السائر جا ص ٢٦٠ : ص ٢٦٢ والايضح ص ٢٠٠ .

ثانيا : المحسنات اللفظية

هذه التسمية « المحسنات اللفظية » ليست من وضع ابن الاثير هى والسابقة أعنى « المحسنات المعنوية » ، انما وضعتها من عندى لكى أفرق بين الدراستين على عادة العرف البلاغى ، أما هو فقد دمج عناصر هذه بتلك ، باستثناء القسمة التى قسمها ، وهى الصناعة اللفظية ، وخص بدراستها المقالة الاولى وأورد تحتها بعض الألوان التى تتصل بالصناعة اللفظية ، والمقالة الثانية فى الصناعة المعنوية ، وأورد تحتها ما يتصل بالمعنى ، ولم يقصر هذه أو تلك على علم البديع فقط ، بل أورد تحت هاتين المقالتين كل ما يندرج تحت علوم البلاغة الثلاثة المعانى ، والبيان ، والبديع ، الا أنه لم يتناول كل ألوان البديع لانه قصر كلامه على المتصل بصناعة الكتابة فقط ، وليته توسع فى كل أضرب البديع ، لكنه فيما يذهب اليه الظن أنه تناول ما كان معروفا معدودا فى الوان البديع بين طبقة الكتاب . غير أنه سواء أكان هذا أم ذاك فانه تكلم عن الالوان التى سوف نفصل القول فيها فيما بعد ونبدأ بالجناس وأقسامه .

الجناس

ويسميه التجنيس ، ودراسته له ، دراسة قيمة ، لأنه تقيد بتعريفه له ، ومن ثم نفى عنه ما ليس منه ، وذلك مثل المتفق لفظا ومعنى ، وأطلق عليه الترديد ، لان اللفظ والمعنى متفقان ، وضرب لذلك مثلا بقول أبى تمام :

أظن الدمـــــع فى خدى سيبقى .:. رسوما من بكائى فى الرســــوم

(وهذا ليس من التجنيس فى شىء ، اذ حد التجنيس هو اتفاق اللفظ واختــلاف المعنى ، وهذا البيت المشار اليه هــو اتفاق اللفظ والمعنى معا) (٥٤) فالرسم بمعنى واحد وهــذا مما يحسب له ، وان كان هناك مما يحسب عليه كاحتسابه العكس والتبديل من الجناس (٥٥) وأيضا المقلوب (٥٦) .

ويعرف الجناس بقوله (وحقيقته أن يكون اللفظ واحدا ، والمعنى مختلفا) (٥٧) . وهذا التعريف أفضــل كثيرا من تعريف القزوينى له ، فقد قصر القزوينى تعريف الجناس على التشابه بين اللفظين ، ولم يتكلم عن المعنى (٥٨) فجاءت تسمية ابن الاثير له جامعة مانعة الى حد كبير .

فأخرجت أمثال قول أبى تمام سالف الذكر حيث هو من جناس الاشتقاق ، وقد الحق مثل هذا النوع بالجناس وهو ليس منه ، ومرد ذلك الى الخلاف بينهما فكما هو معروف عن الجناس أنه اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، أما هذا النوع فهو تشابه اللفظين

---

(٥٤) المثل السئر جا ص ٢٥٣ .

(٥٥) المثل السئر جا ص ٢٦٠ .

(٥٦) المثل السئر جا ص ٢٦٢ .

(٥٧) المثل السئر جا ص ٢٤٦ .

(٥٨) الايضح ص ٢١٦ . وانظر اسرار البلاغة ص ١٢ وما بعدها .

فى الحروف والاصول ، وفى المعنى كذلك ، ومن ثم الحقوه بالجناس لمجرد هذا التشابه (٥٩) •

ويقسم ابن الأثير الجناس الى سبعة أقسام ، وان كان يرى أن واحدا منها هو الذى يدل على حقيقة التجنيس وستة أخــرى مشبهة بالجناس وقد اندرجت جميعها تحت اسم الجناس •

أولا :القسم الأول : وهو التام الذى رأى اتفاق اللفظ دون زيادة أو نقصان مع اختلاف المعنى وذلك كقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) فالجناس واقع فى لفظة ساعة ، اذ المقصود بها أولا يوم القيامة ، والثانية الساعة الزمنية ، فتساوت حروف الفاظه فى تركيبها ووزنها ، ومثله قول أبى تمام :

فاصبحت غرر الايام مشرقة ∴ بالنصر تضحك عن ايامك الغرر

فالغرر الأولى استعارة من غرة الوجه ، والغرر الثانية مأخوذة من غرة الشىء أكرمه وأمثال هذا كثير ، لكنه تنبيه الى ما كان محمودا منه وهو الذى يجىء عفوا والى المرزول منه ويسميه الغث البــارد المتكلف الذى يتى به الشاعر ، ولا حاجة لاستقصائه ، ونكاد نسمع صوت عبد القاهر الجرجانى فقد ذم أيضا المتكلف من القول فى السجع والجناس (ولن نجد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرا ،

---

(٥٩) انظر شروح التخليص جـ٤ ص ٤٣٠ والمثل السائر جـ١ ص ٢٥٢ والبلاغة وقضايا المشترك فصل الجناس •

وأهدى الى الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها وتدعها تطلب لانفسها الألفاظ ، فانها اذا تركت وما تريد لم تكتس الا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض الا ما يزينها، فأما أن تضع فى نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ...) (٦٠) ومن ثم كان معيار ابن الأثير فى الاستحسان وعدمه ، فمما استحسنه قول البحترى :

اذا العين راحت وهى عين على الهوى ❊ فليس بسر ما تسر الاضالع

فالعين الجاسوس ، والعين الحاسة المعروفة ، وأمثال هذا كثير (٦١) . هذا هو القسم الاول عنده ، أما باقى الأقسام فيراها مشبهة بالتجنيس وهى عنده ستة أقسام ، غير أننا تناولنا القسم الرابع فى دراستنا السابقة بعنوان العكس والتبديل ، وتكلمنا أثناءه عن المقلوب ، أما باقى الأقسام فهى .

١ — أن تكون الحروف متساوية فى تركيبها مختلفة فى وزنها وهذا هو الجناس المحرف (٦٢) ومثل له بقوله ﷺ (اللهم كما حسنت خَلْقى حسن خُلقى) ويوضحه قائلا (الا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان فى التركيب ، مختلفتان فى الوزن .. .. .. اذ وزن الخلق فعل بفتح الفاء ، ووزن الخلق فعل بضم الفاء) (٦٣)

---

(٦٠) اسرار البلاغة ص ١٠ .
(٦١) المثل جا ص ٢٥١ وما بعدها .
(٦٢) الايضاح ص ٢١٨ .
(٦٣) المثل السائر جا ص ٢٥٣ .

ومنه قول بعضهم : لا تنال غرر المعالى الا بركوب الغرر واهتبال الغرر •

٢ — أن تكون الألفاظ متساوية فى الوزن مختلفة فى التركيب بحرف واحد لاغير وهو المضارع (٦٤) ، كقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) فناضرة وناظرة على وزن واحد الا أن تركيبهما اختلف بين الضاد ، والظاء ، ومثله قوله تعالى (وهم ينهون عنه وينأون عنه) او قوله ﷺ (الخيل معقود بنواصيها الخير) •

أما قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم ∴ تصول باسياف قواض قواضب

فليس من المضارع المتقدم ، بل هو من جناس القلب المجنح أو الناقص المطرف كقول البحترى :

شواجر ارماح تقطع بينهم ∴ شواجن ارحام ملوم قطوعها

٣ — أن تكون الألفاظ مختلفة فى الوزن والتركيب بحرف واحد وهو الناقص المطرف كقوله تعالى (والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق) • أو قوله ﷺ (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) •

ومما يؤخذ عليه أيضا فى هذا القسم أنه أورد الملحق بالجناس الذى يجمع بين اللفظين ، الاشتقاق أو المشابهة (٦٥) ومثل له أمثله

---

(٦٤) الايضاح ص ٢١٩ وانظر باقى الصفحات فى هذه التسمية •

(٦٥) الايضاح ص ٢٢٠ •

كثيرة منها قول أبى تمام :

أيام تدمى عينيه تلك الدما ∴ فيهـــا وتقمر لبه الاقمار

أو قول البحترى :

نسيم الروض فى ريح شمال ∴ وصوب المزن فى راح وشمول

ومش هذا كثير (٦٦) وقد وضح هدا بشكل اكثر فى كتـ
المفتاح المنشا (٦٧) ٠

٤ — القسم الرابع هنا هو الخامس عنده ، ويسميه المجـ
وهو المعروف بالمرفو وعرفه بأن يجمـع مؤلف الكلام بين كلمتـ
احداهما كالتبع للاخرى والجنبية لها وان كان يرى أنه الصق بلز
ما يلزم (٦٨) لكنه بالجناس أولى ، كقول القائل :

أبا العباس لا تحســب بانى ∴ لشىء من حلى الاشعار عارى
فلى طبع كسلسال معـــين ∴ زلال من ذرا الاحجـار جارى

٥ — ما يساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر
وهو الذى يعرفه القزوينى بأنه جناس القلب ، كقول أبى تمام

بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ∴ متـونهن جلاء الشـك والريـ

---

(٦٦) المثل السائر جا ص ٢٥٧ : ص ٢٦٠ ٠
(٦٧) المفتاح المنشا ص ٣١٠ ٠
(٦٨) المثل السائر جا ص ٢٦٣ والايضاح ص ٢١٧ ٠

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حـــروفه وتأخرت ، وبهذا أنهى دراسة الجناس أو التجنس الذى وصـــفه بأنه غرة شادخة فى وجه الكلام ، وهذا مبعثه أن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد (٦٩) فيتوهم السامع أن المعنى أيضا متحد ، فبعد تمنعه يرى اختلاف المعنى فيحمله على التعجب والشده ٠

الســــــجع والازدواج

وقبل ان نتناول السجع ودراسته له نورد رأيه فى السجع وما كان مستحسنا عنده منه ، وسر السجع ، والفرق بينه وبين التطويل ، ثم شروط السجع المستحسن ثم بعد ذلك نتناول حـــده وأقسامه ٠

أما رأيه فى السجع فانه أسسه على عدم رفضه تماما ، وذلك لأن كثيرا منه ورد فى القرآن الكريم (٧٠) ، حتى انه لتجىء السورة بأكملها مسجوعة كسورة الرحمن أو القمر مثلا ، وأيضا الاحاديث النبوية الشريفة ، أما ما عابه الرسول ﷺ فانما هو السجع الذى يتشدق به بعضهم كسجع الكهان لاغير ، أما عامة السجع فغير مذموم ، كما أن السجع الذى أراده هو الذى ورد موافقا لحكم الكهان (وانما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة) (٧١)

ومن ثم فان ابن الاثير لم يرفض السجع ، بل كان يفضل من السجع ما كان معتدلا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد

---

(٦٩) المثل السائر جا ص ٢٤٦ ٠
(٧٠) الاولى أن تسمى فواصل لاسجع ٠
(٧١) المثل السائر جا ص ١٩٦ ٠

بالاضافة الى جمال وحلاوة الألفاظ المسجوعة بأن تكون حادة طفانة رنانة ، لا غثة ولا باردة ،جل هم قائلها أن يصرف نظره الى السجع دون ان يضع اعتبارا الى مفردات الالفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ، وأيضا المركب منها وما يشترطه من الحسن،وصفى من الغثاثة والبرد ، وتابع اللفظ المعنى ، وجاء عفوا غير متكلف أو متعسف ، هذا بخلاف مايجيء محمولا على الطبع فيكون فى غاية الحسن ، ويراه فى أعلى درجات الكلام (واذا تهيأ للكتاب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فانه يكون قد ملك رقاب الكلم يستعبد كرائما ، ويستولد عقائمها ، وفى مثل ذلك فليننافس وعن مقامه فليتقاعس) (٧٢) وهذا دليل على ذوق الرجل الادبى ورهافة حسه وبصره بمواضع الكلم ، ولذا رأيناه يشترط ان يكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير الذى اشتملت عليه اختها فيكون حسنا مقبولا ، أما اذا كان المعنى فى الثانية يشبه لاولى ، فانه ليس من السجع فى شىء ، بل هـو التطويل الذى هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الاستغناء عن بعضها ، ولذا وضع شروطا أربعة ليكون الكلام أولا سجعا ، وثانيا مقبولا ، وهذه الشروط جمعها فى الآتى :

أولا : اختيار مفردات الألفاظ •

---

(٧٢) المثل السائر جا ص ١٩٧ •

ثانيا : بعد أن تختار اللفظة المفردة ، توضع فى تركيب مختار أيضـــا •

ثالثا : أن يكون اللفظ فى الكلام المسـجوع تابعا للمعنى ، لا العكس •

رابعا : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها (٧٣) •

فاذا تحققت هذه الشروط الاربعة ، وحمل على الطبع غـير المتكلف ، فانه يجىء فى غاية الحسن وهو أعلى درجات الكلام ، وهو الذى يعتد به وسوف يقسمه الى أقسامه •

تعريف الســجع : عرف ابن الأثير السجع فى كتبه ، بأنه تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد (٧٤) وهو بمثابة القوافى فى الشعر،أى أن الفاصلة فى النثر تشبه القافية من الشعر•

ويقسمه الى ثلاثة أقسام من حيث الفاصلتين •

الأول : أن يكون الفصلان متساويين ، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر ، وهذا هو السجع المتوازى لأن الفاصلتين تكونان فيه متوافقتين وزنا وتقفيه وذلك مثل قوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر) فاتفقت تقهر وتنهر وزنا وتقفية ، ومثله

---

(٧٣) المثل السائر جـ١ ص ١٩٩ والجامع الكبير ص ٢٥٣ •
(٧٤) المثل السائر جـ١ ص ١٩٣ والجامع الكبير ص ٢٥٣ وانظر ف الايضاح ص ٢٢٢ تجد الموافقة بين التعريفين •

قوله تعالى (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا •) وهذا النوع أشرف أنواع السجع لما فيه من اعتدال (٧٥) •

الثانى : أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول بحيث يكون هذا الطول مقبولا ومعتدلا ، فاذا خرج به عن حد الاعتدال صار معيبا وهذا الذى يعرف بالترصيع فى النثر بخلاف ترصيع الشعر كقوله تعالى (وقالوا الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا اذا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا) •

الثالث : عكس الثانى وهو ما كان الفصل الثانى أقصر من الأول فهو المعيب الفاحش (وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الاول بحكم طوله ، ثم يجىء الفصل الثانى قصيرا عن الاول فيكون كالشىء المبتور فيبقى الانسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء الى غايته فيعثر دونها) (٧٦)

وربما هذا هو الذى دفعه الى عدم التمثيل له خلاف القسمين السابقين •

وهذه الأقسام الثلاثة تندرج تحت قسمين كبيرين من حيث الطول والقصر :

الأول : السجع القصير ، أى أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة ، اذ كلما قلت الألفاظ كان أحسن ، وذلك لقرب

---

(٧٥) المثل السائر جـ١ ص ٢٣٩ • والافضل أن يقول فواصل •
(٧٦) المثل السائر جـ١ ص ٢٤٠ والايضاح ص ٢٢٣ •

الفواصل المسجوعة ، ولا يستطيعه الا انبارع لوعورة المسلك ، وضيق المجال فى استجلابه ، وتتفاوت درجاته بين عدة الفاظ تبدأ مـــن لفظين لفظين الى العشرة ، فمما جاء من ذلك على لفظين لفظين قوله تعالى (والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا) أو قوله تعالى (ياأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) •

الثانى : السجع الطويل وهـــو الذى تطـــول فيه الألفـــاظ ، وتستجلب له وهذا أسهل تناولا من الأول ، وأيضا تتفاوت درجاته بين عدة ألفاظ من أحد عشر الى اثنى عشر ، واكثر من خمسة عشر لفظا ومنه ما يكون تأليفه من العشرين لفظا فما حولها ، بل ان منه (ما يزيد على هذه العدة المذكورة وهو غير مضبوط) (٧٧) ، ونكتفى بمثال للسجع الطويل وهو قوله تعالى : (والنجم اذا هو ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى) ومن ثم تظهر عقلية ابن الأثير الواعيه للتراكيب ، بل للألفاظ ومواضع استعمالها ،ومعناها، ومبناها •

التصـــــــــريع

ويعرفه بأنه — أى التصريع — فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور ، وفائدته فى الشعر ، أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعلم قافيتها ، وشبه البيت المصرع بباب له مصراعان متشاكلان (٧٨) •

---

(٧٧) المثل السائر جـ١ ص ٢٤٢ •
(٧٨) المثل السائر جـ١ ص ٢٤٢ وانظر الجامع الكبير ص ٢٥٤ والايضاح ص ٢٢٤ •

وعلى عادته يفضل ما جاء منه عفوا غير متكلف وما كان منه قليلا فيكون كالغرة فى الوجه ، أو كالطراز من الثوب ، لأن الكثرة لا تكون مرضية لانها تأتى عن تكلف .

ويقسمه الى سبع مراتب ، وهى قسمة تدل على الدقة فى معرفة الفروق الدقيقـة الرقيقة المتموجـة بين لفظة فى تركيب وآخـر .

الأولى : ويراها أعلى درجات التصريع ، وهى أن يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه،فيفهم معناه دون الحاجة الى الشطر الثانى من البيت ، وهذا هو التصريع الكامل وذلك مثل قول امرىء القيس :

افاطم مهلا بعض هذا التـدلل ∴ وان كنت ازمعت صرمى فاجملى

فكل شطر من هذا البيت قائم بمعناه غير محتاج للاخر .

الثانية : ان يكون الاول من المصراعين مستقلا بنفسه غير محتاج للاخر ، لكن اذا جاء هذا الآخر كان مرتبطا بالأول كقول أبى تمام :

الم يان أن تروى الظماء الحوائم ∴ وان ينظم الشمل المبدد ناظم

فالمصراع الأول غير محتاج الى الثانى فى فهم معناه ، لكن لما جاء المصرع الثانى ارتبطا فى المعنى .

المرتبة الثالثة : وهى التصريع الموجه ، فيكون الشاعر مخيرا فى

وضع كل مصراع موضع صاحبه ، ولا يختل المعنى ، لكن هذا النوع من التصريع أقل جودة من سابقيه •

كقول ابن الحجاج البغدادى :

من شروط الصبوح فى المهرجان ∴ خفــة الشرب مع خلو المكان

فلو وضعنا المصراع الثانى مكان الاول والاول مكان الثانى لم يختل المعنى الذى هو عليه •

الرابعة : التصريع الناقص وفيه يكون المصراع غير مستقل بنفسه ، ولا يفهم معناه الا بالمصراع الثانى ، ولم يرض عن هذا ابن الاثير وهو محق فى ذلك لان هذا النوع من التطويل ،اذ المعنى فيه يؤدى فى بيت كامل كقول المتنبى :

مغانى الشعب طيبا فى المغــــانى ∴ بمنزلة الربيع من الزمان

فلن يفهم الشطر الأول الا بعد قراءة الشطر الثانى من البيت

الخامسة : وهو التصريع المكرر ويكون التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية ، ولذا فهو ينقسم الى قسمين :

(أ) أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها ، وهو أدنى من القسم الثانى كقول عبيد بن الأبرص :

فكل ذى غيبة يئــوب ∴ وغائب الموت لا يئوب

(ب) أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها ، كقول أبى تمام :

فتى كان شربا للعفاة ومرتعا ∴ فاصبح للهندية البيض مرتعا

السادسة : التصريع المعلق ، وهو أن يذكر المصراع الاول ويكون معلقا على صفةتذكر فى المصراع الثانى ، ويراه معيبا جدا، كقول مرىء القيس :

الا ايها الليل الطول الا انجلى ∴ بصبح وما الاصباح منك بامثل

فعلق المصراع الاول على قوله « بصبح » .

السابعة : التصريع المشطور وهو أدنى درجات التصريع وأقبحها ، لأن التصريع فى البيت مخالفا لقافيته كقول أبى نواس :

اقلنى قد ندمت على الذنوب ∴ وبالاقرار عدت الجحود

فصرع بحرف الباء وسط البيت ، ثم قفاه بحرف الدال (٧٩) .

الترصيع

وقد اعتبره ابن الأثير قسما قائما برأسه ، وعده القزوينى نوعا من أنواع السجع ، فجعله ثالث الثلاثة ، المطرف ، والمتوازى والترصيع ، وان كان تعريفهما واحدا ، فهو عند ابن الأثير (أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظ من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية) (٨٠) .

---

(٧٩) انظر المثل السائر جا ص ٢٤٢ : ص ٢٤٦ .

(٨٠) المثل السائر جا ص ٢٦٤ وهو نفس تعريفه فى الايضاح ص ٢٢٢ وقد أخطأ فى الجامع فقال عن الترصيع : أن يكون أحد ألفاظ الفصل الاول مخالفا لما يوازيه من الفصل الثانى ، والاصوب مساوية انظر ص ٢٦٥ .

واشترط التساوى لكى يخرج منه غير المتساوى بالتكرار مثلا كقوله تعالى (ان الابرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم) فتكرار لفظ « لفى » أخرجه من الترصيع لعدم التساوى • وقد زاد بعض زيادة فى المفتاح المنشا فقال فى تعريفه (أن تتوخى سجع مقاطع الاجزاء ، وتصيرها متقاسمة النظم متعادلة الوزن) فقيد الترصيع بتقاسم النظم وتعادل الوزن فأصبح قيدا آخر يخرج ما عداه ، ومثل لذلك بقول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهـ ∴ ـدى الطريقة نفاع وضرار
جواب قاصية جزاز ناصية ∴ عقاد ألوية للخيل جرار

وان كان هنا قد قصره على الشعر فقط (٨١) •

لكنه موجود — أى الترصيع — فى النثر والشعر خاصة شعر المحدثين ، غير أنه قليل جدا ، لما يتطلبه من زيادة التكلف والتعسف وتعمق الصنعة ، ويقسم أرباب هذه الصناعة الترصيع الى قسمين أما هو فلا يميل الى تلك القسمة لأنه يرى الترصيع فى القسم الاول منها فقط ، وعلى كل فانه أورد القسمين ومثل لهما والقسمان هما •

الأول التساوى فى الوزن والقافية ، والقسم الثانى : الاختلاف فى الوزن ، لان ذلك يخلو من الترصيع وهو بالسجع أولى •

القسم الاول : ومثل له نثرا وشعرا ، فمن أمثلة النثر التى أوردها لهذا النوع قول الحريرى فى مقاماته (فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الاسماع بزواجر وعظة) فألفاظ الشق.

---

(٨١) المفتاح المنشا ص ٣١٣ •

الاول من الكلام مساوية لألفاظ الشق الثانى وزنا وقافية ، فيطبع تساوى يقرع ، والاسجاع والاسماع وجواهر وزواجر ، ولفظه ووعظه • أما فى الشعر فكقول الشاعر :

فمكارم أوليتها متـــبرعا ∴ وجـرائم ألغيتها متورعــا

والتساوى ظاهر واضح بين الفاظ الشطر الأول ، وألفـــاظ الشطر الثانى • أما القسم الثانى الذى يرفضه من الترصيع ، فقد أورد أمثلة بكتابه الجامع وحللها وسنكتفى بمثال واحد منها وهو قول تأبط شرا :

حمال الوية شهاد أنديــة ∴ قـــوال محكمة جواب افاق

فألوية تساوى أندية وزنا وقافية ، لكن حمال لا يماثل شهاد فى القافية ، وان اتفقا وزنا ، أما قوال فتساوى جواب ، لكن محكمة لا يوازن أفاق (٨٢) • ولذا رفض هذا النوع ، وان كنا لا ندرى لماذا أتى به فقط فى كتابه الجامع الكبير دون القسم الاول الذى عده ترصيعا •

التوشـــــــــيح

ويسميه القوينى بالتشريع (٨٣) وان كانا متفقين فى التعريف الأن عبارة القزوينى أوجز ، ولذا فهى تحتاج الى ايضاح ، أما تعريف ابن الاثير له فيقول : (أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على

---

(٨٢) الجامع الكبير ص ٢٦٥ •
(٨٣) الايضاح ص ٢٢٥ •

بحرين مختلفين ، فاذا وقف من البيت على القافية الاولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض واذا أضاف الى ذلك مابنى عليه شعره من القافية الاخرى كان أيضا شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض وصار ما يضاف الى القافية الاولى للبيت كالوشاح وكذلك يجرى الامر فى الفقرتين من الكلام المنثور فان كل فقرة منهما تصاغ من سجعتين (٨٤) • الا أنه يحسن استعماله فى الشعر بخلاف استعماله فى النثر •

ومن أمثلته شعرا قول أبى بكر احمد بن الحسين الارجانى يمدح قاضى قضاة فارس :

اسلم ودمت علىالحوادثمارسا ∴ ركنا ثبير أوهضاب حـراء
ونـل المراد ممـكنا منـه على ∴ رغم الدهـور وفز بطول بقـاء

فهذان البيتان يذكران على قافية أخرى وبحر آخر فنقول

اسـلم ودمـت على الحـوا ∴ دث ما رسـا ركنا ثبـيد
ونـل المـراد ممكنـا ∴ منه على رغـم الدهـور

ومثله أيضا قول الحريرى فى مقاماته :

ياخاطب الدنيا الدنية انهـا ∴ شرك الردى وقـرارة الاكـدار
دار متى اضـحكت فى يومها ∴ ابكت غـدا بعدا لهـا من دار
واذا أظل سحـابها لم ينتقع ∴ منة صدى لجهامة الغـرار

فاذا اقتصرنا ووقفنا على الردى كان هذا البيت من الضرب

(٨٤) المثل السائر جـ٢ ٣٦٠ •

الثامن للكامل وهو متفاعلن أربع مرات . وان اكملنا البيت ووقفنا على الاكدار كان البيت من الضرب الثانى من الكامل وهو :

متفاعلن متفـــاعلن متفـاعلن ... متفاعلن ، متفـــاعلن فعــــلاتن

ولذا يرى ابن الأثير أن هذا النوع لا يستعمل الا متكفا ومرد الحسن فيه لما يحتويه من صناعة ، لا بمافيه من براعة ، وأحســـنه ما كان يسيرا كالرقم فى الثواب أو الشية فى الجلد (٨٥) .

المـــــــــــــوازنة

الموازنة تشبه السجع فى المعادلة لا المماثلة ، ففى السجع اعتدال ، وزيادة على الاعتدال ، وهذه الزيادة هى تماثل أجــزاء الفواصل لمجيئها على حرف واحد ، أما الموازنة ففيها اعتدال السجع دون تماثل الفواصل ولذا يصح أن يقال كل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعا ، لأن السجع أخص من الموازنة ، وهى مثله ، كما توجد فى النثر توجد فى الشعر .

أما حدها عنده فهى أن تكون الفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية فى الوزن . وأن يكون صدر البيت الشعرى وعجــزه متساوى الالفاظ وزنا (٨٦) ونصه فى التعريف عن الوزن وصمته عن التقفيه دليل على أنه لم يشترط التساوى فى القافية ذلك الشرط الذى اشترطه فى السجع ، وان كان قد أدخل فى الموازنة ما عرفه

(٨٥) المثل السائر جـ٢ ص ٣٦١ .

(٨٦) المثل السائر جـ١ ص ٢٧٨ .

القزوينى باسم المماثلة (٨٧) ومثل لذلك بقوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم) (٨٨) . أما تعريفه لها فى كتابه المفتاح المنشا فانه أوضح ، فقد عرفها بقوله : أن تكون الالفاظ متعادلة — أى وزنا — متوالية الاجزاء حسنة الترتيب كقول امرىء القيس :

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا ∴ له حجبات مشرفات على الفال(٨٩)

وقد مثل للموازنة بقوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا ، سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ، فلا تعجل عليهم انما نعدلهم عدا) فالآيات عزا ، وضدا ، وأزا ، وعدا ، كلها على وزن فعلا وان اختلفت حروف المقاطع التى هى فواصلها ، وأمثال ذلك كثير فى القرآن الكريم . أماما جاء من هذا النوع شعرا قول ربيعة من ذؤابة :

ان يقتلوك فقد ثلت عروشهم ∴ بعتيبة بن الحارث بن شهاب
باشدهم بأسا على أصحابه ∴ وأعزهم فقدا على الاصحاب

وقد وردت الموازنة فى البيت الثانى ، فان بأسا وفقدا على وزن واحد .

---

(٨٧) الايضاح ص ٢٢٤ .
(٨٨) المثل السائر ج١ ص ٢٧٩ والايضاح ص ٢٢٤ .
(٨٩) المفتاح المنشا ص ٣١١ .

والموازنة تضفى على الكلام رونقا وطلاوة بسبب ما فيها من الاعتدال الذى هو مطلوب فى جميع الاشياء ، فاذا اعتدلت مقاطع الكلام وجدت قبولا واستحسانا لدى السامع .

لزوم مـالا يلـزم

وهو أن يلتزم مؤلف الكلام شعرا ونثرا بمالا يلزمه ، وحده فى النثر هو أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفا واحد ، أما فى الشعر ، فهو أن تتساوى الحروف التى قبل روى الابيات الشعرية(٩٠)

وخيره ما كان عن طبع وسليقة ، وما جاء عفوا غير متكلف ،لان الالفاظ اذا جاءت فى هذا النوع عن سلامة طبع وكانت غير مستجبلة ولا متكلفة كانت غير محتاجة للتانق ، وهذا فرق بين المتكلف وغير المتكلف فالمتكلف (هو الذى يأتى بالفتر والروية ، وذلك أن ينفى الخاطر فى طلبه ، ويبعث على تتبعه واقتناص أثره ، وغير المتكلف يأتى مستريحا من ذلك كله) (٩١) . فاذا ما سُنح للناثر أو الشـاعر اثناء صياغة عمله الفنى كان غير متكلف مما يدل على الطبع والتمكين بخلاف المتكلف .

وقد الف المعرى فى ذلك كتابا سماه باللزوميات ومثله فى ذلك مثل باقى الشعراء والكتاب فأورد فيه الغث مع السمين ؛ ولذا فان ابن الاثير رأى أن ما جاء عن العرب الاقدمين من اللطـافة ما يشهد لنفسه كأنه الماء الجارى فمن جيد المعرى :

---

(٩٠) المثل السائر جا ص ٢٦٧ .
وانظر الجامع ص ٢٦٥ .
(٩١) المثل السائر جا ص ٢٧٦ .

لا تطلبن بالة لك حاجـــــة ∴ قلم البـــليغ بغير حـد مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما ∴ هذا له رمـــح وهذا أعـــزل

ومما ورد عن العرب قول طرفه بن العبد :

ألم تر أن المال يكسب أهله ∴ فضوحا اذا لم يعط منه نواســـبه
أرى كل مال لامحـــالة ذاهبا ∴ وأفضله ما ورث الحمد كاسبه (٩٢)

ويقول ابن الاثير عن قصيدة كثير عزة التى مطلعها :

خليلى هذا ربع عزة فاعقـــلا ∴ قلوصيكما ثم ابـكيا حيث حلت

(وهذا القصيدة تزيد على عشرين بيتا ، وهى مع ذلك سهلة لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها ، وليس عليها من أثر الكلفة شىء) (٩٣) •

ومما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق) وقوله أيضا (والطور وكتاب مسطور) وقال أيضا (قال قرينة ربنا ماأطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لدى وقد قدمت ليكم بالوعيد ويعلق على هذه الايات قائلا (ولا نجد ذلك فى القرآن الا قليلا) ، أو ، (وقد ورد فى القرآن الكريم شىء من اللزوم الا أنه يسير جـدا) (٩٤) •

---

(٩٢) المثل السائر جا ص ٢٧٢ •
(٩٣) المثل السائر جا ص ٢٧٣ •
(٩٤) المثل السائر جا ٢٧٧ ، ص ٢٧٨

ومما ورد نثرا من كلام العرب قول بنت قيس بن خالد ذى الجدين بعد ما تزوجت غير لقيط بن زرادة بعد موته ، قالت عن لقيط (انه خرج فى يوم دجن وقد تطيب وشرب ، فطرد البقر ، فصرع منها ، ثم أتانى وبه نضح دم ، فضمنى ضـمة ، وشمنى شمة فليتنى مت ثمة ..) (٩٥) فقولها : ضمنى ضمة ، وشمنى شمة ، ومت ثمة ، كلام غير متكلف ولذا عليه رونق الطلاوة والحلاوة .

براعـــة الاســـــتهلال

ويسميه بالمبادى والافتتاحات ، أو ببراعة الاستهلال فقد جاء فى كتابه المفتاح المنشا (وأما براعة الاستهلال : وهو أن تبتدىء بفاتحة الكتاب الذى تكتبه بكلام مخترع يـكون دالا على كافة الكتاب) (٩٦) ولذا آثرناها عنوانا لما يعرف بحسن الابتداء أو المبادى والافتتاحات ، فكلها تسميات لمدلول واحد ، وهو ركن ركين للبلاغة والكتابة ، فانه لابد أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة تدلان على ما فى الكتاب ولذا فانه لا يكون الكاتب كاتبا الا اذا أجاد المطلع والمقطع ، وأن يكون المطلع مبنيا على مقصد الكتاب (٩٧) .

ويعرفه ابن الاثير بقوله : (أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى لمقصود من ذلك الكلام) (٩٨) فيكون

---

(٩٥) المثل السائر جـ١ ص ٢٦٩ .
(٩٦) المفتاح المنشا ص ٣١٥ .
(٩٧) المثل السائر جـ١ ص ٧٢ .
(٩٨) المثل السائر جـ٢ ص ٢٣٦ .

أول ما يقابل لقارىء أو لسامع كلاما يستدل به على فهم المعنى الذى وراءه سواء للكتاب أو القصيدة ، وهذا يتطلب من الكاتب أو الشاعر أن يراعى الموضوع الذى يكتب فيه أو ينشد فيه اذ لكل مقام مقال، فما يناسب الغزل ، لا يساير الرثاء ، وما يتطلبه الموضوع الذى يكتب فيه ، فان كان فتحا ونصرا ، أو هزيمة وخزلانا أتى بما يتناسب وذلك، وعليه اذا كان الحدث مهما أن يجعل به فى مطلع كلامه ، كى يزيد فى تشويق السامعين لما بعد هذه المقدمة ، ولذلك فالناس فريقان فى هذا : فريق وعى فأجاد ، وآخر خمل فقصر ، فذكر ما يثقل على النفس مما تنفر ، بل مما تتشاءم منه (ومن أدب هذا النوع الا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة المديح ما يتطير منه وهذا يرجع الى أدب الدرس ، فينبغى أن يحترز منه فى مواضعه كوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفاء . وغير ذلك من تشتت الالاف وذم الزمان ، ولاسيما اذا كان فى التهانى ، فانه يكون أشد قبحا ، وانما يستعمل ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلام فى المديح مفتتحا بشىء من ذلك تطير منه سامعه) (٩٩) •

اذن وجب على مؤلف الكلام أن يتحرز ويختار ، فلا يفجأ سامعه بما يكرهه أو يعافه ، وكلما كان بارعا دل فى افتتاح قصيدته على ما تحويه القصيدة بأكملها أو الخطاب برمته •

---

(٩٩) المثل السائر جـ٢ ص ٢٣٧ •

ولذلك وجدنا ابتداءات القرآن الكريم من ابرع ما جاء فى الابتداء فنجد السورة أحيانا تبدأ بالنداء الذى يوقظ السامع ويدعوه للاصغاء ، وأحيانا تبدأ بحروف يسيرة ، غاية فى الاعجاز والغرابة ، بل ان معناها يتساوى مع مبناها فى النذير أو النصح ، أو الارشاد وترك الغى ، ولذا وجدنا ما كان من حرف واحد مثل قوله تعالى (ص ، ن ، ق) وما كان على حرفين كقوله تعالى (حم ، طس) أو ثلاثة فما فوق كقوله تعالى أيضا (الم ، عسق ، كهيعص) وما شابه ذلك ، وكلها مدلولات لدلالات خاصة مناسبة سيقت فى مناسبتها ، ودلت على ما عليه الكلام التالى ، وكلها معانى بديعة وافتتاحات بارعة .

فاذا كان استهلال كتاب من الكتب السلطانية ، فيجب على الكاتب أن يختار من التحميدات ما يكون مناسبا لمعانى الكتب ، أما اذا أراد الشاعر أن يذكر مكانا أو بعض المنازل فى قصيدته ، فيختار من الاماكن والمنازل مارق لفظه ، وحسن النطق به كالعذيب، والغوير ، ورامة ، وبارق والعقيق ، واذا أراد ذكر أسماء النساء فى الغزل ، فليذكر مارق أيضا من الاسماء ، نحو سعاد ، وأميم وفوز (١٠٠) كما أنه ليس من شرط الابتداء ألا يكون مما يتطير منه فقط ، فان من الابتداء ما يستقبح وان لم يتطير منه كقول أبى تمـام :

---

(١٠٠) المثل السائر جـ٢ ص ٢٤٠ .

قدك اتئب اربيت فى الغلواء ∴ كم تعذلون وأنتم سجرائى

اذا هناك ابتداءات يتطير منها كقول اسحق الموصلى للمتعصم عندما بنى قصره :

يادار غيرك البلى ومحاك ∴ ياليت شعرى ما الذى أبلاك

فيتطير المعتصم بذلك وخرب القصر ٠

ومنها ما يستثقل وان لم يكن مستقبحا فى معناه كما قال البحترى :

ان للبين منة لا تؤدى ∴ ويدا فى تماضر بيضاء

فهذا الاسم شوه رقة الغزل ٠

بالاضافة الى أن هناك ابتداءات نادرة ؛ كقول المتنبى متغزلا :

أتراها لكثرة العشاق ∴ تحسب الدمع خلقة فى المآقى

ومن بارع الابتداءات التى وردت قول أشجع السلمى حيث قال :

قصر عليه تحية وسلام ∴ خلعت عليه جمالها الايام

أو قول الخنساء فى أخيها : وقد جمعت جميع المدح فى بيتين :

وما بلغت كف امرئ متناولا ∴ من المجد الا والذى نلت أفضل
وما بلغ المهدون للناس مدحة ∴ وان أطنبوا الا الذى فيك أفضل[١٠١]

---

(١٠١) المفتاح المنشا ص ٣١٥ ٠

ومن الابتداءات التى وردت فى أوائل الكتب وهى دالة بارعة ومناسبة ، ما قله ابن الأثير فى فتح احدى فقال : (هذا الكتاب مشافه بخدمة الهناء للمجلس السامى جدد الله له فى كل يوم فتحا ، وبدل عرش كل ذى سلطان لديه صرخا ، وجعل كل موقف من مواقف جوده وبأسه يوم فطر ، ويوم أضحى ، وكتب له على لسان الاسلام ولسان الايام ثناء خالدا ومدحا ، وأسكنه بعد العمر الطويل دارا لا يظمأ فيها ولا يضحى ...) (١٠٢) ثم أكمل بعد ذلك الكتاب فى الفتـــــح .

التخـــلص والاقتصـــــاب

أولا : التخلص : والتخلص كبراعة الاستهلال فى أهميته للكاتب والشاعر ويعرفه ابن الاثير بأنه عندما يأخذ مؤلف الكلام فى معنى من المعانى فبينما هو فيه اذ أخذ فى معنى آخر غيره وجعل الأول سببا اليه فيكون من بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلاما آخر . وهذا التعريف قريب من تعريف الخطيب القزوينى الذى أضاف على معنى هذا التعريف وجوب مراعاة الملاءمة بين المعنى المنتقل اليه والمنتقل منه (١٠٣) وهو ما تنبه اليه ابن الاثير (١٠٤) . فقال : هو أن تنتقل من الصفحات ، والادعية الى المطلوب فى الكتاب ، انتقالا حسنا غير خارج فى اللفظ والمعنى (١٠٥) ، وترجع

---

(١٠٢) المثل السائر جـ٢ ص ٢٥٠ .
(١٠٣) الايضاح ص ٢٤٣ .
(١٠٤) المثل السائر جـ٢ ص ٢٦٥ وأيضا أثناء رده على الغانمى كما سوف نوضـــح .
(١٠٥) المفتاح المنشا ص ٣١٥ .

أهمية التخلص الى أن المتكلم لا يشعر بفجوة أو بانقطاع فى الكلام بل يكون الكلام متصلا كأنه يأخذ برقاب بعضه بعضا ، أو كأنما أفرغ افراغا ، ولن يتسنى هذا لكل شاعر أو كاتب ، فلن يستطيعه الا المفلق من الشعراء ، والبارع من الكتاب ، وأفضله ما جاء عفوا غير متكلف أو مصنوع ، هذا ميسور للكتاب ، أما الشعراء فان الوزن والقافية يضيقان عليهم ٠

فمن أحسن ما جاء فى التخلص قول المتنبى :

وأورد نفسى والمهند فى يدى ∴ موارد لا يصدرن من لا يجالد
ولكن اذا لم يحمل القلب كفه ∴ على حالة لم يحمل الكف ساعد
خليلى انى لا أرى غير شاعر ∴ فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا ان السيوف كثيرة ∴ ولكن سيف الدولة اليوم واحد

مما دفع ابن الاثير الى قوله تعليقا على هذه الابيات (وهذا هو الكلام الاخذ بعضه برقاب بعض ، ألا ترى الى الخروج الى مدح الممدوح فى هذه الابيات كأنه أفرغ فى قالب واحد ، ثم ان أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ، ومدح سيف الدولة فى بيت واحد ، وهو من بدائعه المشهورة) (١٠٦) ٠

وهناك أمثلة عديدة أوردها للمتنبى وغيره من الشعراء ، وكلها من أحسن التخلص وأبرعه ٠ كقول محمد بن وهب :

---

(١٠٦) المثل السائر جـ٢ ص ٢٦٢ ٠

مازال يلثمنى مراشـــــفه ∴ ويعلنى الابـريق والقـــدح
حتى استرد الليــــل خلعته ∴ وبدا خـلال ســـواده وضـح
وبدا الصـــباح كأن غـــرته ∴ وجه الخليفة حين يمتدح (١٠٧)

فساد هذا الرأى ، لان التخلص هو خروج من كلام الى آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه والكلام الذى خرج اليه ، ومن يتدبر القرآن سوف يرفيه كثيرا من مواضع التخلص، كالخروج من الوعظ والتذكير والبشارة بالجنة الى أمر ونهى ووعد ووعيد ، ومن محكم الى متشابه ، ومن وصف لنبى الى ذم شيطان بلطائف دقيقة ومعان يأخذ بعضها برقاب بعض ، وضرب لذلك مثلا بقصة سيدنا ابراهيم مع قومه (١٠٨) ، وقصة سيدنا موسى مع قومه حيث قال تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجـــلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبـــل واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الافتنتك تضل بها من تشاء ، وتهدى بها من تشاء ، أنت ولينا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ، وفى الاخرة انا هدنا اليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى

---

(١٠٧) المفتاح المنشا ص ٣١٥ ·
(١٠٨) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٦ ·

التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك هم المصــلحون) ففى هذه الايات ذكر الله تعالى موقف موسى من قومه ، فلما أراد ذكر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض ، فعندما قال سيدنا موسى عليه السلام (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) أجابه سبحانه وتعالى بقوله : (قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين) صفاتهم وحالهم كذا وكذا وهم الذين (يتبعون الرسول النبى الأمى) ثم جاء سبحانه وتعالى بصفات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حتى ختم الكلام . (١٠٩) كما يرى أيضا أن سورة سيدنا يوسف عليه السلام مليئة بالتخلصات والخروج من معنى الى آخر . كما أورد لنفسه مجموعة من كتاباته ورسائله تدليلا على فهمه واســتيعابه وتذوقه للتخلص (١١٠) ومثلما أتى بالتخلصات الفخمة الفحلة أو البديعة المستحسنة أتى أيضا بالوان من التخلص البارد الخــالى من مسحة الجمال والاقتضاب منه أولى ، كقول المتنبى عندما أراد الخروج من الغزل الى المديح :

---

(١٠٩) المثل السائر جـ٢ ص ١٦٩ .

(١١٠) المثل السائر جـ٢ ص ٢٦٩ : ص ٢٧١ .

غدا بك كل خـــلو مستهاما ∴ واصبح كـــل مســـتور خليعـا
احبك او يقولوا جـر نمـــل ∴ ثبيرا وابن ابراهيم ريعا (١١١)

فيراه تخلصا باردا — وحق له ذلك — لانه خال من مسحة الجمال ، ولذا فالاقتضاب أحسن منه ، لانه جاء مستكرها .

الاقتضـــــــــــــاب

الاقتضاب عكس التخلص ، لان الاقتضاب يقطع كلام الشاعر الذى هو فيه ، ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ، ولا يكون للثانى علاقة بالاول (١١٢) وقد يكون وصل الكلامين بلفظة « أما بعد » أو « هذا » .

فعندما يفتتح المتكلم كلامه بحمد الله وذكره ، يثنى بـــذكر الغرض الذى ساق الكلام من أجله ، فيأتى بلفظة أما بعد ليفصل بين ذكر الله تعالى وحمده وبين ما أراده بهذه اللفظة ، وهو فى هذا يرتفع الى منزلة قريبة من التخلص

أما لفظة هذه فهى علاقة وكيدة بين الخروج من كلام الى كلام آخر غيره . وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم فى أكثر

---

(١١١) المثل السائر جـ٢ ص ١٧٤ وابن ابراهيم هو : على بن ابراهيم التنوخى .

(١١٢) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

من موقع ومثال ذلك قوله تعالى :

(واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار ، أنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ، واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار هذا ذكر وان للتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب) فأورد ذكر الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعندما أراد أن يذكر بابا آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلها قال (هذا ذكر) ثم قال (وان للمتقين لحسن مآب) ، وعندما أكمل الكلام وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال : (هذا وان للطاغين شر مآب) وكما يقول ابن الاثير (وذلك من فصل الخطاب الذى هو الطف موقعا من التخلص) (١١٣) • كما يأتى بأشعار وردت فيها لفظة (هذا) لكنها ما جنة وينتهى الى حكم عام خلاصته أن الاقتضاب فى الشعر لا يحصى ، بخلاف التخلص الذى هو بالنسبة الى الاقتضاب قطرة من بحر ، كما أن التخلص يأتى فى شعر الشاعر المجيد قليلا أما الاقتضاب فهو كثير فى شعر الشعراء ، من ذلك قول أبى نواس فبينما هو يصف الخمر ويقول :

فاسقنى كأسا على عذل ∴ كرهت مسموعه اذنى
من كميت اللون صافية ∴ خير ما سلسلت فى بدنى
ما استقرت فى فؤاد فتى ∴ فدرى مالوعة الحزن

---

(١١٣) المثل السائر جـ٢ ص ٢٧٦

حتى قـــال :

تضحك الدنيـــا الى ملـــك ... قـــام بالاثـار والســـنن
ســـن للناس الندى فنـــدوا ... فكـــان البخـــل لم يـــكن

فامتدح بعد وصف الخمر مقتضبا ، ولذا فان ابن الأثير يخرج بحكم عام على شعر ابى نواس قائلا (فأكثر مدائح أبى نواس مقتضبه هكذا ، والتخلص غير ممـــكن فى كل الاحـــوال وهو من مستصعبات علم البيان) (١١٤) •

الالتفـــــــــات

هذا الفن من فنون البلاغة يتناوشه علمان من علوم البلاغة هما المعانى والبديع فاذا كان البديع يبحث فيما يكسب الكلام زخرفا وابداعا ، فان الفائدة المرجوة من الالتفات هى كسب الكلام طلاوة وزخرفا وابدعا لان السامع عند ما يسمع احدى صور الالتفات فانه يجد لذلك التحويل لذه ومتعة لا يجدها للكلام عندما يخـــلو من الالتفات ، ولما فيها من الجدة والطرافة فيشحذ فكره وينشط عقله وخياله لفهم مرامى الصورة الالتفاتية ، وتبعا لذلك فان لعلم البديع نصيبا فى الالتفات •

وأيضا علم المعانى فانه يقضى بتطبيق الكلام على مقتضى الحال ، فاذا نظرنا الى الشق الاخر من الالتفات — أعنى ما يكون من فوائده — لوجدنا أن صور الالتفات تتطلب مزيدا من اصغاء

---

(١١٤) المرجع السابق ص ٢٧٧

السامع ، والمقام يقتضى أيضا جذب اهتمام السامع لعظم المقام ، أو لخطر شأنه ، كأن يكون المقام مدحا فى عظيم ، أوبيان دليـل ومن ثم يكون الالتفات مبحثا من مباحث علم المعانى •

ولذا فان من اعتبره من مباحث علم البديع نظر الى كون الالتفات يكسب الاسلوب طرافة وزخرفا ، ومن اعتبره رافدا من روافد المعانى نظر الى أنه يراعى المقام الذى سيق فيه •

وان كنت أرى أنه بعلم البديع ألصق لأن علم البديع كما هو معروف العلم الذى يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة ، فهذا دليل على أن البديع يأتى بعد أن يكون المتكلم مد طبق شروط علمى المعانى والبيان ، اى مقتضى الحال ووضوح الدلالة ومن ثم فان منزله علم البديع بعد منزلة علمى المعانى والبيان • وهذا ما يحدث فى الالتفات فانه يراعى مقتضى الحال ، ثم يدبج ويزخرف الاسلوب بعد ذلك •

ومهما يكن من أمر فان هذا الفن واضح ظاهر فى ذهن ابن الاثير وكما سوف يتضح لنا فانه حق له أن يثنيه على غيره بدراسته له (١١٥) ويسميه شجاعه العربية ، اسوة بالشجاعة الحسية لدى الانسان الشجاع بل هو فى نظره خلاصة علم البيان مع أشياء أخرى مماثله •

تعريفه : يعرفه ابن الاثير بأنه الانتقال من صيغة الى أخرى ، كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب ، أو غائب الى حاضر ، أومن

---

(١١٥) الجامع الكبير ص ٩٨ •

فعل ماض الى مستقبل أو من مستقبل الى ماض (١١٦) • أو أن يكون المتكلم فى كلام فيعدل عنه الى غيره قبل أن يتم الاول ثم يعود اليه فيتمه فيكون فيما عدل اليه مبالغة فى التأكيد وزيادة فى الاعتناء بــه (١١٧) •

وأقسام هذا الفن متناثره بين كتبه ، فكل منها يكمل الأخر ، وبعد دراسه متأنية لهذا الفن عنده وبعد جمــع شتاته وجدناه ينقسم عنده الى قسمين كبيرين :

أولا : قسم خاص بالافعال ، وكيف يكون الالتفات والانتقال بينهــا •

وثانيا : قسم خاص بالاسماء وكيف يتم الالتفات فيها •

وتبعا لذلك فاننا سوف ندرس الالتفات دون اعتبار لاقسامه لكن بالنظر الى هذين القسمين ، وما يندرج تحت كل قسم مما استخلصناه من دراستنا لكتبه ونبدأ أولا بالافعال :

أولا : الألتفات فى الأفعال : وهو ما يتم بين أقسام الفعل الثلاثة الماضى ، والمضارع والامر ، وقد عبر عن المضارع بالمستقبل قاصدا به ذلك النوع من الافعال وهو :

١ — الرجوع من الفعل المستقبل الى فعل الأمر : وليس الهدف

---

(١١٦) المثل السائر جـ٢ ص ٤ والجامع الكبير ص ٩٨ •
(١١٧) المفتاح المنشا ص ٣١٤ •

من هذا النوع هو التوسع فى الكلام ، بل ثمة هدف اكبر من ذلك وأبلغ ، اذ القصد من ذلك بالاضافة الى ما تقدم تضخيم حال من أجرى عليه فعل الامر • وتعظيمه ، وعليه جاء قوله تعالى حكاية عن قوم هود (ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، قال انى اشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون) ، فسياق الكلا يقضى بأن يقول انى اشهد الله واشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه ، غير أنه عدل عن هذا لان اشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما اشهادهم ، فما هو الا تهاون بهم وقلة اكتراث لامرهم ، فلاختلاف ما بينهما عدل عن المضارع الى الامر فقال : واشهدوا (١١٨) •

٢ — الرجوع عن الفعل الماضى الى فعل الأمر ، وتأتى هذه الصيغة توكيدا لما أجرى عليه فعل الامر لمكان العناية بتحقيقه ، كقوله تعالى (قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) فرجع عن الماضى الى الامر فقال : (أمر وأقيموا وادعوه أى للعناية بتوكيده فى النفوس لان الصلاة أوكد فرائض الله على خلقه ، ثم أتبعها بالاخلاص الذى هو عمل القلب) (١١٩) •

٣ — الاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل ، فالمضارع اذا

---

(١١٨) المثل السائر ج٢ ص ١٤ والجامع الكبير ص ١٠١ •
(١١٩) المرجع السابق ص ١٤ •

جيء به فى حالة الاخبار عن وجود الفعل كان أبلغ من الاخبار بالفعل الماضى ، وذلك لان الفعل المضارع يوضح الحال التى يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وان الفعلين يشتركان فى ذلك ، الا أن الفعل المضارع أوكد وأشد تخيلا لأن السامع يستحضر صورة الفعل حتى كأنه ينظر الى الفاعل فى حالة وجود الفعل منه ، وذلك كقوله تعالى (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا ، فسقناه الى بلد ميت ، فأحيينا به الارض بعد موتها ، كذلك النشور) ، فبالرغم من تقدم الفعل الماضى وهو «أرسل» وتأخره أيضا وهو « أحيا » الا أنه أخبر بالمضارع عن الماضى فقال تثير فهو حكاية الحال التى يقع فيها اثارة الريح السحاب ، كما أن فيه استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على الله سبحانه وهكذا يفعل بكل فعل فيه تمييز وخصوصية كحال تستغرب أوتهم المخاطب ، ومثله قول تأبط شرا فى قتله الغول :

بأنى قد لقيت الغول تهوى ∴ **بسهب كالصحيفة صحصحان**
فأضربها بلا دهش فخرت ∴ **صريعا لليدين ، وللجران**

فأخبر عن الماضى بالمضارع فقال « فأضرها » لانه أراد أن يصور لقومه الحال التى تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم اياها مشاهدة للتعجب من جراءته فلو قال ، فضربتها بالماضى عطفا على لقيت لزالت هذه الفائدة المذكورة ، فهو بهذا دعى السامع الى أن يتخيل قيامه بالضرب وأمامه الغول وقد رفع السيف ليضربها ولن يتم هذا الا اذا كان التعبير عنه بالمضارع ، بدلا من الماضى(١٢٠).

---

(١٢٠) المثل السائر ج٢ ص ١٤ ، والجامع الكبير ص ١٠٣ .

٤ — الاخبار عن الفعل المضارع بالماضى ، وفائدة ذلك أن الفعل الماضى اذا اخبر به عن الفعل المضارع الذى لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد فى تحقيق الفعل وايجاده ، لان الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد ، وانما يفعل ذلك اذا كان الفعل المضارع من الاشياء العظيمة التى يستعظم وجودها ، تلك التى لم توجد ، والامور المتعاظمة التى لم تحدث فينزل منزلة ما كان وما وجد فالغرض بذلك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته لتظهر أمام السامع وكأنه يعاينها أو يشاهدها ، وهذا هو الفرق بين هذا النوع وبين سابقه ، وأمثلة ذلك كثيرة منها قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض) ، فقال « ففزع » بالماضى بعد ما قال « ينفخ » بالمضارع وذلك للاشعار بتحقيق الفزع، وهو واقع لا محالة ، فالتعبير بالماضى دل على وجود الفعل وأنه مقطوع بحدوثه (١٢١) .

٥ — الاخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع ، وقد أوردته فى أقسام الفعل ، وذلك لقرب اسم المفعول فى عمله من عمل الفعل ، لانه يحل محله ويتضمن معناه ، من ذلك قوله تعالى : (ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخره ، وذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود) فأتى باسم المفعول لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لذلك اليوم (١٢٢) .

---

(١٢١) المثل السائر ج٢ ص ١٨ والجامع ص ٢٠٤ .
(١٢٢) المثل السائر ج٢ ص ١٩ .

ثانيــا : فى الاسماء

١ ــ من الغيبة الى الخطاب : ويستعمل هذا الاسلوب للتفنن فى الكلام والاتساع فيه ، كما أن الانتقال من اسلوب لاسلوب فيه تطرية لنشاط السامع ، وايقاظا للاصغاء اليه ، هذا بالاضافة الى أنها تستعمل لتعظيم شأن المخاطب كقوله تعالى فى سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين،الرحمن الرحيم مالك يوم الدين،أياك نعبدواياك نستعين ،اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم،غير المغضوب عليهم ولاالضالين) فهذا رجوع من الغيبة الى الخطاب،ومن فوائده أنه ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة ، والملك الخاص ، فعلم العالم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالخضوع له ، والاستعانة به فى المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات ، فقيل : اياك نعبد يامن يتصف بهذه الصفات أى نخصك بالعبادة ، والاستعانة ، ليكون أدل على العبادة ، لذلك التميز الذى لا تحق العبادة الا به ، فان قوله (اياك نعبد ، واياك نستعين) بعد قوله (الحمد لله رب العالمين) عدول من الغيبة الى الخطاب للاتساع من ناحية ولان الحمد دون العبادة من ناحية أخرى ، فقد يحمد الانسان للانسان صنيعا أو معروفا ، لذا استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال « الحمد لله » ولم يقل « الحمد لك » فلما وصل الى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال (اياك نعبد) فخاطب بالعبادة اصراحا بها وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء الى محدود منها •

أما آخر السورة فقد قال فيه (صراط الذين أنعمت عليهم) فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال « غير المغضوب عليهم » عطفا على الاول لان الاول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار الى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب ، فأسند النعمة اليه لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا .

ففى هذه قد انتقل فى أولها من الغيبة الى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب وعكس فى آخرها فانتقل من الخطاب للغيبة لتعظيم شأن المخاطب أيضا ، لان مخاطبة الله سبحانه وتعالى باسناد النعمة اليه تعظيم لشأنه ، وخطابه ، كذلك ترك مخاطبته باسناد الغضب اليه تعظيم لخطابه (١٢٣) ومن هذا القبيل قول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح ... سقيت الغيث أيتها الخيام

(ذكر الخيام ثم شرع فى كلام آخر وهو قوله « بذى طلوح » ثم التفت وقال : سقيت الغيث أيتها الخيام) (١٢٤) .

٢ — **الرجوع من خطاب الغيبة الى خطاب النفس** : كقوله تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها ، وللارض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى الى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم) فقد التفت فيه من الغيبة فى قوله تعالى (ثم استوى) ، وقوله (فقضاهن) وقوله

---

(١٢٣) المثل السائر ج٢ ص ٥ ، ص ٦ ، ص٧ .
والجامع الكبير ص ٩٨ ، ص ٩٩ .
وأنظر المثل السائر ج٢ ص ٧ وتحليله للالتفات فى سورة الاسراء .

(١٢٤) المفتاح المنشا ص ٣١٤ .

(وأوحى) الى التكلم فى قوله تعالى (وزينا) فالعدول من مخاطبة الغيبة الى مخاطبة النفس مهم من مهمات الاعتقاد ، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة ببطلان أن النجوم ليست فى السماء الدنيا ، وأنها ليست حفظاولا رجوما (١٢٥) .

٣ — **الالتفات من التكلم الى الخطاب** كقوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون) فصرف الكلام عن خطاب نفسه الى خطابهم ، لانه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة ، وهو يريد منا صحتهم ليتطلف بهم ويداريهم ، لان ذلك أدخل فى امحاض النصح حيث لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه وقد وضع قوله (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) مكان قوله : وما لكم لا تعبدون الذى فطركم ، ألا ترى الى قوله (واليه ترجعون) ولولا أنه قصد ذلك لقال الذى فطرنى واليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال (انى آمنت بربكم فاسمعون) (١٢٦) .

٤ — **من الخطاب الى الغيبة :** كقوله تعالى (حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) فقد صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة لفائدة ، فقد ذكر حالهم لغيرهم ، ليدفعهم على

---

(١٢٥) المثل السائر جـ٢ ص ٨ .
(١٢٦) المثل السائر جـ٢ ص .

التعجب منهم والانكسار عليهم ، فلو قال : حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة ، وفرحتهم بها ، وساق الخطاب معهم الى آخر الاية لذهبت تلك الفائدة الناتجة عن خطاب الغيبة (١٢٧) .

٥ ــ الرجوع من خطاب التثنية الى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع الى خطاب الواحد :

كقوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين » فقد نوع الخطاب فى هذه الآية الكريمة ، فثنى ، ثم جمع ، ثم وحد ، فخاطب موسى وهارون عليهما السلام بالنبوة والاختيار ، ثم ساق الخطاب لهما باتخاذ المساجد ، واقامة الصلاة ثم خص موسى بالبشارة التى هى الغرض ، تعظيما له وتفخيما لامره لأنه هو الرسول على الحقيقة (١٢٨) .

مما يتقدم يتضح لنا القول فى الالتفات ، وكان ابن الاثير موفقا عندما نعته بأنه من شجاعة العربية تشبيها لها بالانسان الشجاع وقد حصره فى اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، وهو بجانب ما يفيده من الاتساع فى الكلام فانه يساق لأغراض خاصة كالتعظيم والتفخيم ، بالاضافة الى أنه يكسو الكلام طلاوة ، كما أن الكلام اذا نقل من اسلوب لاخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع

(١٢٧) المثل السائر جـ٢ ص ١٢ والجامع الكبير ص ١٠٠
(١٢٨) الجامع ص ١٠١ ، ١٠٢ .

وايقاظا للاصغاء اليه ، عكس اجرائه على اسلوب واحد ونمط متشابه ، ولذا يقول عنه ابن الاثير انه خلاصة علم البيان (التى حولها يدندن واليها تستند البلاغة ، وعنها يعنعن) (١٢٩) •

السرقات الشعرية

تناثرت دراسة ابن الاثير لهذه القضية عبر كتبه ، الا أنه قد خصص لدراستها كتاب « الاستدراك فى الأخذ على المآخذ الكندية من المعانى الطائية » (١٣٠) ولكن دراسته للسرقات فى هذا الكتاب دراسة غير كافية فانه تكلم فيه عن النسخ ، والسلخ ، والمسخ فقط ، ولقد استدرك على نفسه بعد ذلك فتناول نوعين آخرين من السرقات كما سوف نوضح ، يقول : (واعلم أن علماء البيان قد تكلموا فى السرقات الشعرية فأكثرو ، وكنت ألفت فيه كتابا ، وقسمته ثلاثة أقسام : نسخا ، وسلخا ومسخا) (١٣١) • وهذا دليل على أنه ألفه قبل المثل السائر

تناول هذه المشكلة فى كتبه متناثرة الا أن أوفى دراسة لها عنده كانت فى المثل السائر ، أما دراسته لها فى الجامع الكبير أوالمفتاح المنشا فليست بالعمق الذى هى عليه فى المثل السائر ، فلم نجد التحليل والموازنة التى فى المثل ، بل دراسة متبورة مستوفزة تحت عنوان (الاخذ والسرقة والاشارة الى الجيد من ذلك الذى لابأس به ، والردىء الذى لا فسحة فى استعماله ، لانه عيب فى الكلام

---

(١٢٩) المثل السائر جـ٢ ص ٤ •
(١٣٠) مشكلة السرقات فى النقد العربى ص ١٢٧ •
(١٣١) المثل السائر جـ٢ ص ٣٦٥ •

فاحش) (١٣٢) • وان كان منهجه وعرضه واحد ، فهو يميل الى الكثير من التقسيم والتبويب ، شأنه فى دراسته تلك كشأنه فى دراسته السابقة لفنون البلاغة •

وهناك دراسة قيمة استفدت منها كثيرا عند معالجة هذا الفن كما سوف يتضح ، وهى دراسة مشكلة السرقات فى الادب العربى فقد تناول المؤلف أثناء عرضه لمناهج النقاد العرب فى بحث السرقات ، منهج ابن الاثير فى دراسة لهذه القضية عبر كتبه (١٣٣) •

يحدد ابن الاثير منذ البداية ، فائدة دراسة السرقات ، فهى توضح للشاعر كيف يأخذ المعانى من غيره،اذ لابد من الاخذ والسرقة غير أن الآخذ لابد له أيضا أن يعتمد على التورية والخفاء لما أخذ، فيكون أخذه أخفى من سفاد الغراب (١٣٤) •

كما يقرر أيضا أن باب الابتداع مفتوح الى يوم القيامة ،فصياغة المعانى وابتداعها يتساوى فيه الشعراء ، فلا فضل لسابق على لاحق (لان الخواطر تأتى من غير حاجة لى اتباع الاخر) (١٣٥) ، وذلك مثل المعانى المقرورة التى تدولت بين الجميع وصارت معروفة شائعة ، كما يجىء فى الغزل ، أو فى المديح ، أو فى المراثى ، وفى النهاية يخلص الى أن المعنى العام ليس فيه سرقة ، بل تطلق السرقة فى رأيه على المعنى المخصوص ، أما ما شاع وانتشر بين القوم أو

---

(١٣٢) الجامع ص ٢٤٢ •
(١٣٣) انظر مشكلة السرقات ص ١٢٧ : ص ١٣٤ •
(١٣٤) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٢ •
(١٣٥) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٣ •

القبيلة فهذا من توارد الخواطر (ولعمرى ان القـوم اذا كانوا من قبيلة واحدة ، فان خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم تكون متقاربة) (١٣٦) . ومن ثم فليس هناك سرقة .

لكن الغريب أنه لم يثبت على قول فى دراسته للسرقة ، فهو تارة يقول (والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الاخر شيئا من ألفاظ الأول فى معنى من المعانى ، ولو لفظة واحدة ، فان ذلك من أول الدليل على سرقته) (١٣٧) وأخرى يرى (أن المعانى مشتركة بين أرباب هذه الصناعة ، وانما يتفاضلون فى تركيبها ، واختلاف صورها) (١٣٨) ، وثالثة يرى أن هذا من توافق الخواطر وتواردها ولا شىء فى ذلك ، (وأما المواردة : هى أن يتفق اختراع المنشىء لانشاء من قبله من الافاضل ، فذلك دليل على قوة انشائه وحسن خاطره) ويستدل على ذلك بأبيات للحطيئة ، أنشدها ابن ميادة فقال:

ونواره ميل الى الشمس ظاهرة ...

فقيل لابن ميادة هذا الحطيئة قال : أكذلك هو ؟ قيل نعم . فقال الان علمت أنى شاعر ، ما سمعت بهذا الا الساعة (١٣٩) .

أما فى الاستدراك فانه يتكلم عن عمود المعانى ، فالذى يخرج عن هذا العمود ، يكون معنى انفرد به الشاعر دون غيره ، ومن

---

(١٣٦) الجامع الكبير ص ٢٤٣ .
(١٣٧) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٥ .
(١٣٨) الجامع الكبير ص ٢٤٤ .
(١٣٩) المفتاح المنشا ص ٣١٧ .

يأخذه منه يكون سارقا له [١٤٠] ، أما المعانى التى لا يمكن أن تتشعب عن هذا العمود فان قائلها بلغ النهــاية فيها ، ولم يتــرك زيادة لمستزيد ، ولذا علق عليه د/ هدارة قائلا (ومعنى هذا أن باب الابتداع الذى قال عنه ابن الاثير انه مفتوح الى غير نهاية ، ليس مفتوحا بالنسبة لجميع المعانى ، فهناك معان ضغطت مائيتها ولــم يبق الاول منها للاخر ثمالة يضيف اليها رحيق فكره ، وأخرى لــم تستنفد لان الاوائل لم يلحوا عليها كثيرا بخيالهم) [١٤١] وهذا محال ، فالقرائح تجود بما عندها ، كل حسب ثقافته واستعداده

كما رأى أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها الا بحفظ الاشعار الكثيرة التى لا يحصرها عدد فى عصور الادب المختلفة وليس عصر دون عصر (فمن رام الاخذ بنواصيها ، والاشتمال على قواصيها ، بأن يتصفح الاشعار تصفحا ، ويقتنع بتأملها ناظرا فانه لا يظفر منها الا بالحــواشى والاطراف) [١٤٢] • والدليــل على ما وجده ابن الاثير فى كل من دمشق سنة سبع وثمانين وخمسمائة ومصر سنة تسع وتسعين وخمســمائة حيث وجــد أهل المصرين يلهجون بأبيات ويزعمون أنها من المعانى الغريبة التى عقمت القرائح بعدها أن تلد مثلها ، فأوقفهم على حقيقتها وأخبرهم بأن ابن الخياط أخذ معناه من المتنبى ، وعمارة اليمنى أخذ معناه من أبى تمام [١٤٣] ولم يبعد العهد والزمن لا بالمتنبى ، ولا بأبى تمام فكيف يكون الحال لمن بعد عهده ، ودرس شعره •

---

(١٤٠) مشكلة السرقات ص ١٣٣ •
(١٤١) مشكلة السرقات ص ١٣٤ •
(١٤٢) المثل السائر جـ٢ ص ٣٦٦ •
(١٤٣) المرجع السابق جـ٢ ص ٣٦٧

ولذا كانت عدته فى التأليف ، الوقوف من الشعر على كل ديوان ومجموع ، المحفوظ منه والمسموع ، فلما رآه بحرا لا يوقف على ساحله ولم تحص أسماء قائلة ، اقتصر على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده ، فوجد ضالته المنشودة فى أشعار المتنبى فابى تمام والبحترى فهم عنده (لات لشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء)(١٤٤) ولذى هداه لذلك ، النظر والاجتهاد ،وليس التفكير والاتفاق ، وبعد هذا التمحيص اختار دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والالفاظ ، وهذا عليه لاله لان الاحرى به أن يتناولها عند غيرهم من الشعراء ولـكن يكفيه ما قـدم فهو جهد محمود له • فقد درس ، وقسم ، وفرع •

فقد قسم ابن لاثير السرقات الى أقسام خمسة ثم شعب وفرع من هذه الاقسام ما يأتى :

أولا — النسخ : ويقع على ضربين :

(أ) أخذ اللفظ والمعنى جميعادون زيادة عليه ويسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرىء القيس :

وقوفا بها صبحى على مطيهم ∴ يقولون لا تهلك أس وتحمـل

---

(١٤٤) المثل السائر جـ٢ ص ٦٨ وان كان فى كتبه الاخرى لم يتقيد كثيرا بهذا القيد انظر الجامع مثلا ص ٢٤٤ وما بعدها •

فقد أخذه طرفه وخالف فى لفظ واحد فى فقال :

وقوفا بها صحبى على مطيهم ∴ يقولون لا تهلك أسا وتجـلد

وقد اكثر الفرزدق وجـرير من هذا فى شـعرهما ، وأحيانا يتساويان لفظا بلفظ لدرجة قيل انهما كانا ينطقان فى بعض الاحوال عن ضمير واحد ، وان كان ابن الاثير يستبعد ذلك (١٤٥) •

(ب) أخذ المعنى وأكثر اللفظ ، مثل قول قائل فى مدح معبـد المغنى :

أجاد طويس والسريجى بعـده ∴ وما قصبات السبق الا لمعبـد

أخذه أبو تمام فقال :

محاسن أصناف المغنين جمـة ∴ وما قصبات السبق الا لمعبـد

الثانى السلخ : وهو أخذ بعض المعنى ، مأخوذا ذلك من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المبلوخ وقد قسمه الى أحد عشر ضربا (١٤٦) ، ويرى أن هذا التقسيم أوجبته القسمة ، وأقسامه هى : وأقسامه هى :

١ — أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو اياه ، وهذا من أدق السرقات مذهبا ، وأحسنها صورة ولا يأتى الا قليلا لان الشاعر يعميه على غير عارفيه فتكون معرفة أن هذا

---

(١٤٥) المثل السائر جـ٢ ص ٣٧٢ •

(١٤٦) المثل السائر جـ٢ ص ٣٧٣ وان نص على أنه اثنا عشر ضربا لكنه لم يذكر الضرب الثانى عشر •

المعنى من ذاك عسرة غامضة ، فهو غير متبين الا لمن كان أعرق فى ممارسة الاشعار وغاص فى استخراج المعانى كقول الشاعر :

لقد زادنى حبا لنفسى أننى ∴ بغيض الى كل امرىء غير طائل

فأخذه المتنبى واستخرج منه معنى آخر الا أنه شبيهه فقال :

واذا أتتك مذمتى من ناقص ∴ فهى الشهادة لى بأنى فاضل

وهذا النوع يتنوع بين الغموض والوضوح .

٢ — أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ ، وذلك مما يصعب جداً، ولا يكاد يأتى الا قليلا ، كما يتنوع بين الغموض والدقة والغرابة كقوله عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ∴ من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو ينال رغيبة ∴ ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

أخذه أبو تمام فقال :

فتى مات بين الضرب والطعن مية ∴ تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

٣ — أخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق ، وهذه المآخذ افتضح بها البحترى غاية الافتضاح وتبعه فى نفس الطريق فحول الشعراء ، من ذلك قول أبى تمام :

فلم أمدحك تفخيما بشعرى ∴ ولكنى مدحت بك المديحا

فقد أخذه من قول حسان بن ثابت فى مدحه للرسول ﷺ :

ما ان مدحت محمدا بمقـالتى ∴ لكن مدحت بمقالتى محمدا (١٤٧)

ولذا يرى ابن الاثير فى هذا الضرب أنه لابد من مخالفـة المتأخر المتقدم ، كأن يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر ، أو يوجز فى لفظة أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته ، فاذا لم يفعل الشاعر ذلك ووضع ما أخذه واضحا بينا دلّ على نفسه بالسـرقة كقول المتنبى :

لم يسلم الكرفى الاعقاب مهجته ∴ ان كان أسلمها الاصحاب والشيع

أخذه من قول أبى تمام من قصيدة على وزنها وقافيتها :

ما غاب عنكم من الاقدام اكرمه ∴ فى الروع اذا غابت الانصار والشيع

وليس فى السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة (١٤٨) .

٤ — وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة لأنه من السرقات الخفية جدا ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة كقول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هـواك لذيذة ∴ شـغفا بذكرك فليلمنى اللـوم

الذى أخذه المتنبى فعكسه قائلا :

أأحبـه وأحب فيه ملامـة ∴ ان الملامة فيه من أعدائه (١٤٩)

---

(١٤٧) المثل السائر جـ٢ ص ٣٧٧ .
(١٤٨) المثل السائر جـ٢ ص ٣٧٩ .
(١٤٩) السابق جـ٢ ص ٣٨٠ .

٥ — أخذ بعض المعنى ، كقول على بن جبلة :

وأثل مالم يحوه متقــــــدم ∴ وان نالــه اخـر فهو تابـــــع

فأخذ بعضه المتنبى فقال :

ترفع عن عون المكارم قــــدره ∴ فما يفعل الفعلات الا عــــذاريا

فالمتنبى فعل مالم يفعله غيره ، أما ابن جبلة ، فانه أيضا فعل مالم يفعله أحد ممن تقدمه أيضا ، وان نال منه الاخر شيئا فانما هو مقتد به وتابع له .

٦ — وهو أن يؤخذ المعنى فيزداد عليه معنى آخر ، كقول المتنبى :

وملمومة زرد ثوبهـــــا ∴ ولكنــــــه بالقنامخمــــل

فقد أخذه من أبى نواس ، فى قوله :

امام خميس أرجـــوان كأنه ∴ قميص محوك من قنا وجيـــاد

فزاد أبو الطيب على معنى أبى نواس ، فصار أحق منه به

٧ — وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الاولى وهذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة(١٥٠) كقول أبى تمام :

---

(١٥٠) المثل السائر جـ٢ ص ٣٨٦ .

جذلان من ظفر حران ان رجعت ∴ مخضوبة منـــكم أظفـاره بدمى

أخذه البحترى فقال :

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ∴ تذكرت القـــربى ففاضت دموعهـا

٨ — ان يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا ، وذلك من أحسن السرقات ، لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم فى القول وسعة باعه فى البلاغة ، كقول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ∴ وفاز بالطيبات الفاتك اللهـــج

أخذه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مـات غما ∴ وفاز باللذة الجســـــور

فبين البيتين لفظتان فى التأليف (١٥١) .

٩ — وينقسم الى قسمين :

(أ) أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا ، وهو من السرقات التى يسامح فيها صاحبها (١٥٢) كقول الاخطل (١٥٣) .

لاتنه عن خلق وتاتى مثـــله ∴ عار عليك اذا فعلت عظـــيم

---

(١٥١) المثل السائر جـ٢ ص ٣٨٨ .
(١٥٢) المثل السائر جـ٢ ص ٣٩٠ .
(١٥٣) والمشهور أنه لابى الاسود الدؤلى .

أخذه أبو تمام فقال :

ألوم من بخلت يداه واغتدى ∴ للبخل نزيا ؟ ســاء ذاك صنعا

فالاول نهى عن الاتيان بما ينهى عنه مطلقا ، وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا فى بابه ، أما أبو تمام ، فانه خصص ذلك بالبخل، وهو خلق واحد من جملة الاخلاق •

(ب) جعل الخاص عاما كقول ابى تمام :

ولو حاردت شول عذرت لقاحها ∴ ولكن منعت الدر والضرع حـــافل

أخذه المتنبى فجعله عاما :

وما يؤلم الحرمان من كف حارم ∴ كما يؤلم الحرمان من كف رازق(١٥٤)

١٠ — زيادة البيان مع المساواة فى المعنى ، وذلك بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه كقول أبى تمام :

هو الصنع ان يجعل فنفع وان يرث ∴ فللريث فى بعض المواطن أنفــع

فقد أخذه المتنبى فأوضحه بمثال ضربه له وقال :

ومن الخير بطء ســـيبك عنى ∴ أسرع السـحب فى المسير الجهام

وهذا من المبتدع ، لا من المسروق ، وما أحسن ما أتى بهذا المعنى فى المثال المناسب له (١٥٥) •

---

(١٥٤) انظر المثل السائر جـ٢ ص ٣٩٠ •
(١٥٥) انظر المثل السائر جـ٢ ص ٣٩١ •

١١ ـ اتحاد الطريق واختلاف المقصد ، ومثاله أن يسـلك الشاعران طريقا واحدة ، فتخرج بهاالى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الاخر (١٥٦) فمما جاء منه قول النابغة:

اذا ما غزى بالجيش حلق فوقه ∴ عصائب طير تهتدى بعصـائب
جوانح قد أيقـن أن قبيلة ∴ اذا ما التقى الجمعان أول غـالب

وهذا المعنى توارد عليه كثير من الشعراء قديما وحديثا وأوردوه كثيرا فقال أبو نواس :

تتمنى الطـير غـزوته ∴ ثقـة باللحـم من جـزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها ∴ فهن يتبعنه فى كـل مرتحل

وكلها معان لا تفاضل بينها الا من جهة السبك أولا يجاز فى اللفظ أما مسلم بن الوليد ، فقد أعرب فى هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده اليها فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبهـا ∴ خوفا فأنفسها اليك تطـير
لو حاكمتك فطالبتك بذحلهـا ∴ شهدت عليك ثعـالب ونسـور

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم على غير فى هذا المعنى (١٥٧) وأيضا فهذا من المليح البديع لابن الاثـير مما حدا بالدكتور / محمد هدارة الى القول :

---

(١٥٦) المثل السائر جـ٢ ص ٣٩١ .
(١٥٧) المثل السائر جـ٢ ص ٤٠٤ .

(ولاشك أن هذا الضرب جديد عند ابن الاثير ، اذ أن يخرج عن حدود المعانى الجزئية فى البيت الواحد ، ليلمح تأثر الشعراء بعضهم ببعض فى قصائدهم ذات الموضوع الواحد ، ينظر اليها بوصفها وحدة ، ويتحسس التأثر والتأثير فى مجموع المعانى لا فى مفرداتها • ويستطيع بهذه النظرة أن يدرك استيحاء المتأخر من المتقدم ، ويفاضل بين شاعر وآخر ، ويتبين تطور المعنى من شاعر لاخر ومن عصر لعصر ، وتلك هى الدراسة الجدية الحقيقية التى يعنى بها النقد من وراء مشكلة السرقات) (١٥٨) •

ثالثا : المسخ وهو قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة ، أى احالة المعنى الى مادونه ، مأخوذا من مسخ الآدميين قردة(١٥٩) وهذا من أرذل السرقات (١٦٠) كقول أبى تمام :

فتى لا يرى أن الفريضة مقتـــل .:. ولكن يرى أن العيوب مقاتـــل

وقول المتنبى :

يرى أن ما بان منك لضارب .:. باقتل مما بان منك لعـــائب

(فهو وان لم يشوه المعنى ، فقد شوه الصورة) (١٦١) •

أما الشق الاخر من المسخ وهو قلب الصورة القبيحة الى

---

(١٥٨) مشكلة السرقات ص ١٣١ •
(١٥٩) المثل السائر جـ٢ ص ٣٦٦ •
(١٦٠) السابق ص ٤١٠ •
(١٦١) السابق ص ٤١٠ •

صورة حسنة ، فانه لا يراها سرقة ، بل يراها اصلاحا وتهذيبا [١٦٢] وما دام الامر كذلك فانها ليست من المسخ فى شىء ، بل اصلاح لما أفسد على يد من لا يعى •

أما القسمان الاخيران ، وهما الرابع ، والخامس ، واللذان أخل بذكرهما فى كتابه الاستدراك وهما : أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، وعكس المعنى الى ضده واكد أنه سوف يتناولهما فى المثل السائر فاننا لم نجد لهما ذكرا ، ولربما أنست ابن الاثير هذه الاقسام الكثيرة والتفريعات العديدة ذكر هذين القسمين ، وان كان أورد ضمن انوع الثانى وهو السلخ بعض الالوان التى تنطبق عليها تسمية هذين النوعين الا أن كلامه الذى ينص على أن هذين النوعين ليسا بنسخ ولا سلخ ، ولا مسخ [١٦٣] يد حض ذلك ، فأين اذن بقية الاقسام ؟•

يبقى بعد ذلك لابن الاثير هذا الجهد العلمى النقدى الرائع الذى يدل مع الشق الاول وهو دراسة البلاغة على ذوق الرجل وعلمه ورسوخ قدمه فى مضمار النقد والبلاغة ، ويكفيه ما قدم ، ومن أراد المزيد ، فليبحث ولينقب شريطة أن يسير على الدرب دون كلل أو ملل •

وبهذا ايضا نكون قد أنتهينا من دراسة ابن الاثير للبلاغة بفنونها الثلاثة المعانى والبيان والبديع ، وللحق فان للرجل نظرات صائبة وتذوق يفوق غيره كثيرا ممن تصدوا للتأليف البلاغى فقد

---

(١٦٢) السابق ص ٤١١ •

(١٦٣) السابق ص ٣٦٦ •

ناقش وعلل ومثل وحلل ونقد وصوب ، وأتى بمسميات لم يسبق اليها • كما أن البلاغة يجب أن تدرس كماقسمها الىصناعةمعنوية وأخرى لفظية ،ولا كما هو معروف من علم معان وبيان وبديع لان البديع يجب أن يضم الى فنى المعانى والبيان ، وقد رأينا صدق ذلك خاصة فى دراسة الألتفات ، فيكفى الرجل ما قدم •

وبهذا تنتهى دراسة الرجل لفنون الفصاحة والبلاغة فضرب فيها بسهم وافر وسبر أغوارها وغاص لجها فاستخرج دررها من محارها ونثرها فى كتبه سالفة الذكر كما نثرت فوق العروس الدراهم فازداد كل منهما جمالا بصاحبه ورحم الله ابن لاثير الجزرى على ما قدم للمكتبة العربية البلاغية من جهد يقف به على قدم المساواة مع من ألف فى البلاغة خاصة رجالات المدرسة الأدبية البلاغية •

الخاتمـــــــــة

وبعد ••• فهذا جهد ابن الاثير وهو جهد صادق سابق لم يسر فيه وفق منهج السكاكى أو غيره ممن درسوا البلاغة على أنها ثلاثة فنون ، بل قسمها هو الى الصناعة اللفظية ، والاخرى الصناعة المعنوية ، وأدرج تحت كل قسم منها ما يتصل به مـــن عناصر بلاغية ، كما أنه لم يتقيد بالتسميات الموروثة • ونعتقد أنه أراد أن يدل الكتاب على اسس وقوام صناعتهم وهذا واضح من تسمية كتبه سواء المثل أو الجامع أو المفتاح فقد وضع فيهم أسس وأصول حرفة الكتابة فهى لم تفرد للبلاغة وحدها بل دمج الكتابة واصولها مع البلاغـــة •

ونحن اذا أقصينا ما يخص الكتابة — لأن ذلك بعيد عن البلاغة — لم نجد بدا من التقسيم الثلاثى للبلاغة حتى نضم شتات كل فن الى أصوله أو مع ما يناظره (فالحديث عن هذه الفنون البيانية يأتى عنده متداخلا على حسب ما تستدعيه طبيعة البحث) (١) •

ومن دراستنا لهذا الجهد الأصيل نقول ان الرجل كان مولعا بالتقسيم والتفريع ، والاعتداد بنفسه الى حد كبير ، وصل به الى أن يأخذ من غيره وينسبه لنفسه ثم يرمى غيره بالخطل والخطأ وتلك صفة واضحة فى ابن الاثير أدت به الى الوقوع فى بعض الأخطاء نوهنا عنها فى حينها وذلك — على سبيل المثال لا الحصر — مثل موقفه من درسة المجاز وعيبه على غيره والعيب فيه هو ،

---

(١) فى البلاغة ص ٤٠ علم البيان دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٧٤ د. / عبد العزيز عتيق •

كما أنه لم يفرق بين التشبيه والتمثيل ، وقسمه من حيث اللفظ ، ومن حيث المعنى كما أنه خلط أيضا بين الاستعارة والتشبيه مضمر الاداة ، كما أدخل المشاكلة ضمن الطباق والمقابلة وألحق الجمع مع التفريق والتقسيم ضمن التقسيم ، وبالجملة فانه مزج كثيرا بين الوان البديع بعضها وبعض كما أوضحنا ذلك فى حينه • ولكن يكفى الفاضل أن تعد أخطاؤه ، فانه اذا كان قد وجدت عنده بعض هذه الهنات التى فرضها عليه المنهج الذى اختطه لنفسه فيكفيه دراسته للفصاحة والبلاغة ونظراته الصائبة فيها ، وأيضا تفريقه بـين الكناية والتعريض ، كما أنه رأى ان الطباق جزء من المقابلة ولذا يتوجب اقترانهما ببعضهما بعضا ، وأتى بشكل واضح وواعى للجناس والملحق بالجناس وفرق بينهما الى غير ذلك مع الكثير من التقسيمات والتفريعات التى يلتقى فيها مع السكاكى أحيانا لكن البون شاسع والفرق كبير ، لأن تفريعات ابن الأثير يلونها الفن والذوق الادبى الرفيع ، أما تقسيمات السكاكى فيلونها المنطق ، ويكفى ابن الأثير هــذا •

المصـــادر والمراجـــع (١)

ابن الأثـــير : ابو الفتح نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد بن الأثـــير •

ـ الجامع الكبير فى صـناعة المنظوم من الكلام ، والمنثور تحقيق مصطفى جواد ، وجميل سعيد • مطبعة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٦٥م •

ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر طبع المطبعة المصرية ببولاق سنة ١٣٨٢هـ •

ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر • تحقيق المرحوم محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعـة الباب الحلبى بمصر سنة ١٩٣٩ •

ـ المفتاح المنشا لحديقة الانشا • مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٣٤ أدب •

ـ الوشى المرقوم فى حل المنظوم والمنثور • مطبعة ثمرات الفنون بمصر سنة ١٢٩٨ •

ابن جنـــى :

ـ الخصائص • دار الهدى للطباعة والنشر بيروت لبنان الطبعة الثانية •

---

(١) هذه هى أهم المصادر والمراجع التى عولنا عليها فى الدراسة •

احمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبى :

ـ جوهر الكنز : تحقيق د./ محمد زغلول سلام منشأة المعارف بالاسكندرية .

احمد الهاشمى :

ـ جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع الطبعة الثانية عشرة .

الحسن بن عبد الله العسكرى ، أبو هلال :

ـ الصناعتين : الكتابة والشعر ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان طبعة أولى سنة ١٩٨١ .

الخطيب التبريزى :

ـ الكافى فى العروض والقوافى ، تحقيق الحسانى حسن عبد الله ، طبع دار الجيل للطباعة بالقاهرة لم تذكر سنة الطبع .

الخطيب القزوينى :

ـ التلخيص فى علوم البلاغة . شرح عبد الرحمن البرقوقى . طبع دار الفكر العربى ، لبنان طبعة ثانية سنة ١٩٣٢ .

ـ الايضاح فى علوم البلاغة . دار الجيل بيروت لبنان لم تذكر سنة الطبع .

الدسوقى سلامة :

ـ المدخل فى علوم البلاغة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٥٦ طبعة ثالثة .

عبد القاهر الجرجانى :

ـ أسرار البلاغة فى علم البيان ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان سنة ١٩٧٨ ،

ـ دلائل الاعجاز ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنـــان ١٩٨٧ ،

عبد اللطيف حمزة :

ـ القلقشندى فى كتابة صبح الأعشى عرض وتحليل سلسلة الأعلام ، العدد ٨١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ ،

عبد العزيز عتيق :

ـ فى البلاغة العربية ـ علم البيان ـ دار النهضة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان سنة ١٩٧٤ ،

عمرو بن بحر الجاحظ :

ـ البيان والتبيين دار الكتب العلمية بيروت لبنان لم تذكر سنة الطبع ،

محمد مصطفى هدارة :

ـ مشـــكلة الســـرقات فى النقد العـــربى المكتب الاسلامى ، الطبعة الثالثة ١٩٨١ ،

محمد مرتضى الزبيدى ،

ـ تاج العروس من جواهر القاموس منشورات دار مكتبة الحياة بلبنان ،



الفهرس

الموضوع	الصفحة

« تم بحمــد الله »

رقـــم الايداع ٤٣١٨ / ٨٦
الترقيم الدولى : ٧ ـــ ٠١٥ ـــ ١٥٤ ـــ ٩٧٧

مطبعة الإشعاع الفنية
لصاحبها الحاج يوسف إبراهيم الرفاعي
المعمورة البلد - بحرى - شارع مسجد الأوقاف


Bibliotheca Alexandrina
02297579